

جابر عصفور

نظريات معاصرة

الأعمال الفكرية



0110458

Bibliotheca Alexandrina

نظريات معاصرة

نظريات معاصرة

جابر عصفور



مهرجان القراءة للجميع ٩٨
مكتبة الأسرة
برعاية السيدة سوزان مبارك
(الأعمال الفكرية)

نظريات معاصرة
جابر عصفور .

الغلاف:

الجهات المشاركة:

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقافة

وزارة الإعلام

وزارة التعليم

وزارة التنمية الريفية

المجلس الأعلى للشباب والرياضة

التنفيذ: الهيئة المصرية العامة للكتاب

الإشراف الفني:

للقتان محمود الهندي

المشرف العام

د. سمير سرحان

على سبيل التقديم

تواصل مكتبة الأسرة ٩٨ رسالتها التنويرية وأهدافها النبيلة بربط الأجيال بتراثها الحضارى المتميز منذ فجر التاريخ وإتاحة الفرصة أمام القارئ للتواصل مع الثقافات الأخرى، لأن الكتاب مصدر الثقافة الخالد هو قلعتنا الحصينة وسلاحنا الماضى فى مواكبة عصر المعلومات والمعرفة.

د. سمير سرحان

المؤلف

يعد الاستاذ الدكتور : جابر أحمد عصفور من أهم نقاد الأدب وقد ولد فى ٢٥ مارس ١٩٤٤. المحلة الكبرى. جمهورية مصر العربية

- حصل على الليسانس من قسم اللغة العربية بكلية الآداب - جامعة القاهرة، بتقدير ممتاز مع مرتبة الشرف، يونيو ١٩٦٥م. ثم حصل على درجة الماجستير ١٩٦٩. ثم حصل على درجة الدكتوراه ١٩٧٣.

- تدرج فى وظائف هيئة التدريس فى جامعة القاهرة إلى أن أصبح أستاذاً للنقد ورئيساً لقسم اللغة العربية، إلى أن عين أميناً عاماً للمجلس الأعلى للثقافة، فاكتمل بمهمة التدريس فى جامعة القاهرة.

- وهو رئيس تحرير «فصول» مجلة النقد الأدبى.

- ومن أهم الكتب التي ترجمها إلى العربية.

- عصر البنيوية، الماركسية والنقد الأدبى، النظرية الأدبية المعاصرة.

- ومن مؤلفاته :

- الصورة الفنية فى التراث النقدى والبلاغى.

- مفهوم الشعر، المرایا المتجاوزة، قراءة التراث النقدى، هوامش على دفتر التنوير، إضاءات، أنوار العقل، آفاق العصر.

مفتح

أحسب أن السمة الحاسمة التي تكشف عن أهم ما يتميز به النقد الأدبي المعاصر، في ممارساته العالمية، هي أنه نقد لا يكف عن مسالة ذاته في فعل مسالة موضوعه، ولا تتناقص حدة وعيه بحضوره النوعي بل تتزايد يوما بعد يوم، خصوصا من حيث ما يقوم به هذا النقد من مراجعة مستمرة لمفاهيمه وتصوراته، ومحاسبة متصلة لإجراءاته وأدواته، تعميقا لمجري ممارسته، أو تطويراً لتقنياتها، أو بحثاً عن أفق مغاير يعد بالمزيد من التقدم. ونتيجة ذلك كثرة ما نقرأه من خطاب النقد عن النقد، ليس من منطلق التعريف بالمذاهب والمدارس والاتجاهات والنظريات، وإنما من منطلق المسالة الذاتية التي يتحول بها النقد إلى نقد للنقد أو نقد شارح، تتزايد كتاباته بالقدر الذي يتصاعد به خطاب النظرية.

- ٩ -

هذه الدرجة العالية من الوعي الذاتي مرتبطة، في جانب منها، بالتقدم المذهل لعصر ما بعد الصناعة، ذلك التقدم الذي يعجز القدرة البشرية العادية عن المتابعة في كل مجال من المجالات المعرفية التي تأثرت به. وشواهد ذلك ماثلة في التراكم الاستثنائي للمعلومات والخبرات والتجارب في حقول النقد الأدبي

المختلفة، والتعاقب المتسارع لمدارسه ومذاهبه ومناهجه التى لا تكف عن التغير، والتعدد المتصل لتياراته واتجاهاته ومنازعه، وتصاعد درجات التخصص واتساع مداها الذى لا يزال يتمخض عن فروع جديدة تضيف إلى التراكم المعرفى الذى لا يتوقف عن النمو. وأحسب أن تسارع إيقاع التقدم المطرد لهذا النمو المعرفى هو المسؤول عن تزايد الحاجة إلى تنوع أنواع الموسوعة المتخصصة والمعجم النوعى فى النقد الأدبى كما فى غيره من المجالات. فمع التصاعد المعلوماتى الذى لا يتوقف، وعدم القدرة على متابعة الإيقاع اللاهث لمتغيرات إنجاز كل دائرة من دوائر المجال الواحد، يتحتم وجود ما يكفى من الموسوعات والمعاجم النوعية التى تعين على ملاحقة المعدلات المتضاعفة للتراكم المعلوماتى، ومن ثم تعين على التزود بنظرة الإجمال قبل التفصيل، ومعرفة الكليات قبل الجزئيات، وإدراك العلاقات التى تصوغ الملامح العامة المتبدلة والمفاتيح الاصطلاحية المتغيرة والرموز المعرفية المتحولة.

ويتسع بأفق هذا التراكم تصاعد درجات التبادل وتزايد علاقات التفاعل ما بين النقد الأدبى وغيره من حقول المعرفة المغايرة، سواء فى الدراسات الإنسانية أو الاجتماعية أو العلوم الطبيعية، خصوصا بعد أن انزاحت الحواجز التقليدية بين علوم الإنسان ومعارفه، وتواصلت الحقول والمجالات فى شبكات علائقية من الدوائر التى لم تعد تعرف الاكتفاء الذاتى. وأصبح

الاعتماد المتبادل سمة أساسية من سمات المعرفة المعاصرة فى تقدمها وتعقدتها فى عصر ما بعد الصناعة الذى أصبح عصر المعلومات. والبيئية صفة جديدة من صفات هذه المعرفة التى لا تكف عن التراكم، خصوصا فيما تضيفه يوما بعد يوم من كشف عن مناطق معرفية واعدة فى تجاوب علاقات الدوائر التى ظلت على عزلتها لوقت طويل.

ولا تنفصل معدلات التراكم المعلوماتى عن التقدم العلمى الذى لم نر من آثاره فى النقد الأدبى سوى بواكير البداية فحسب، ولكنها بواكير أخذت تحدث أثرها فى علاقات إنتاج النقد الأدبى وتوزيعه، وذلك على نحو أضاف إلى الوفرة المعرفية التى يتسع امتدادها الأفقى وعمقها الرأسى يوما بعد يوم. ولم يعد الأمر يقتصر، فى هذه العلاقات، على اتساع مدى الإرسال والاستقبال، بسبب التقدم العلمى الذى يسهم فى تطوير تقنيات صناعة إنتاج الكتاب المطبوع وتوزيعه، وإنما جاوز الأمر ذلك إلى أفق غير مسبوق من تقنيات الاتصال وتبادل المعلومات، أفق قرن المقروء بالمسموع والمشاهد، واستبدال بالبحث اليدوى عن المصادر والمراجع الإمكانيات اللامحدودة للحاسوب، وعمل على نقل الآلاف من صفحات الكتب ومجلدات الدوريات إلى ذاكرة الكمبيوتر فى زمن قياسى، واختزل الحجم الضخم للعدد العديد من أجزاء الموسوعة أو المعجم فى قرص صغير ممغنط من أقراص الـ C.D، وأتاح درجة غير مسبوقة من سرعة الحصول على

المعلومات وتبادلها بواسطة شبكة الإنترنت، وخلق بواسطة البريد الإلكتروني E.mail، إمكان علاقات حوارية مغايرة بين النقاد والدارسين على اختلاف تخصصاتهم، وبينهم وبين القراء على تباعد أماكنهم، فكانت النتيجة عودا معرفية لا حد لما تتيحه شبكاتها الاتصالية من سيولة فى المعلومات وسرعة فى التدفق والانتقال كلمح البصر أو لمع البرق ما بين القارات والأقطار والبلدان والأحياء.

هذه الإمكانيات الاتصالية أحالت العالم كله إلى قرية كونية صغيرة بالفعل، قرية لم تعد تعرف الحدود والحواجز التقليدية التى تحول دون انتقال المعلومة وتبادل الخبرة. وسواء نظرنا إلى هذه الإمكانيات من منظور السلب الذى يصلها بمعنى من المعانى الجديدة لعولة الهيمنة، أو نظرنا إليها من منظور الإيجاب بمعنى مقابل من معانى إشاعة المعرفة وتيسير تداولها على امتداد الكوكب الأرضى، فإنها إمكانيات تواكب بقدر ما تؤكد انبثاق نزعة عالمية جديدة فى غاياتها الحضارية، نزعة تسعى إلى مجاوزة أسوار الجغرافيا السياسية بما لا يتناقض وخصوصية الثقافات الوطنية أو القومية. وهى نزعة إنسانية جديدة تستبدل بمفاهيم الهيمنة والتراتب والتمييز والتعصب مفاهيم الاعتماد المتبادل والتكافؤ والمساواة والتسامح التى يتحقق بها التنوع البشرى الخلاق.

ولا تتفصل هذه النزعة الواعدة عن المحاولات المستمرة لخلخلة المركزية القديمة والجديدة. أعنى المركزية الأوروبية التقليدية التى انبنت على التسليم بثوابت ثقافية (فكرية وإبداعية) وعرقية وسياسية غير قابلة للتحويل أو التغيير، ومركزية العولة الجديدة التى تحيل الكرة الأرضية كلها إلى فضاء مفتوح لهيمنة الشركات متعددة ومتعدية الجنسية. وكنهاهما مركزية تواجهها خطابات نقضية تسعى إلى تعرية مخايلاتها الإيديولوجية، والعمل على إشاعة وعى مضاد لوعى التبعية والاتباع بواسطة نوعين أساسيين من الخطاب: أولهما خطاب التابع الذى ترمد على أوضاع تبعيته واتباعه فى العالم الثالث، وأخذ فى تأصيل فعل إبداعه الذاتى الذى يجاوز به مستوى الضرورة إلى مستوى الحرية، ويستبدل بواقع التخلف أفق التقدم. وثانيهما خطاب الطليعة الجذرية من أبناء العالم الأول التى وضعت، ولا تزال تضع، مسلمات الهيمنة ومعتقدات التميز السائدة فى ثقافتها موضع المسائلة النقضية.

ولافئة ملامح خلخلة المركزية التى لا يكف هذان الخطaban عن تعميقها وتوسيع مداها، ابتداء من ممارسات التعددية الصاعدة فى ثقافات الدول الكبرى التى لم تكن تعترف بالتنوع الثقافى، مروراً بما ترتب على الحراك الديموجرافى من تنوع الأصول العرقية والوطنية والقومية للنقاد البارزين فى أى قطر من أقطار العالم الأول، وانتهاء بدخول إبداعات العالم الثالث

وثقافته إلى دائرة الضوء العالمى، ومن ثم الحضور المتزايد لمبدعيه ومفكره فى علاقات تبادل ثقافى مغاير، فرض نفسه على العواصم العالمية وجوائزها الدولية الكبرى.

- ٢ -

وما تعنيه هذه المتغيرات، فى التحليل النهائى، هو اتساع دوائر المشاركة النقدية على امتداد العالم كله، ودخول المزيد من نقاد العالم الثالث فى علاقات إنتاج النقد الأدبى، ومن ثم عمليات توزيعه واستقباله فى مداها العام، وذلك على النحو الذى أحال المشهد العالمى للنقد الأدبى إلى مشهد مُزَاح المركز بأكثر من معنى. أعنى مشهداً لم يعد مقصوراً على قطر واحد بعينه، أو على قارة دون غيرها، أو على توجه ثقافى ينتسب إلى هذا القطب أو ذاك، انتساب الفرنكفونية والأنجلوفونية مثلاً إلى هذه الدولة الكبرى أو تلك، لأنه مشهد أخذ يجاوز ذلك كله، ويضم أقطار الشرق إلى الغرب، ويصل ما بين القارات وصله بين الأوطان والقوميات فى علاقات اتسعت بدوائر الإنتاج النقدى. وكانت النتيجة تزايد معدلات التراكم المعرفى للنقد الأدبى فى العالم الذى تعددت مراكزه النقدية وتنوعت.

وأهم ما يترتب على هذا الوضع هو انفتاح أفق الإبداع الذاتى بما لا يمايز بين نقد ونقد إلا بالإنجاز الكيفى، ووضع خطاب العواصم النقدية الكبرى موضع المسألة بما يكشف عن

بقايا نزعة الهيمنة، ومساءلة خطاب العواصم النامية بما يحررها من احتمالات الوقوع في شرك الهيمنة. وذلك حال يُزيد من توتر الوعي النقدي المُحدث في أقطار العالم الثالث، تحديداً، قلقاً على تقدم الإنجاز، ورغبة في تأكيد الحضور المتكافئ، وحرصاً على الإسهام الذي يتسع بدائرة الإبداع الذاتى. وحين يسعى هذا الوعي إلى التخلص النهائى والكامل من عقدة الاتباع، فى فعل تحرره من كل أنواع التبعية، فإنه يمتد بفعل المساءلة ليشمل كل شئ، ابتداءً من موروثاته الخاصة فى واقعه، مروراً بممارساته المتنوعة فى علاقات هذا الواقع، وانتهاءً بما يأتى إليه من واقع آخر على الضفة المقابلة من البحر أو المحيط، أى ما يسعى إلى تعرفه عند غيره لا على سبيل النقل والاتّباع وإنما على سبيل الإسهام فى الإنتاج. أداته فى ذلك عقل شاك لا يتردد فى مقاومة أى معتقد جامد أو مفهوم تسلطى أو خطاب قمعى أو أنظمة شمولية، عقل لا يكف عن مساءلة نفسه فى فعل مساءلته غيره، مدركاً أن المساءلة كالعقلانية وسيلة حتمية للتحرر من احتمالات الاتّباع ومخايلات التبعية.

ويؤدى ذلك بالطبع إلى ارتفاع درجة الوعي الذاتى لممارسة النقد الأدبى فى العالم الثالث الذى ننتمى إليه، فى موازاة غيرها من ممارسات النقد الأدبى، انطلاقاً من توتر العقل المحدث للطليعة المثقفة فى هذا العالم، ووعياً بمشكلاتها النوعية التى تضع عقلها فى مواجهة مشكلات التخلف والتقدم معاً، وفى

وينفتح على إمكانات الحركة الفاعلة، والمتجددة، حين يغدو فكراً يؤكد مفارقتها التي تجعل منه ذاتاً وموضوعاً، قارئاً ومقروءاً، مرتبطاً بلحظة معرفته التاريخية وساعياً إلى مجاوزتها فى الوقت نفسه.

ويسهل أن نلاحظ كيف ترتبط درجة تطور الممارسة النقدية فى أى مكان من العالم بالمراجعة المستمرة والمساءلة المتصلة، وذلك على نحو يغدو معه خطاب النظرية مؤشراً من مؤشرات التقدم الحاسمة. ولا تُعدُّ وفرة النقد التطبيقى وحدها دليلاً على التقدم من هذا المنظور، بل على العكس تبدو هذه الوفرة، فى أحوال هيمنتها والدعوة إلى التقليل من شأن ما عداها، علامة فقر واستغراق فى وخم العادة التى لا تفضى إلا إلى المزيد من التخلف. ويرجع ذلك إلى أن الممارسة النقدية المتوثبة بروح العاقبة مناقلة دائمة بين النظر والتطبيق، واحتفاء متصل بفعل المراجعة الذى هو فعل المساءلة. وإذا كنا قد تعلمنا شيئاً من تاريخ النقد الأدبى، فى العالم كله، فهو أن الممارسة النقدية لا تحلق منطلقة إلى ذرى الإبداع الذاتى إلا بجناحى التطبيق والتنظير والمراوحة الفعالة بينهما.

ولذلك، فإنه من الأهمية بمكان أن نؤكد الدور الذى يمكن أن يؤديه النقد الشارح ونقد النقد فى ممارساتنا النقدية العربية، خصوصاً أن الغالب على الكثير من هذه الممارسات هو التطبيق

الذى لا يعدو أن يكون تعريفاً بالمعروف، أو تلخيصاً يتفاوت حظه من اللامحاجة، أو نثراً موازياً لهذا المضمون أو ذاك من مضامين النصوص الأدبية. وإذا جاوزنا هذا البعد الضيق لم نجد فى الأغلب الأعم سوى نوع موازن من نقل المفاهيم والنظريات، وعرضها عرضاً يغلب عليه الانبهار الذى لا يعدو أن يكون نوعاً من أنواع المباهاة بمسيرة أحدث صرعات العصر وصيحاته. والاتباع هو الصفة الفكرية لهذا البعد أو ذاك، فلا فارق جذرياً بين من يمضى على سنة تحويل النقد الأدبى إلى تعليقات صحفية أو تلخيصات موجزة لأعمال إبداعية تظل فى حاجة إلى الكشف، ومن يمضى فى التقليد بترديد ما قاله هذا الناقد الغربى أو تضمنته هذه النظرية الأجنبية دون موقف نقدي جذرى أو مساءلة حقيقية لهذا الناقد أو تلك النظرية.

ولا سبيل إلى تحريرنا من أوهام الاتباع الأول أو الثانى إلا بدرجة عالية من الوعى الذاتى الذى يلح على الحضور الفاعل للنقد الشارح ونقد النقد ووعى النظرية فى الوقت نفسه، لا من حيث هى معارف جديدة أو مجالات عصرية براقة، وإنما من حيث هى أدوات ومجالات للمساءلة التى تسهم فى تحرير الممارسة النقدية من سجن الضرورة، وقيود التقليد، وواحدية المركز، وضيق أفق الرؤى السائدة، ودعائى المدّعين، والمهالة الزائفة للألقاب الكبيرة، والرطانة التخيلية للساعين إلى بريق الشهرة الخادعة. ولست فى حاجة إلى تأكيد أن الممارسة النقدية، فى

لحظات التحول ومراحل التغيير، تحتاج إلى مراجعة ما هي عليه، وما حققته، وما تتطلع إلى تحقيقه، واضعة موضع المسألة حدود المفاهيم وإمكانات المنهج وقدرة النظرية، مدركة أن المراجعة كالمسألة هي البداية في مجاوزة ما هو كائن إلى وعود ما يمكن أن يكون.

— ٣ —

وما يطمح إليه هذا الكتاب هو ممارسة فعل المراجعة الذي لا تفارقه المسألة، في جانب بعينه من الجوانب العديدة للنقد الأدبي، وهو الجانب الذي يتصل بالنظريات المؤثرة في ثقافتنا الأدبية والنقدية، أو التي تسعى إلى أن يظل لها تأثير في مجالات الممارسة النقدية، وذلك بتحليلها تحليلًا يضعها في السياق التاريخي الذي يصلها بال لحظة المولدة من ناحية، واللحظة المستقبلية من ناحية ثانية. وفي الوقت نفسه، وضعها موضع الفحص الذي يبين عن حدودها وإمكاناتها في مستويات الممارسة النظرية والتطبيقية. وتدرّج المعالجة الذي يتضمن نوعاً من التعاقب التاريخي مقصوداً في تتابع فصول الكتاب من هذا المنظور. ويقترن ذلك بالتركيز على النظريات الدالة في تعاقب تأثيرها، صعوداً إلى التنظير الشارح الذي يراجع النظرية، من حيث هي نظرية، كاشفاً عن أهميتها ودلالاتها وصحتها، فضلاً عن علاقتها بالتاريخ الذي يتبادل وإياها معنى الذات والموضوع.

ونقطة الانطلاق، في مقارنة الموضوعات، تأويلية بالمعنى الذى يؤكد أن الفهم تملك للمفهوم، وأسرع طريق إلى وضعه موضع المسألة التى تتقدم بالمعرفة، وتفتح أفقا جديدا من الممارسة. أما الإطار المرجعى للتحليل التأويلي والمسألة القيمية فهو الوعى النقدي للعقل الذى يضع نفسه قبل غيره موضع المسألة، ولا يتردد فى مقاومة ما تنطوى عليه النظرية من دعاوى إيديولوجية، خصوصا حين تزعم أنها قادرة على تغطية كل مجال وتفسير كل ظاهرة، وبقدر ما يربط هذا العقل نفسه بأحلام المجتمع المدنى، فى واقعنا العربى المشحون بتناقضاته وتحولاته، ومن ثم برغبة الإسهام فى الانتقال بهذا الواقع من ذهنية الاتباع إلى ذهنية الابتداء، فإن هذا العقل لا يكف عن تأكيد صفته المدنية بوصفه عقلا يواجه كل أنواع الأصولية، ويضع نفسه موضع المناقضة للنظريات التى تغترب بالنقد عن واقعه أو تغترب بالواقع عن وعيه النقدي.

أول يونيو ١٩٩٨

نظرية التعبير

تأصيل النظرية

كلما استمعت إلى الطلاب الذين هم حديثو عهد بالدراسة الأدبية فى الجامعة، أو استمعت إلى الأوصاف الاصطلاحية التى لا يزال يستخدمها المشتغلون بالنقد فى الصحافة، أو قرأت كتب الجيل السابق علينا من أساتذتنا الذين لم يفارقهم الإيمان بأن الأدب وجدان، تأكد فى تفكيرى أهمية الدور الذى لعبته نظرية التعبير فى ميراثنا النقدي القريب، والدور الذى لا تزال تلعبه فى واقع ممارساتنا النقدية المعاصرة، سواء من حيث هيمنتها على الممارسات التى استبقت قيم النموذج الرومانتيكى فى الإبداع، أو هيمنتها على المنحى التأثرى أو الانطباعى الذى لا يزال غالبا على الكثيرين من المشتغلين بالكتابة النقدية، حتى لو تحلوا بأردية معاصرة ذات رواء خادع.

و أتصور أنه لا سبيل إلى مواجهة هيمنة نظرية التعبير، أو على الأقل بقايا هيمنتها على الأفهام، إلا بوضعها موضع المساءلة، وذلك من حيث هى نظرية تولدت فى تاريخ بعينه، وارتبطت بفلسفة عصر بعينه، وكانت رأس حربة نقدية موازية لطليعة إبداعية وفكرية فى حركة متجاوبة الأبعاد والمستويات والمجالات. ومن هذا المنظور، يمكن القول إنه من البديهيات التى يسلم بها أى متذوق للفن أن عملية الإبداع لا تبدأ إلا بوجود انفعال يتخلق داخل الفنان إزاء وقع العالم الخارجى عليه، وأنه دون هذا الانفعال لا يمكن أن يوجد فن على الإطلاق. هذه بديهية

لا يكاد يختلف فيها أحد، ولكن الذى يثير الجدل عادة هو: إلى أى حد يعتمد العمل الفنى على الانفعال؟ وما طبيعته؟ وهل إذا أردنا فهمه رددناه إلى ذات مهتاجة لا تعباً إلا بما فى داخلها أم إلى ذات لا ينقطع وعيها بما حولها من واقع له علاقاته الموضوعية؟ وفى الإجابة عن مثل هذه الأسئلة يكمن الفرق بين نظرية التعبير وباقى النظريات التى أعقبتها أو صاحببتها فى تاريخ فلسفة الفن.

لقد ربطت نظرية التعبير الفن بشخصية الفنان، كى تطلق سراح هذه الشخصية فى حركتها المتفجرة الخلاقة التى لا ينبغي أن تحدها حدود أو تفرض عليها أية قاعدة إلا التعبير عما تؤمن به أو تنفعل إزاءه. وكان الإلحاح التنظيرى على تحرير الشخصية الفردية من عقالها موازياً لتأكيد الإبداع الرومانتيكى تقرد هذه الشخصية وأهمية الكشف عن جوهرها الفريد، ومواكبا صعود الفكر الليبرالى فى المجالات المتعددة التى لازمتها نظرية التعبير ونتجت عنها فى الوقت نفسه. ولذلك، لم يكن يعنى هذه النظرية من العمل الفنى إلا الكشف عن شخصية أو ذاتية الفنان الفردية المتفردة التى ازداد ظهورها خلال عصر النهضة، وأصبحت المعلم الرئيسى لفن القرن التاسع عشر.

ولقد تبلورت نظرية التعبير ، شيئاً فشيئاً، مع توهج شعراء الرومانتيكية الأوروبية فى الدفاع عن ذات الفرد المهددة التى أغفلها الفلاسفة والمشرعون والمبدعون طويلاً. وبدأت تأخذ شكل العرض المنهجى مع الإلحاح على قدرة العمل الفنى فى

التعبير عن استجابة الفنان الشخصية لحادث أو موضوع بعينه،
والربط بين قيمة العمل والكشف عن مزيد من الطاقة الفردية
للمبدع. وأصبح ما يجذب مُنْظَرُ الفن، أو ناقدته، هو الكشف عن
ما يملكه الفنان من ملكات أو سمات خاصة، كما لو كانت هذه
الملكات والسمات العلة الفاعلة وراء الجمال، أو هي مصدر
إعجابنا بما يقدمه الفنان، وكأن من الممكن أن يلخص إعجابنا
بما يقدمه الفنان من عمل فني في عبارة مؤداها: ما أعظم
العبقرية التي تَطَلَّبُها إبداع هذا العمل.

قد تترد العبقرية التي ينطوى عليها العمل الفني بهذا
الفهم إلى التكوين النفسى للفنان، أو إلى قدرته على التعبير عن
هذا التكوين. ولكن جوهر العبقرية يكمن، دوماً، في انفعال فريد
متقد، يتوهج داخل شخصية فريدة متقدمة، تندفع مع آلامها
وأفراحها في مغامرة لا تحدّها حدود، ولا تأبه بقاعدة إلا ما
تنطوى عليه من انفعال مَوَّار لا يسكن ولا يهدأ. هذا الانفعال
الفريد أصبح قرين العبقرية، ومحرك العمل العظيم، ومحل
إعجاب القارئ المتعاطف. وظل أشبه بالبده والمعاد: منه يتولد
العمل، وبه يتميز المبدع، وإليه يرجع فرح المتلقى وإعجابه. كأن
هذا الانفعال علة العلة، أو العلة الأولى التي تربط ما بين المبدع
والعمل والمتلقى في آن.

ولابد أن يتضخم دور الانفعال في عملية التعبير نتيجة ذلك
الفهم، وأن يتعمق المنظرون فهمه وتعليله، ويحاولوا التمييز بينه
والانفعالات العابرة السريعة التي لا قيمة لها، ويقاضلوا بين

الشخصيات أو الذوات تبعاً لما تنطوى عليه من انفعال، وذلك على نحو يتأسس به الأصل الأول من أصول نظرية التعبير بكل ما فيها من نقاط ضعف أو نقاط قوة.

وإذا عدنا إلى هنرى برجسون (١٨٥٩-١٩٤١) فيلسوف الفن الفرنسى البارز، وجدناه يقرر فى أكثر من موضع من فلسفته أن الانفعال أساس وطيد لا يمكن للفن أن يقوم دونه، بل هو جوهر الإبداع فيما يرى هذا الفيلسوف فى الفصل الأول من كتابه «منبع الأخلاق والدين». ولكن هناك فرقاً بين «رجة تقوم على السطح وزلزال يعصف فى الأعماق. الأثر فى الحالة الأولى يتبدد، أما فى الحالة الثانية فيمكث لا يتجزأ. وهو فى الحالة الأولى اهتزاز الأجزاء من غير انتقال، أما فى الحالة الثانية فالكل مندفع إلى أمام».

معنى هذه العبارات أن هناك نوعين من الانفعال عند برجسون: الأول هو بمثابة عاطفة تلى فكرة أو مجرد اهتزاز للإحساس بتأثير يقع على صفحته، أما الثانى فعاطفة لا تنشأ عن تصور فتعقبه وتبقى متميزة عنه، بل هى سبب للحالات العقلية التى ستعقبها لا نتيجة لها. هذا النوع الثانى من الانفعال ينتج عند درجة من المعرفة تتحد فيها الذات بالموضوع، بعد أن تصعد الذات من المستوى العقلى والاجتماعى العاديين إلى نقطة معينة تصدر عنها الحاجة إلى الإبداع. و«الروح التى تقيم فيها هذه الحاجة قد لا تكون شعوراً مليئاً إلا مرة فى العمر. ولكنها تظل حاضرة دوماً، انفعالا فريداً، هزة أو وثبة، تستقبل من أعماق

الأشياء نفسها. وللخضوع إليها خضوعا تاما، لابد من صوغ كلمات أو خلق أفكار».

ويرتبط هذا التمييز بين الانفعالات بفلسفة برجسون الميتافيزيقية عن الحدس الذى هو سبيلنا إلى الوجود المطلق كما يراه برجسون. وداخل هذه الفلسفة يتشابه الصوفى والفنان من حيث تحركهما نتيجة هزة فريدة تدفعهما إلى تعبير لا يستهدف المنفعة العملية بل يستهدف نشوة الكشف الخاص. ويسمو الصوفى والفنان، نتيجة هذه الهزة الفريدة، على مجالات الإدراك العادى المقترنة بالمنفعة المادية، وتقوم على التحليل العقلى. ويصلان إلى درجة عليا من الإدراك، هى الإدراك الوجدانى المباشر أو المعرفة الحدسية التى تضع نفسها وسط العالم المتحرك، وتتشكل بصورة الحياة التى تنبض بها الأشياء. وبهذه المعرفة يدرك الصوفى والفنان الوجود المطلق للأشياء نتيجة ما يقومان به من تجربة التقاء مباشر بها، تجربة تتحرر من منطق العقل وتقعى الحياة فتكتسب طابعا كليا أو إجماليا، ويغلب عليها الانفعال (الفريد) أكثر مما يغلب عليها التحليل العقلى.

ويعثر كل من الصوفى والفنان فى ذاته على الوجود المطلق خلال هذه التجربة المباشرة أو الحدسية، وذلك من غير أن يستخدم أساليب التحليل العقلانية، الأمر الذى يتيح لكل منهما أن ينطلق من الوجود الذاتى المطلق للشئ إلى الوجود المطلق لجميع الأشياء، وذلك بواسطة نوع من العيان المباشر الذى تتكشف فيه المعانى الكلية للبصيرة الحدسية التى تصل ما بين

الصوفى والمبدع الفنان. ويترتب على ذلك أن يصبح الفن ضرباً من الإدراك الحدسى المباشر عند برجسون، لا يهدف المبدع من وراء إبداعه إلى شئ إلا الإدراك الذى يخلو من المنفعة، ولا يقصد إلى شئ إلا متعة الإدراك فى ذاتها. ولن يتحقق ذلك إلا بنوع من الانفصال عن الجوانب النفعية العملية فى الحياة، والاستغراق فى حدس جمالى شبيه كل الشبه بالمشاهدة الصوفية.

وإذا كان الفنان يتغلغل إلى باطن الأشياء، ويدرك منها ما خفى على الناس، بل ما خفى عليه نفسه فى لحظات الإدراك العادية، فإن الانفعال السطحى الذى هو مجرد تأثر وجدانى ساذج بالأشياء لن يقدم له أى عون بل لعله يعوقه أو يمنعه من تحقيق غايته، لارتباط ذلك الانفعال بضرورات الحياة العملية النفعية. ما يهَمُّ الفنان حقيقة هو الانفعال الخلاق العميق (الفريد) الذى يندفع معه العقل إلى الأمام محطماً كل ما يواجهه من حواجز أو صعوبات، فيدرك جوهر الأشياء أو يعانق وجودها المطلق. إن هذا الانفعال قرين الحدس ومبدع الأفكار لأنه «هو الذى ينعش العناصر العقلية التى يتحد بها، بل يحييها، ويروح يلتقط كل ما يمكن أن ينتظم معها حتى تتفتح معطيات المسألة حلاً».

هذا التمييز الذى نجده عند برجسون بين نوعين من الانفعال يمكن أن نجده عند الشاعر والناقد الإنجليزى صامويل تايلور كولردج (١٧٧٢-١٨٣٤) الذى يرد الشعر إلى نوع من الانفعال شبيه بذلك الانفعال الذى ينعش العناصر العقلية، ويمثل

زلزالا تندفع معه كل الأجزاء إلى الأمام فيما يقول برجسون. إن كولردج يلج على عمق الانفعال ويربط بينه والتفكير العميق، ويعدّه بمثابة الحركة الأولى إلى الحدس على نحو ما يفعل برجسون. ولذلك يؤكد أن الذى يميز الشعر هو حالة الانفعال التى تنشأ لدى الشاعر أثناء عملية الخلق. إن الشاعر لديه -أولاً- قدرة على الانفعال أعمق من غيره، وهذه القدرة على الانفعال هى التى تمكنه -ثانياً- من التعاطف مع الأشياء والعواطف والأحداث التى ينطوى عليها موضوع شعره. وبهذا التعاطف تتحد الذات الشاعرة مع موضوعها فى الفعل التخيلى الذى تتكشف فيه الحقيقة حدسيا إزاء الشاعر، فيستشعر اللذة التى تنشأ عن نشاط ملكاته كلها، ويهتز بذلك الانفعال الذى يصاحب عملية تحويل الخيال للعالم الخارجى، ونتيجة ذلك ما يؤكد كولردج من أن الشعر ينطوى دائماً على الانفعال. ويفهم الانفعال بأكثر مدلولاته اتساعاً، أى بمعنى الحالة الكاملة لاضطراب الأحاسيس والملكات، الحالة التى تهز الأعماق كلها، وتؤدى إلى الاتحاد الكامل بين الذات والموضوع.

يضاف إلى ذلك تفرقة كولردج الشهيرة بين الوهم والخيال. إن هذه التفرقة تقوم على التسليم بالفرق بين حركة الخيال الذى يصهر المدركات فى وقدة انفعال عميق متوهج، وحركة الوهم الباردة التى يحاول فيها العقل أن يربط بين العناصر والمدركات فيفشل فى إيجاد كُلِّ حَيٍّ مُوَحَّدٍ، ولاينتج إلا عالماً من الصور المفككة غير المترابطة عضوياً. وإذا كانت حركة

الانفعال تتم فى وقدة انفعال يهز كيان الشاعر كله، فإن هذه الوقدة توحد بين الذات والموضوع، وتفضى بالشاعر إلى الكشف عن الحقيقة فى لون من الحدس أسمى من التفكير المنطقى، ذلك لأن الفعل الحدسى للخيال ينفذ مباشرة إلى صميم الأشياء، ويكشف عن المعنى الأزلى فى الكون، ذلك المعنى الذى ترجع إليه جميع الكائنات، ويدل على جوهر الوجود ومطلق خلقه، الأمر الذى يغدو معه الفعل التخيلى للإنسان (أو الأنا المحدود) تمثيلاً لفعل الخلق الأزلى للأنا المطلق وتكراراً له بأكثر من معنى.

هذا التمييز بين لونين من الانفعال وربطه بالقدرة على الكشف عن الحقيقة المطلقة التى يتفياها الشاعر يقارب بين كولردج وبرجسون، وهو تقارب له أصله التاريخى لأن كولردج كان خطوة مهدت الطريق أمام فلسفة برجسون، فضلاً عن أن كليهما تأثر كل التأثر بالفلسفة الميتافيزيقية الألمانية، وبخاصة فلسفة الفيلسوف الألمانى شيلنج (١٧٧٥-١٨٥٤). وقد استمع برجسون فى شبابه إلى محاضرات شيلنج فى ميونخ عام ١٨٣٥، أما كولردج فقد بلغ من حمسه لشيلنج أنه قال فى كتابه «سيرة أدبية»: «إنه سيسعدنى ويشرفنى جداً لو تمكنت من جعل مذهب شيلنج مفهوماً لدى مواطنى، ومن تطبيق هذا المذهب على أجل الموضوعات لأسمى الغايات».

ومهما يكن من أمر، فإن التمييز بين نوعين من الانفعال والإلحاح على طبيعة الانفعال ونوعيته أمر طبيعى فى الفلسفة المثالية بوجه عام، وفى إطار التأصيل النظرى للإبداع

الرومانتيكي بوجه خاص. وكل من كولردج وبرجسون مفكر مثالى فى النهاية يصوغ نظريا مفهوما وجدانيا للفن، يرد الإبداع إلى ذات الفنان المتفردة وعالمه الداخلى الفريد، ويقاوم نظرية المحاكاة التى ربطت الفن بالعالم الخارجى، وألحّت على العام والنمطى إلحاحها على الانضباط العقلانى للشكل. وما دام الفنان قد أصبح «معبرا» عن ذاته أو ما فى عالمه الداخلى، وليس محاكيا ينصاع إلى القواعد الخارجية للمشهد أو القوالب المنطقية للموضوع، فمن البديهي أن يتم التمييز بين درجات الفن على أساس ما فى داخل الفنان المتفرد من انفعالات فريدة تمايز رهافة شعوره بالعالم من حوله، وترقى به دون سواه إلى حال من الحدس الذى يتكشف به معنى العالم، أو تتجلى فيه الحقيقة المطلقة للكون.

هكذا، انبثقت نظرية التعبير فى الفن من كفاح الرومانتيكيين ضد الكلاسيكية الجديدة التى سيطرت على القرن الثامن عشر، والتى كانت استمرارا لنظرية المحاكاة القديمة. وفى عبارة الشاعر الإنجليزى وليام وردزورث (١٧٧٠-١٨٥٠) الشهيرة «الشعر فيض تلقائى لمشاعر قوية» ما يقدم جانبا من جوانب الأساس الفكرى لهذه النظرية. كما تلتبس جذور هذا الأساس الفكرى عند جان چاك روسو (١٧١٢-١٧٧٨) المفكر الكبير الذى أكد دوره الريادى الباكر فيلسوف الفن الألمانى الأصل إرنست كاسيرر (١٨٧٤-١٩٤٥) عى كتابه «مقال فى الإنسان» بوصفه - أى روسو - ممهدا قويا للحركة الرومانسية

بفهمه الفن على أنه فيض للانفعالات والمشاعر لا مجرد وصف أو نسخ للعالم التجريبي كما افترض الكلاسيكيون الجدد. وكان روسو بمفهومه هذا بمثابة لحظة تحول في ميدان الفكر الجمالي. ومنذ هذه اللحظة بدأت تتبلور نظرية التعبير في الفن، ويتكامل لها إطارها النظري بتعاقب علماء الجمال (الاستطقيين) الممثلين لها.

ويذكر إيردل چنكر في كتابه «الفن والحياة» الذي ترجمه المرحوم أحمد حمدي محمود سنة ١٩٦٣ ممثلي هذه النظرية ابتداءً من أوجين فيرون الذي ترجم كتابه عن علم الجمال «الاستطيقا» من الفرنسية إلى الإنجليزية عام ١٨٧٨، مروراً بالروائي الروسي ليو تولستوى (١٨٨٣-١٩١٠) صاحب كتاب «ما الفن» المنشور سنة ١٨٩٦، وهيرن بكتابه «أصول الفن» وينديتو كروتشه (١٨٦٦-١٩٥٢) بكتابه «علم الجمال» و«الموجز». وقد تولى تعريب الكتاب الثاني نزيه الحكيم سنة ١٩٦٣. وهناك، أخيراً، فيلسوف الفن الإنجليزي الحديث روبين كولنجوود (١٨٨٩-١٩٤٣) صاحب كتابي «مرآة العقل» و«مبادئ الفن». وقد تولى ترجمة الكتاب الأخير المرحوم أحمد حمدي محمود ونشرته الدار المصرية للتأليف والترجمة سنة ١٩٦٦.

وما يجمع بين القدماء والمحدثين من هؤلاء المبدعين والمفكرين أو فلاسفة الفن هو الاحتفاء بالتعبير الإبداعي للفرد، ضمن الاحتفاء بالفرد الخلاق الذي يصنع التاريخ على عينه

ويقود الجماعة بقدراته الاستثنائية. وقد أراد هؤلاء جميعاً أن يصححوا خطأ نظرية المحاكاة القديمة التي قرنت الفن بالكشف عن العالم الخارجى وتقليد قوانينه الأساسية فى تصوير عام يركز على الأساسى والجوهرى، ويتم فى ضوء قواعد العقل الثاقب التى تجفو فورة الانفعالات وتنفر من كل ما هو ذاتى أو فردى. وكان فى تقدير الممثلين لنظرية التعبير والمدافعين عنها أو الداعين لها أن إزالة نظرية المحاكاة لا يمكن أن تتحقق إلا عن طريق العودة إلى العالم الداخلى للمبدع، من حيث هو كائن متفرد ينطوى على انفعالات لها أهميتها التى كان لابد من تقديرها والإعلاء من شأنها، إعلاء يتناسب والإعلاء من شأن الفرد الذى أخذ نجمه يعلو مع صعود البرجوازية الأوروبية على مستويات متعددة.

وقد تصور الممثلون لنظرية التعبير هذا الفرد متمرداً على القيود، متأبياً على الجمود، لا ينصاع إلى تقاليد الجماعة وإنما إلى رغبته العارمة فى الحضور، الرغبة التى تنبثق من أعماقه المتفردة. وكما أصبح الفن قرين هذا الفرد فى حركته الخلاقة فى الوجود، وفى فلسفته التى تدور حول قيمة الحرية الفردية، اقترن الفن بأعماق هذا الفرد فى تفرداها وفى تفجرها الذى يتولد عنه الإبداع. هكذا، أصبح الفن لا يعبر عن حقيقة خارجية وإنما يعبر عن حقيقة داخلية، هى مجموعة من الانفعالات الفردية التى تفرض على المبدع أن يعبر عنها، أى أن ينقلها من وجود داخلى إلى وجود خارجى هو العمل الفنى الملموس، وذلك على نحو يغدو

معه الفن تعبيراً عن أى نوع خاص من الانفعال أو الخصائص أو المضمون يصادفه الإنسان فى التجربة.

والتعبير بهذا المعنى فعل يتوسل به المبدع للإفصاح عن ما تموج به نفسه. وما يعبر عنه الفنان بفعل التعبير هو ما يعثر عليه فى ذاته من انفعالات. وإذا كان الأمر كذلك، فإن اكتمال التجربة الفنية أو عدم اكتمالها يرجع إلى الحافز الكامن وراءها، أو بعبارة أخرى إلى قوة الانفعال ما ظل هذا الانفعال يدفع المبدع ويضغط عليه إلى أن يخرج فى شكل، فينتقل من وجوده الداخلى فى أعماق النفس إلى الوجود الخارجى متجسداً فى عمل فنى. ولذلك اهتم كولردج بالانفعال العميق وجعله أساس التفكير العميق والمحرك للخيال فى فعله الخلاق، كما ميز برجسون بين نوعين من الانفعال، يحدث أعمقهما هزة فى روح الإنسان، هى قرينة الحدس الكاشف عن الحقيقة، وذلك بمعنى يدنى بالصوفى والفنان إلى حال من الاتحاد الذى يغدو به الفن ضرباً من الحدس، والكشف الصوفى لونا من الإبداع.

ولم يكن من قبيل المصادفة أن يربط كروتشه بين «الانفعال» و«الحدس» و«التعبير» ويصل بينها وصلاً عميقاً وثيقاً، ذلك لأنه آمن أن الانفعال هو الذى يهب الحدس وحدته وتماسكه. ولا يكون الحدس حدساً حقيقياً ما لم يمثل انفعالاتاً أصيلاً. ومن الانفعال وحده يتفجر الحدس، بل بفضل الانفعال تتحول الصور الناتجة عن الحدس إلى تعبير غنائى هو أساس أنواع الفن بأسره، كما أن الانفعال لن يكون انفعالاتاً أصيلاً ما لم يولد

حدسا، فالحدس هو التعبير عند كروتشه فى نهاية الأمر. لا فارق جذريا بينهما، خصوصا منذ اللحظة التى يتحول بها الانفعال العميق إلى حدس يتجسّد تعبيرا. ويعنى ذلك أنه لا وجود للحدس أو التعبير دون الانفعال، ولا وجود للانفعال دون تعبير، تماما كالفكرة التى لا تكون بالنسبة إلينا فكرة ما لم تجسدها ألفاظ، واللحن الموسيقى الذى لا يمكن أن يكون لحنا ما لم يتحقق بالأنغام.

وأهم خصائص الحدس هى إمكان التعبير عنه فيما يرى كروتشه، أما مالا يمكن التعبير عنه فيظل على مستوى الإحساس، لأن الروح عندما تحدس تقوم بفعل التعبير. وعدم قدرتنا على التعبير ترجع إلى عدم قدرتنا على الحدس، أى أن مالا يتحقق على شكل تعبير ليس حدسا وإنما هو محض إحساس أو انطباع حسى.

عند هذا المستوى، يمكن أن يختلف التمييز بين ما يسمى العمل الفنى الخارجى والعمل الفنى الداخلى، فلا يصبح ثمة وجود إلا للعمل الفنى الداخلى الذى يتم الحدس به أو التعبير عنه على مستوى الروح. ولن تصبح اللغة التى يتجسد فيها العمل الأدبى إلا المظهر الفيزيائى للغة داخلية تحققت صورتها التعبيرية بمجرد أن تم فعل الحدس داخل الفنان فتم التعبير عنه، بداهة، لأن الحدس هو التعبير دون سواه لا أكثر ولا أقل فيما يؤكد كروتشه. ويترتب على ذلك أن تصبح فلسفة اللغة مرادفة لفلسفة الفن، إذ إن اللغة نوع من التعبير، وعلم الجمال (الاستطيقا) علم

لغة عام، تنصرف عنايته إلى التعبير الشامل الذى يضم كلمات الشاعر وألوان الرسام وأنغام الموسيقى وتشكيلات النحات. وإذا كان التعبير حدسا، والحدس تعبيراً، اختلفت الثنائية التقليدية بين الشكل ومحتواه فى الفن عموماً، وبين الصورة والانفعال فى الشعر خصوصاً. وأصبح ما نتحدث عنه من وجود عنصرين فى الشعر، هما الصورة والانفعال، ضرباً من المجاز، لأن هذين العنصرين لا يتميز أحدهما عن الآخر. ولا يمكن أن يوصف الشعر بأنه انفعال أو صورة أو بأنه مجموع الاثنين معاً، بل يوصف بأنه حدس خالص لا تباين بين عناصره أو انفصال. وما يقال عن الشعر يصدق على غيره من أنواع الفن الأخرى أو أجناسه التى تعبر بوسيط آخر غير الكلمات.

لوازم نظرية التعبير

يترتب على التوحيد بين الحدس والتعبير مجموعة من النتائج المترابطة. أولها: رد عملية التعبير كلها إلى الكشف عن انفعال غامض يؤرق الفنان، ويدفعه إلى سبره ومحاولة فهمه، لأن الانفعال يظل غامضا محيرا ملتبسا مقلقا ما لم يُعبر عنه، أو يخرج إلى الوجود بما يتيح استكشافه وفهمه وإدراك كنهه في آن. ويعنى ذلك أن التعبير فعل مقترن بالتحديد والتخصيص، وأنه محاولة لفهم ما لا يمكن فهمه أو إدراكه إلا به من حيث هو فعل من أفعال الفهم والإدراك، ومن ثم الكشف أو الحدس.

وهناك فارق حاسم بين إفراغ الانفعالات وإطلاقها حتى تتبدد، ومحاولة فهمها في عمقها وتفردا حتى يتم الحدس بها أو التعبير عنها. إفراغ الانفعالات عملية عشوائية، إما أن تقضى على الانفعال أو تخفف من حدته، ولكنها لا تقضى نهائيا على التوتر المصاحب له، فذلك التوتر لا يختفى إلا إذا تجسد انفعال الفنان في شكل تعبيرى يعود عليه بالنفع، وأصبح هذا الشكل التعبيري قادرا على أن يمكن الفنان من الفهم، ويخفف من حدة توتره ومعاناته نتيجة الشعور الممتع الذى يصاحب الفهم.

وعندما نقول إن المبدع قد عبر عن انفعال ما، من هذا المنظور، فإن المقصود هو أن المبدع كان لديه انفعال يؤرقه ويدفعه إلى التعبير لأن كل انفعال لم يتم التعبير عنه يصحبه شعور بالضيق، فإذا عبر عنه وأمكن خروجه إلى الوعي، أدى ذلك

إلى ظهور الانفعال مصحوبا بشعور الراحة والترويح. بعبارة أخرى، إن القول بأن المبدع بدأ التعبير عن ما لديه يعنى أنه على وعى ما بهذا الذى لديه، أو على وعى بأن لديه انفعالا. ولكن المبدع لا يعى ماهية هذا الانفعال أو كنهه أو خصوصيته أو تفرد ملامحه. كل ما يعيه هو حدوث قلق أو اضطراب يغمر جوانبه، لكنه يجهل حقيقة هذا الاضطراب، ويعجز عن فهم كنهه. ومن هذه الحالة يتحرك فعل التعبير داخل الفنان مستهدفا التفريج عما فى الداخل، فإذا تم ذلك شعر الفنان كأن روحه قد هدأت. لكن الروح لا تهدأ إلا بعد الفهم والكشف، فالفهم امتلاك للمفهوم، والكشف تعرف المجهول وإدراك هويته وماهيته. وإذا كان فعل التعبير فعل فهم واكتشاف بهذا المعنى فإنه فعل يخضع للتوجيه بالضرورة، ذلك لأنه فعل لا يبدأ إلا إذا وعى الفنان ما لديه على نحو من الأنحاء، ليس على سبيل الوعى بوجود خامل، وإنما على سبيل الوعى بحضور ما لموجود داخلى غامض لا يتكشف إلا خلال فعل التعبير وبواسطته. فالتوجيه مقصور على محاولة الكشف فحسب، أما نتيجة المحاولة فلن تعرف إلا بعد أن يتم الفعل التعبيري نفسه فيما يقول كولنجوود. أى أن الفنان لا يعرف ما يعانیه إلا بعد أن يتم التعبير عنه.

يترتب على ذلك أن فعل التعبير يهدف أول ما يهدف إلى أن يكشف للمبدع ذاته عن ما فى داخله، فهو فعل لازم لا يتعدى إلى غير صاحبه إلا بعد اكتماله أو انتهائه. أعنى أن الفنان لحظة التعبير لا يورق نفسه بالمتلقى، إنه منشغل بما فى داخله فحسب،

أما الأثر الذى يحدثه الفعل التعبيري بعد ذلك فى الآخرين فهو شئ لم يكن يجول بخاطر الفنان أو يشغله. وذلك فهم يدفعنا إلى معاودة النظر فى مبدأ العدوى أو التوصيل عند تولستوى، فهو مبدأ لا يتحقق إلا بعد أن يتم التعبير عن انفعال داخل المبدع أولاً. لنقل مع تولستوى إن الفن عملية إنسانية فحواها أن ينقل إنسان إلى الآخرين، واعيا ومستعملا إشارات خارجية معينة، الانفعالات التى عاناها فتنتقل إليهم عدواها، كى يعيشوها ويعاينوها أو يجربوها بأكثر من معنى. ولكن ما دام المبدع لا يعرف ما يعاينه إلا بعد أن يعبر عنه، ولا يكتشف الملامح المائزة لما يؤرقه إلا بعد أن يتجسد بواسطة فعل التعبير ومن خلاله، فإن ذلك المبدع لا يمكن أن يعدى الآخرين إلا بعد أن يتم الفعل التعبيري. وعندئذ، يغدو الهدف من إثارة العدوى هو حث المتلقى أو الآخرين على إدراك كيف نشعر، وأن نوصل إليهم ما يشبه الأثر نفسه الذى حدث لنا أثناء عملية التعبير، الأمر الذى يكشف لهم عن ما صار مكشوفاً لنا، ويفضى بهم إلى استجابة انفعالية مماثلة لما سبق أن عايناه. ولن يحدث ذلك فيما يقول فلاسفة التعبير بوصف الانفعال وإنما بالتعبير عنه بعد أن صار واضحاً لنا، فتحدث فيهم استجابة انفعالية لما سبق أن عايناه. ولن يتضح لنا -أو لهم - الانفعال بمجرد أن يوصف بل بعد التعبير عنه.

والفارق بين وصف الانفعال والتعبير عنه حاسم فى هذا المجال. والتمييز بينهما تمييز يترتب على النتائج السابقة التى

تجعل التعبير قرين التوضيح والكشف والتحديد أو التخصيص. وصف الانفعال يعنى التعميم والنزوع إلى إطلاق أحكام عامة على الانفعال، كما يعنى تصنيف الانفعالات فى بطاقات لا تشى بحقيقتها. ولو وصفنا ما لدينا، أو صنفناه فى بطاقات عامة تختزل المتباين من الغضب أو الحزن أو الفرح مثلا، فرّت حقيقة الانفعالات، ولم نتمكن من التعبير عنها، لأن الوصف أو التصنيف لا يفرق بين انفعالاتنا فى لحظة دون أخرى، كما أنه لا يفرق بين انفعالى المتميز وانفعال غيرى المتميز بدوره. إن كل انفعال من انفعالات الحزن، مثلا، يكتسب لدى كل إنسان، وفى وقت دون غيره، خصوصية لا يمكن أن تتكرر. ولن يفلح الوصف فى تجسيد هذه الخصوصية أو تحديدها. أما التعبير فهو القادر، وحده، على تجسيد خصوصية الانفعال المتميز وتحديده. وإذا كان التعبير يعنى الإدراك الكامل لكل ما فى الانفعال من خصائص أو مقومات متفردة، غير قابلة للتكرار أو الاختزال أو التعميم، فإنه يعنى اطراح الكلمات أو الأوصاف العامة التى تدل على كل شئ فلا تدل على أى شئ فى واقع الأمر.

ويقول فلاسفة التعبير إن الوصف قرين التحليل وأداة العقل الذى يركن إلى التصورات العامة التى تساعد الإنسان فى السلوك العملى المباشر، أما التعبير فهو قرين الحدس الذى ندرك به حقائق الانفعال الباطن ونعرف كل معرفة لا تهدف إلى النفع المباشر. وإذا كان الوصف يدور حول الأشياء، ويردها إلى عناصر مشتركة، فالتعبير ينفذ إليها ويكتشف ما هو فريد فيها.

ولذلك كان لكل عمل فنى أدواته ووسائله التعبيرية الخاصة التى لا يمكن تكرارها، أو استخدامها بالكيفية نفسها مرة أخرى، الأمر الذى يؤكد استحالة نسخ أى عمل فنى أو نقله أو ترجمته ما ظل هذا العمل يجسد انفعالا باطنا فريدا لا يتكرر، سواء بالنسبة إلينا أو إلى الفنان الذى عبر عنه.

وينتج عن هذا التمييز ما يؤكد كروتشه من أنه ليس ثمة طرق مختلفة أو درجات مختلفة للتعبير، فالتعبير عملية تتم أنيا، أو على مستوى نفسى لا ينقسم أو يتجزأ. وكان كروتشه يقول إن ترجمة التعبير أو شرحه عملية مستحيلة، إذ ليست الترجمة - سواء منها التى تنقل النص الحرفى، أو توضع قبالة المتن، أو تعتمد على التأويل - إلا مجرد شرح شاحب للأصل: إما أن ينقصه أو يفسده. أما أصل التعبير فيظل متأنيا لا يقبل أى شرح أو ترجمة. «إننا نستطيع - فحسب - أن ننشئ منطقيا ما سبق أن أنشأناه بدهاءة على صورة جمالية، ولكننا لانستطيع أن نأتى بمضمون له صورته الجمالية فنلبسه صورة أخرى هى أيضا جمالية».

وقد أدى التمييز بين الوصف والتعبير على هذا النحو إلى إبراز معضلة الأداة فى الفن، وقدم لونا من التبرير للصراع الشاق الذى خاضه الفنان، ولا يزال يخوضه، لترويض مادته وتطويع أدواته، سواء كانت الكلمة أو اللون أو الحجر أو النغم. وقد عبر الشعراء الرومانتيكيون عن معاناتهم من هذه المعضلة التى دفعت بهم إلى سوء الظن باللغة والشكوى من عجزها. وجاء

فلاسفة التعبير ليخلعوا على سوء الظن والشكوى أساسا نظريا
 براقا يغرى بالقبول. وكما كان كولردج الشاعر الإنجليزي يحلم
 بأن يحطم التناقض بين الكلمات والأشياء، ويرتفع بالكلمة إلى
 مستوى الأشياء الحية بوجه خاص، كان لامرتين الشاعر
 الفرنسي (١٧٩٠-١٨٦٩) يتوجع من عجز اللغة عن التعبير عن
 انفعالاته التي لا يستطيع أن يترجمها. ونطق شكواه على لسان
 بطله «رفائيل» كلمات شاجية صاغها مترجمه أحمد حسن الزيات
 (١٨٨٥-١٩٦٨) صياغة بليغة شاجية، تتوجع من عجز اللغة
 الناقصة القاصرة: «لغة الناس التي لم تُخلق لشرح الغامض
 وتفسير المبهم وإنما هي علامات ناقصة وكلمات فارغة وجمل
 جوفاء وألفاظ باردة، تصهرها نفوسنا بقوتها وحميتها
 واضطرابها صهر المعدن الأبى على النار، ثم تصوغ منها لغة
 أشيرة مبهمة متقدة كألسنة اللهب، نفهمها نحن ولا يفهمها الناس
 لأنها من نفوسنا وذواتنا... لقد كنت أجاهد بلا أمل فقر هذه
 اللغة وجمودها وبرودها لأنى مضطر إلى استعمالها».

ويأتى فلاسفة التعبير ليضعوا شكاية أمثال لامرتين
 وتوجعه فى إطار نظرى يمايز بين وصف الانفعال والتعبير عنه،
 كى يؤكدوا عجز اللغة عن ترجمة الانفعال الفريد، فى نوع من
 التقاليد التى ظلت دالة على أصلها الرومانتيكى الموازى لنظرية
 التعبير. وهى تقاليد أسهم الفيلسوف برجسون فيها بدور ملحوظ،
 دور تؤكد كلماته التى تقول: «نفترض أن كاتباً يصف شخصية
 فى قصة، ويحاول عرض قسماتها فى أقوالها وأفعالها وسلوكها.

هذا الكاتب، مهما بلغ من دقة فى الوصف، لن يصل إلى الانفعال البسيط الذى يشعر به عندما اتحد بهذه الشخصية لأن الوصف والتحليل لا يتساويان مع خبرة الشخصية».

أما الشاعر فمعضلته أعقد من ذلك لأنه يبدأ تجربته بحالة من حالات التوتر البالغ، ويعانى انفعالا باطنيا فريدا فى نوعه وسماته. وعندما يحاول اكتشاف هذا الانفعال أو التعبير عنه يصطدم باللغة التى يفكر بها ويتأمل الأشياء من خلال نسجها. إن اللغة أداة اتصال جماعى، ولأنها كذلك فهى لا تصلح إلا لوصف العام الذى يجمع بين الأفراد، والنمطى الذى تشارك فيه الأشياء، أما الفردى والخاص فلا تستطيع أن تعبر عنه بسبب طبيعتها التى تحصرها فى القواسم المشتركة العامة. والشاعر لا يريد الوصف العام وإنما يريد التعبير، أى أنه يريد أن يحدد سمات انفعاله المتفرد وخصائصه الفردية. ولكى يتجز ما يريد فإنه يضطر إلى أن يغير من طبيعة اللغة، ويرأب صدعها، ومن ثم يعيد تشكيل علاقاتها، ويكون من بين عناصرها المختلفة تراكيب جديدة، يحاول بواسطتها أن يحدد انفعاله أو يعبر عنه. ولذلك يضطر اضطرارا إلى الصورة الشعرية التى هى وسيلته الوحيدة فى التعبير عن الانفعال فى تفرد أو خصوصيته. ولذلك قال كروتشه إن الذى يعبر عنه الشعر ليس شيئا يمكن اللغة المنطقية أن تعبر عنه. وتساءل برجسون عما إذا كان يمكن للغة أن تعبر عن انفعالات النفس. وأجاب بالنفى عن تساؤله لأنه ظل فى دائرة الشكوى التعبيرية من لغة الناس. ويلتقط الخيط من برجسون

الشاعر والناقد الإنجليزي توماس إرنست هيوم T. E. Hulme (١٨٨٣-١٩١٧) أحد مؤسسي «الحركة الصورية» في الشعر الإنجليزي الحديث الذي جمع صديقه هربرت ريد (١٨٩٣-١٩٦٨) أهم ما كتبه من نقد في كتاب بعنوان «تأملات» (١٩٢٤). وهو كتاب يبين عن تأثر بالغ بأفكار برجسون الفلسفية التي تأثر بها هيوم حتى من قبل أن يترجم كتاب برجسون «مقدمة إلى الميتافيزيقيا» إلى الإنجليزية عام ١٩١٢. وقد انتهت به الإعجاب بفلسفة برجسون إلى تطوير تفرقة بين الحدس (تعبير) وطبيعة التحليل (وصف) فأنتهى إلى الإلحاح على حتمية تغيير علاقات اللغة في الشعر وحتمية الصورة الشعرية، بوصفهما ملاذا لا مناص منه للشاعر كي يتمكن من التعبير عن انفعاله، ويفرض على اللغة نقل المنحنى المتميز لهذا الانفعال.

ويعمم هيوم فكرته على لغة الفن أو أدواته بوجه عام، ويقدم نظرة خاصة تبرز بعدا عاما في نظرية التعبير، يتصل بفهمها لمعضلة الأداة في الفن. يقول هيوم:

إن الهدف من الفن هو الوصف الدقيق المتقن والمحدد. وأول ما يجب أن نعرفه هو الصعوبة البالغة في الوصول إلى ذلك لأن المسألة لا تقتصر على مجرد الحرص. إن عليك أن تتوصل باللغة، واللغة ذات طبيعة عامة. أعني أنها تعبر عن ما هو مشترك بيني وبينك وبين الجميع. ولكن كل إنسان يختلف فيما يراه عن غيره بعض الاختلاف. ولكي يعبر عن ما يراه بوضوح

ودقة فلايد من خوض صراع هائل مع اللغة، سواء
 كانت الكلمات فى الأدب أو وسائل التقنية فى غيره من
 الفنون. إن للغة طبيعتها الخاصة، كما أن لها
 مواضعها التقليدية وأفكارها المشتركة. ولا يمكن أن
 نملك ناصيتها ونسخرها لما نريد إلا بجهد عقلى مركز.
 ولذلك يرد بخاطرى دائما أنه من الممكن تمثيل العملية
 الأساسية فى الفن باستخدام الاستعارة التالية: إنك
 تعرف ما أسميه منحنيات المعمار فهى عبارة عن قطع
 مسطحة من الخشب بها كل الانحناءات المختلفة.
 ويمكنك أن تشكل بها أى قوس تريده على وجه
 التقريب إذا قمت باختيار الملائم منها. ولكن الفنان،
 كما أفهمه، لا يستطيع احتمال فكرة التقريب هذه لأنه
 يسعى وراء القوس الذى يحدد تماما ما عنده، سواء
 أكان ما عنده موضوعا أم فكرة فى الذهن. وهنا، لابد
 لى أن أقوم بتعديل هين فى الاستعارة التى أستخدمها
 حتى أوضح العملية على نحو ما يقع فى ذهن الفنان.
 هب أنك حصلت بدلا من قطع الخشب المنحنية على
 قطعة مرنة من الفولاذ بها كل أنواع الانحناءات
 الموجودة فى الخشب. إن حالة التوتر والتركيز التى فى
 ذهن الفنان، إذا كان يقوم بعمل جيد حقا، تشبه حالة
 من يستخدم جميع أصابعه ليثنى قطعة الفولاذ حتى
 تأخذ شكل الانحناء التامة للقوس الذى يريده، وهو

شكل يختلف عن الشكل العادى لقطعة الفولاذ. وإن،
فهناك أمران متميزان: الأمر الأول هو القدرة العقلية
على رؤية الأشياء كما هى عليه بالفعل لا كما تبدو من
خلال المواصفات التقليدية التى اعتدنا أن نرى الأشياء
من خلالها، وتلك فى ذاتها حالة نادرة من حالات
الوعى. والأمر الثانى هو حالة التركيز العقلى
والسيطرة على الذات، وهى حالة ضرورية للتعبير عن
ما يراه المرء. واستبعاد أحد هذين الأمرين يعنى
السقوط فى المنحنىات التقليدية للتقنية. والتمسك بهما
يعنى الوصول إلى المنحنى المطلوب. وأنت حين تبلغ
هذا المستوى من الإخلاص لابد أن تصل إلى الخاصية
الأساسية للفن الجيد.

ويكشف ما يطرحه هيوم من تأملات عن معضلة الفنان
من زاويتين: الزاوية الأولى هى زاوية البحث عن تفرد فى النظرة
إلى الأشياء من خلال انفعال فريد يتجاوز بالفنان حالات
المواصفات أو المواضع التقليدية، وذلك أمر لا يتم إلا بقدرة
عقلية تتجاوز المألوف والشائع، وترى الأشياء على ما هى عليه
بالفعل من خلال حالة تركيز عقلى حاد. وإذا نجح الفنان فى
تجاوز هذا الجانب من المعضلة واجه الجانب الثانى منها، ويتمثل
فى التعبير عن هذه الحالة العقلية التى تنطوى على انفعال فريد،
أى نقله إلى الغير من خلال أداة هى بحكم طبيعتها عامة لا
تستطيع أن تحدد المنحنى المتميز أو الخاص بالحالة العقلية التى

يواجهها المبدع. ولا مفر - إزاء ذلك- من تعديل الأداة تعديلا
يجبرها على نقل المنحنى المتميز للحالة العقلية، غير القابلة
للتكرار، وذلك بطريقة تبرز بها الأداة خصوصية المنحنى من
ناحية وتفقار عموميتها من ناحية أخرى.

ولكن لو افترضنا أننا نغير علاقات اللغة كى نفرض عليها
أن تؤدى المنحنى الخاص بالانفعال، ألا نفصل بين اللغة
والانفعال مع هذا الفرض، ذاهبين إلى التسليم بخصوصية سابقة
على تجسد الانفعال فى اللغة؟ وذلك تسليم يتناقض والتسليم
بالمبدأ السابق الذى يلغى الفصل بين الانفعال وصياغته، وينتهى
بالحدس والتعبير إلى نوع من الاتحاد. إن التسليم بخصوصية
سابقة على تجسد الانفعال لغة يعنى التسليم بنوعين مغايرين من
وجود الانفعال : وجوده الداخلى فى النفس ووجوده الخارجى فى
اللغة. وذلك تسليم يفصل بين اللغة والفكر فى نظرية يزعم غير
واحد من فلاسفتها التوحيد بينهما. وأهم من ذلك كيف نرمى
اللغة بالعجز، وهى ليست مجرد وعاء منفصل عن الفكر بل هى
فكرنا نفسه، كما أنها ليست وسيلتنا فى التواصل فحسب، بل
وسيلتنا التى لاغنى عنها لكل تطور إنسانى يميزنا بوصفنا
بشرا؟ وأخيرا، إذا سلمنا بأننا نجبر اللغة على أن تعبر عن
خصوصية الانفعال لا أن تصفه، ألا يعنى ذلك أننا نسلم بمبدأ
المحاكاة القديم دون أن ننتبه، ولكن بعد أن نقلناه من خارج
الفنان إلى داخله، وبعد أن أصبحنا نلوذ بعبارات موهمة عن
«الصدق النفسى» أو «الأداء النفسى» أو «تصوير العالم»

الداخلي». وهى عبارات لا تزال شائعة فى نقدنا العربى، تقودنا إلى التسليم بنوع من المحاكاة التى تفرض السؤال الحاسم عن الفارق الجذرى بين فعل التعبير وفعل المحاكاة. وأتصور أن هذا النوع من المسألة وضع نظرية التعبير موضع الاتهام منذ سنوات بعيدة، وفرض عليها مواجهة الكثير من الاعتراضات الحاسمة التى أدت إلى تعديل النظرية وتقديم صورة جديدة لها، صورة صيغت ملامحها الأساسية من منطلق التركيز على الطابع التشكيلى لعملية التعبير.

تطوير نظرية التعبير

لعلنا نسلم بتفرقة برجسون بين الانفعالات لو كنا نؤمن أن الفن تعبير مباشر عن الانفعالات، وأن الصلة بين ناتج التعبير وأصله هي الصلة بين السبب ونتيجته المباشرة. وما دام الشاعر، أو الأديب عموماً، يعبر عن انفعالاته على نحو مباشر، ولا جهد له سوى نقل ما في الداخل إلى الخارج على نحو ما هو عليه، فإن درجة تفاضل التعبير ستتوقف على ثراء الانفعالات الداخلية أو عمقها أو سموها أو أية صفة أخرى من صفات القيمة الموجبة في النظرية. وقد نسلم بما قاله روبرت كولنجوود بقصد إلغاء الهوة بين الفنان والإنسان العادي عن عدم إمكان تقسيم الانفعالات إلى انفعالات صالحة للتعبير بواسطة الفنان وانفعالات غير صالحة، ونرى معه أن أي نوع من الانتقاء أو التعبير عن انفعال دون آخر أمر يتعارض مع الفن إذ لا يمكن لنا أن نعرف ماهية الانفعالات التي نشعر بها إلا إذا عبرنا عنها، ومن ثم فلن نكون في وضع يسمح لنا بالانتقاء أو المفاضلة قبل فعل التعبير. أقول قد نسلم بما قاله كولنجوود عن التسوية بين الانفعالات لو سلمنا أصلاً بالأهمية التي يخلعها على الانفعالات، والتي جعلته شأنه شأن باقي ممثلي النظرية يفترض أن تحقق العمل الفني صاحبه شعور ممتع بالراحة أو التفريغ يدل على زوال الضيق الذي يسببه الانفعال للفنان قبل التعبير عنه. إن مثل هذا الفهم يبسط وظيفة الفن ويقارب ما بينها والطرطشة الانفعالية إذا صح

التعبير. ولن يجدى الحديث عما يكتسبه الانفعال داخل التعبير من تنظيم أو تحدد فى مثل هذه الحالة، فمثل ذلك التمثيل يظل بلا قيمة أو معنى ما ظللنا نفهمه على أنه نوع من الراحة للمبدع فحسب، أو نوع من البوح الذاتى أو الاعتراف النفسى المباشر. وهو تصور يضيق دائرة الفن ويضخم الدور الذى يقوم به الانفعال فى الوقت نفسه.

ولذلك يذهب كثير من النقاد المحدثين إلى رفض الإلحاح على الانفعال فى الفن، ويرون أن هذا الإلحاح تحويل للفن إلى تعبیر ذاتى يتعارض والحرص على موضوعية العمل الفنى. ولقد انصب أكثر الهجوم على نظرية التعبير من هذه الناحية، فقيل إن المهم فى الفن ليس الانفعالات رغم التسليم بأهميتها وإنما صياغة الانفعالات التى لا يستمد العمل الفنى أهميته من عظمتها أو عمقها، أى من العناصر المكونة لها، بقدر ما يستمدها من عملية الخلق ذاتها، والضغط الذى يتم فى ظله انصهار المكونات المضغوطة. ولذلك كانت مهمة الشاعر فيما يقول الشاعر والناقد الحدائى توماس ستيرنز إليوت (١٨٨٨-١٩٦٥) ليست فى التوصل إلى انفعالات جديدة بقدر ما هى استخدام الانفعالات العادية، والتوصل عن طريق تحويلها إلى التعبير عن مشاعر وجدانية قد لا يكون لها وجود فى الانفعالات الواقعية على الإطلاق. وذلك هو السبب فى أن القصيدة وجودها الخاص الذى ليس تكراراً أو انعكاساً أو محاكاة أو تصويراً لوجود خارجى أو داخلى سابق، كما تصبح عملية الخلق-لا التعبير- محاولة لخلق

جسم مادي أو صورة لعلاقة بين عالين هما عالم النفس وعالم الطبيعة، الذات والموضوع، كما يصبح الواقع الذي تقدمه القصيدة غير الواقع الحرفي للتجربة الشخصية بما فيها الانفعالات والمشاعر التي أراد الشاعر أن يعبر عنها.

هكذا، لم يعد الناقد (الموضوعي؟) يؤرق نفسه بالانفعالات، بل إنه في أحيان كثيرة يراها معوقة له عن إدراك الخاصية الأصلية التي يتميز بها الشاعر أو الأديب من حيث هو خالق تكمن أصالته الخاصة في مقدرته التخيلية الفائقة على التوفيق بين العناصر المتعارضة والمتضادة داخل التجربة، ولذلك كانت قيمة الشاعر، ومن ثم قيمة الشعر، عند الناقد إيقور أرمسترونج ريتشاردن (١٨٩٣-١٩٧٩) والشاعر توماس ستيرنز إليوت معا، من حيث هما معلمان بارزان في النقد الصديث، لا تكمن في التعبير عن الحياة الإنسانية أو محاكاتها بقدر ما تكمن في القدرة التخيلية على الجمع بين التجارب المنفصلة والمتباعدة والتنسيق بينها داخل نسيج التجربة التي تغدو عملا إبداعيا.

ولم يكن من قبيل المصادفة أن يوجه ريتشاردن أعنف هجوم إلى نظرية التعبير عند كروتشه في كتبه المتعددة، وكان ذلك في سياق تأصيل ريتشاردن المتميز للعملية الإبداعية من حيث هي تحقيق لأكبر قدر من التوازن بين النزعات المتعارضة، وذلك على نحو يؤدي إلى خلق علاقات جديدة بين العناصر التي يعيد الخيال إنتاجها في تشكيلاته النسقية الجديدة. وتقوم هذه التشكيلات بتجسيد القيمة الإبداعية للفن، من منظور الوظيفة

النفسية التي يؤديها الفن عندما يحيل التنافر إلى تجانس، بعيداً عن معنى المحاكاة أو التعبير، ويستبدل النظام بالفوضى والتعارض بالتناغم. وعندما أكد ريتشاردز القدرة التخيلية لإبداع الفن من هذا المنظور، خصوصاً من حيث قدرته على الجمع بين التجارب المتباعدة في أنساق جديدة، كان يستكمل عملية نقض نظرية التعبير، ويعيد إنتاج العناصر الموجبة من أفكار كولردج عن الخيال، أقصد إلى تلك العناصر التي صاغها ريتشاردز في علاقات تصويرية جديدة، يتجسد بها معنى الوحدة النسقية المطلوبة في عالم الأنظمة المعاصر للقرن العشرين.

وفي تأكيد الناقد الحديث لقيمة الأنساق المتشكلة من تجاوب العناصر المتعارضة والمتضادة بواسطة الخيال، يبرز الفارق الحاسم بين نظرية الخلق ونظرية التعبير، أو الفرق بين نظرية التعبير وأية نظرية أخرى تلج على الجانب التشكيلي للفن. ولذلك يقول إرنست كاسيرر، في كتابه الذي سبقت الإشارة إليه، إننا عندما نذهب إلى أن الفنان لا يحاكي العالم الخارجي وإنما يعبر عن عالم داخلي لا نضع أكثر من قلب الصورة القديمة، وذلك بما يظل معه الفن إعادة ونقلًا ومحاكاة أو تعبيراً بلا فارق، إذ بدل أن يصبح الفن إعادة ونقلًا للأشياء والموضوعات الخارجية أو المادية يصبح إعادة ونقلًا لحياتنا الداخلية بما فيها من مشاعر وانفعالات.

وأتصور أن هذا الاعتراض الأخير أفضى إلى أن يضع فلاسفة الفن موضع المسألة طبيعة الصلة بين الانفعالات

والمشاعر داخل الفنان وخارجه، أى من حيث هى دافع غامض مقلق، ومن حيث هى تعبير منجز تجسده تجربة جمالية. وكانت عملية المساءلة تطرح السؤال الذى يقول: هل التجربة الجمالية المحققة فى الخارج هى نفسها المشاعر والانفعالات التى بدأت منها فى الداخل أم أنها تغيرت بفعل التعبير؟ إن الفنان ينقل انفعاله من الداخل إلى الخارج عندما يجسده فى عمل فنى فيما تقول نظرية التعبير. وهو يستعين على ذلك بأداة للتعبير أو وسيط مادى يحقق للانفعال وجوده الملموس. هذا الوسيط قد يكون اللغة فى حالة الأدب أو اللون فى حالة الرسم أو الحجر فى العمارة.. إلخ. والسؤال الثانى الذى فرضه السؤال الأول: هل يؤثر الوسيط (أو الأداة) فى عملية النقل هذه؟ وهل تتغير اللغة العادية لكى تعبر عن الانفعالات أم أنها تغير من طبيعة الانفعال فى الوقت نفسه؟

لو بحثنا عند كروتشه عن إجابة مقنعة لمثل هذه الأسئلة ما وجدنا عنده الكثير لأنه اهتم بحقيقة التعبير ذاتها لا بالطريقة التى يتم بها. وهو يرى أن الطريقة شئ دخيل بالنسبة إلى قوام العمل الفنى أو قيمته. أعنى أن ما يهمله هو حدس الفنان وليس تجسد هذا الحدس فى مادة بعينها، أو ما يترتب على هذا الحدس من تغييرات تحدث فى الوسيط الذى يعبر والانفعال المعبر عنه لو جاز هذا التمييز. وقد انتهى كروتشه، عندما وحد بين الحدس والتعبير، إلى أن الحدس الذى هو فى الوقت نفسه التعبير عملية تتم على مستوى الروح. أما الأداة أو الوسيلة فهى

مجرد وسيط للتوصيل فحسب. ولذلك أكد أهمية عدم الخلط بين العمل الفني والوسيط المادى الذى ينقله إلى الآخرين، ومن ثم الفصل بين الفن وما يسميه الصنعة، وافترض أن الوجود الحقيقى للعمل الفني هو وجوده الداخلى باعتباره حدسا باطنا أو تعبيرا تم على مستوى الروح قبل أن ينقل فيزيقيا أو بوسيط مادى إلى المتلقى. ومعنى هذا أن الطاقة الروحية للعمل الفني، وهى ما يلح عليه كروثشه الذى يسمى فلسفته كلها فلسفة الروح، محتواة فى تكوين الحدس وحده، فإذا تم الحدس تحقق العمل الفني. أما ما يجرى بعد ذلك من تجسد العمل الفني فى كيان فيزيائى ملموس، أو وسيط مادى، فإنه محض إعادة خارجية ضرورية لنقل الحدس، ولكنها - من حيث هى إعادة - لا معنى لها بالنظر إلى جوهر الحدس. وليس لهذه الحاجة من نتيجة سوى إغفال عنصر مهم من عناصر العمل الفني هو عنصر الأداة وفعاليتها. وكما يقول كاسيرر، فإن أداة الفنان، أى ألوان الرسام وكلمات الشاعر ومشاهد المؤلف المسرحى.. إلخ، ليست جزءا من جهازه التقنى فحسب وإنما هى أحداث فاعلة فى عناصر الخلق ذاتها.

وأحسب أن الفيلسوف الأمريكى جون ديوى (١٨٣٧-١٩١٧) هو أكثر فلاسفة التعبير المتأخرين إدراكا لهذا الجانب على وجه التحديد، ومن ثم كان أكثرهم قدرة على تصحيح المفهوم نسبيا، وتطويره بما يسقط عنه جوانب السلب التى كشفتها المسألة النقضية. يقول ديوى إن كلمة التعبير (expression) تعنى

فى جذرها اللغوى «العصر» أو «الضغط». وهى بما يدل عليه
 الجذر اللغوى الذى اشتقت منه (Press) تفسر لنا عملية الخلق
 الفنى. فهناك مادة خام قد تشبه العنب، وهناك شئ خارجى قد
 يشبه معصرة النبيذ، وخلال تحول المادة الخام إلى عصير
 (Pressure) لابد من وجود تفاعل بين المادة الخام والشئ
 الخارجى. وتتحول طبيعة المادة الخام خلال هذا التفاعل فتصبح
 شيئاً جديداً هو العصير. صحيح أن العصير أتى من المادة
 الخام، لكن العلاقة بينه وبينها أصبحت واهية بعد فعل العصر.

هذه العملية قريبة الشبه بما يحدث فى حالة الخلق الفنى
 فيما يقول ديوى. يعنى أن هناك انفعالات ومشاعر كامنة فى
 النفس لدى الفنان، نتجت عن وقع العالم الخارجى، تظل مبهمه
 وغامضة، ولا يمكن لها أن تتحدد أو يستطيع الفنان أن يحددها
 إلا بعد أن تتخذ لنفسها شكلاً داخل مادة ملموسة. فى الشعر
 مثلاً، تظل الانفعالات بمثابة وعى مبهم مشوش لشئ غامض إلى
 أن تعثر على الكلمات أو وسائل التعبير التى تشكلها وترفعها إلى
 مستوى الوعى الواضح. وعملية تشكيل الانفعالات فى مادة
 وسيطة ليست فى حقيقتها سوى تفاعل طويل المدى بين ما ينبعث
 من الذات من جهة والظروف الموضوعية من جهة أخرى. وتلك
 عملية يكتسب فيها كل من الانفعال والوسيط صورة ونظاماً لم
 يكن يملكهما فى البداية. وعلى ذلك، فالعلاقة التشكيلية بين
 الانفعال والوسيط، وهو اللغة فى حالة الشعر، ليست علاقة وسيط
 أو أداة توصيل أو تواصل تعكس وجوداً سابقاً وإنما هى علاقة

تفاعل، تفاعل الانفعال مع اللغة إلى أن يستكن فيها، وتفاعل اللغة مع الانفعال إلى أن تستوعبه. وناتج هذه العملية ليس اللغة العادية ولا الانفعالات الأصلية، بل لغة انفعالية جديدة إذا صحت العبارة. وما تؤديه اللغة الجديدة هو موقف أو حقيقة وجدانية لم يكن لها وجود مكتمل قبل التعبير. لقد تعدلت ماهية الانفعالات والمشاعر الأولية وأصبح لها بفضل التعبير طبيعة جمالية متميزة، كما تعدلت المادة الموضوعية بسبب تفاعلها مع الانفعالات والمشاعر، أو بسبب تحولها إلى وسيط تعبيرى أو أداة للتعبير.

وعندما قام ديوى بتطوير نظرية التعبير على هذا النحو لم يعد مفهوم التعبير قاصرا على مجرد فيض تلقائى للمشاعر والانفعالات القوية، ولم يعد الشعر شعورا يسترجع أو يستعاد أو يستذكر فى هدوء كما قال وردزورث، بل أصبح مفهوم التعبير قرين عملية تشكيلية تنتج تجربة جمالية لم يكن لها وجود داخلى أو خارجى سابق على فعل التعبير. ولم تعد وظيفة المبدع، فى ضوء هذا الفهم النظرية، هى التفريغ عما فى الصدر من مشاعر وانفعالات.

ويترتب على هذا الفهم رفض ما يقوله كولنجوود من أن ما يحاول الفنان صنعه هو التعبير عن عاطفة متاحة، ومحض التعبير عنها والإجادة فى التعبير عنها سواء، ذلك لأن كل نبذة وكل إعادة يقوم بها أحدنا عمل فنى. وحجتنا فى رفض ما يقوله كولنجوود هى إغفاله الجانب البنائى التشكيلى من عملية التعبير. بديهى أننا جميعا ننفعل، نحزن ونفرح ونعانى المشاعر

والانفعالات نفسها التي يعانيتها الفنان. ولكننا لسنا فنانين لأننا لم نكتسب قدرة الفنان على تحويل فكرته الغامضة أو انفعاله الغامض تصويرا يسلكه فى أحد وسائط التعبير أو أدواته، ويصوغه صياغة تقتضى التنظيم. هذه القدرة، تحديدا، هى التى تميز المبدع عن غير المبدع فيما يرى چون ديوى. يقصد إلى أن المبدع لا يتميز بثناء انفعالاته وإنما بقدرته على صياغة هذه الانفعالات فى عمل فنى. وبذلك تصبح عين الفنان عينا بانية كما يقول كاسيرر، وليست عينا سلبية تتلقى انطباعات الأشياء وتسجلها فحسب.

هكذا، تتخلص نظرية التعبير من بعض نقائصها التى وجدت عند ممثليها الأوائل أمثال تولستوى وكروتشه وكونجود وغيرهم نتيجة التركيز على جانب واحد من جوانب التعبير، وهو مادته أو طبيعته الحدسية، على حساب الجانب الثانى، وهو الجانب المادى الذى تتجسد فيه حقيقة التعبير. وعندما ركز ديوى على هذا الجانب المرتبط بالطريقة أو التشكيل، تعدلت النظرية وأصبحت أكثر تطورا، ومن ثم لم تعد التهمة التى توجه إليها، من حيث هى محاكاة مقلوبة، قائمة على أساس.

وطبيعى أن تركز النظرية فى بدايتها على أصل التعبير وحده، فذلك نوع من رد الفعل الناتج عن التصور الكلاسيكى الذى رد الفن إلى المحاكاة الخارجية للأشياء. وكان رد الفعل المتطرف للفهم الكلاسيكى للفن مماثلا له فى القوة مناقضا فى الاتجاه. وحين رفض ممثلو نظرية التعبير تتبع جذور الفن فى

العالم الخارجى، كان عليهم تتبع هذه الجذور داخل الفنان نفسه، وذلك على النحو الذى انتهى بنظرية التعبير إلى أن أصبحت مقلوب نظرية المحاكاة. ولذلك فإنه على الرغم من أن نظرية التعبير أسهمت إسهاما ملحوظا فى علم الجمال، واحتلت مكانة بارزة فيه، فإنها ظلت نظرية عاجزة، غير قادرة على تقديم إجابة سليمة ومرضية عن ما يعبر عنه فى الفن. ولو كان ما يعبر عنه الفن هو عواطف الفنان الشخصية فحسب لما كان له أهمية كبرى. وإذا كان ما يعبر عنه الفنان شيئا قائما بالفعل فى ذهنه فلن يصبح الفن أكثر من ترجمة أو محاكاة لشيء داخل ذهن الفنان.

ولا شك أن إغفال علماء الجمال من ممثلى نظرية التعبير الطابع البنائى أو التشكيلى هو الذى قادهم إلى الطريق المسدود. وعندما تحول الاتجاه من مصدر التعبير إلى طريقة التعبير، أو ما يسميه جون ديوى فعل التعبير، اقتربت النظرية من مركز دائرة الفن، وحامت حوله بواسطة اهتمام ديوى بفعل التعبير من حيث هو عملية تشكيلية أو بنائية تنتج عنها تجربة جديدة لم يكن لها وجود قبل التعبير. وما جعل ديوى ينجح فى مهمته هو تتبعه العملية الجمالية من الحافز إلى التعبير، ودراسته فعل التعبير نفسه بكيفية لم يتباعد عنها من سار على دربه، مثل إيردل چنكرت الذى يقول فى ثنايا حديثه عن العملية الجمالية فى كتابه «الفن والحياة»:

يبدأ الفن بالحافز الجمالى، والفن هو ثمرة لهذا الحافز. ولكن النقلة بين الاثنين ليست رأساً ومباشرة لأن الفن، بالأحرى، نتيجة قد تم إعدادها خلال عملية تدريجية. ومراحل هذه العملية الرئيسية هى التذوق والتعبير والإبداع، وهى تمثل المستويات المتعاقبة لصقل هذه العملية وتحقيقها فى صورة الموضوع. وهذه المراحل تبدأ بالفعل من أكثر أحداث التجربة بدائية وهلامية، ثم تعود واضحة بوصفها حالات الفعل التى يتحقق بواسطتها الحافز الجمالى ويهتدى إلى غايته.

نقض نظرية التعبير

ولكن هل نجحت نظرية التعبير بعد تطويرها فى تقديم تصور مقنع للفن؟ أحسب أن الإجابة عن هذا السؤال ستكون بالنفى لأن النظرية ظلت تتعامل مع الذات المبدعة كما لو كانت قائمة فى فراغ، وظلت تفهم الطابع التشكيلى للفن على أنه نابع من مجرد التحوير الذى يتم فى محتوى التعبير نتيجة تجسده فى أداة أو وسيط داخل العملية التى أطلقت عليها النظرية بعد تطويرها اسم فعل التعبير. ولاشك أن مثل هذا الحل يجعل القضية كلها قضية تقنية أو صنعة فحسب، وهى ليست كذلك بالقطع، بل إن معالجة القضية على هذا النحو تبسيط يؤكد أن المدخل إلى معالجة القضية مدخل خاطئ يؤدى إلى نتائج خاطئة بالضرورة.

ولتوضيح ذلك نقول: إن نظرية التعبير ترد اكتمال العمل الفنى أو عدم اكتماله إلى الحافز الكامن وراءه وهو الانفعال، وبقدر تفرد الانفعال يتحقق تفرد العمل الفنى وتتأكد قيمته، والعكس صحيح من هذا المنظور. لكن هذه الطريقة فى التفكير أشبه بوضع العربة أمام الحصان، فنحن لا نحكم على الانفعال إلا بالعمل الفنى وليس العكس. ومن ثم لن تكون لدينا أية فكرة عن الحافز المجهول لدينا إلا بالعمل الفنى المعروف والملموس إزاءنا. وهذا يعكس القضية ويقلب ما تفترضه نظرية التعبير. هذا أمر. والأمر الثانى: ما الذى يمكن أن يكسبه الناقد، فعليا، لو

شغل نفسه بفكرة الحافز؟ وهل يمكن أن يصل إليه حقا؟ إن تطوير ديوى للنظرية ينطوى على التسليم بتغير ماهية الانفعال نتيجة فعل التعبير. يعنى أن الانفعال يمر برحلة مجهولة إلى أن يصل إلينا متجسدا فى عمل فنى، وليس ثمة علاقة مباشرة بين كينونته الأصلية المفترضة ووجوده المحقق فى العمل. ولكن إذا سلمنا بذلك يظل السؤال قائما: ما الذى يكسبه الناقد، أو يفيد، لو شغل نفسه بهذه التحولات المجهولة التى يمر بها العمل قبل تشكيله؟ إن ذلك نوع من البحث عن الوجود الميتافيزيقى للعمل الفنى، وهو أمر لا يعنى الناقد ولا ينبغى أن يعنيه. حسبه أن يتأمل الوجود الفيزيقى للموس للعمل الفنى أو الأدبى من حيث هو وجود علائقى تفضى دواله إلى دلالات لاحقة تحددها وتوجهها استجابة التلقى.

قد يكسب الناقد معرفة ما بدراسة ما يتخيله من تحولات الحافز الأولى للعمل، بحثا عن نوع من سيرة فعل التعبير فى تعاقب مراحله. ولكن السعى وراء هذا النوع من المعرفة يخرج الناقد عن عمله الحقيقى، ويفرض عليه مهمة ليست من اختصاصه بوصفه ناقدا يبحث عن قيمة أدبية تحددها علاقة العمل بمحطة وصوله واستقباله. وقد يستعين هذا الناقد بالتحليل النفسى أو علم النفس أو غيره من العلوم أو المعارف لدراسة هذه التحولات، ولكنه سيخوض مجال تحولات عقلية لا تمكنه أدواته المعروفة من دراستها فى النهاية، فضلا عن أنها ليست موضوعا لدراسته. وأشك أن النتائج التى يمكن أن يصل إليها عن

سيكولوجية الإبداع يمكن أن تفيد في تحديد القيمة الأدبية للعمل، أو الكشف عن الحضور العلائقي للظاهرة الجمالية التي هي ظاهرة ذات كيان متميز وتأثير فريد على الفرد الذي يبدعها والأفراد الذين يتلقونها.

وقد ذهب النقاد المنتسبون إلى نظرية «الانعكاس» الماركسية وغيرها من النظريات التي تهتم بالأصل الاجتماعي للفنون إلى أنه من الأصح للناقد أن يستبدل بالحافز الفردي للعمل الحافز الاجتماعي، وأن يفهم الناقد الدوافع الفردية لإبداع الأديب من منظور الذات المجاوزة للفرد في فعل الممارسة الاجتماعية. ويعنى ذلك البقاء في دائرة السببية التوليدية التي يتكون بها العمل الأدبي أو الفني عموماً، لكن مع استبدال الحافز الاجتماعي المعقد بالحافز الفردي البسيط، والنظر إلى الانفعال الإبداعي للمبدع الفرد بوصفه نوعاً من الاستجابة النوعية إلى العلاقات الاجتماعية التي يواجهها هذا المبدع مواجهة الراغب في استبدال الحرية بالضرورة والعدل بالظلم.

وقد أفضى هذا النوع من الفهم إلى الهجوم على الأصل التعبيري الذي يؤدي إلى نتائج لازمة في مستويات الممارسة النقدية. وأولى هذه النتائج فهم العملية النقدية بوصفها حركة في عكس الاتجاه الذي سارت فيه عملية التعبير. أعنى أنه إذا كانت عملية الإبداع تبدأ من الحافز الداخلي وتنتهي بالتجسد الخارجي لفعل التعبير، في رحلة التفجر التي تشبه تفجر النبع أو عملية الولادة، والتي يظل فيها العمل المنجز دالاً على حافزه

الداخلى الذى يشع منه كما يشع الضوء من داخل المصباح، فإن عملية النقد التعبيرية تبدأ من التجسد الخارجى عائدة إلى البدء الذى يتجسد فى الحافز التعبيرية المستقر فى أعماق الأديب. هدفها فى ذلك الكشف عن أعماق الأديب بواسطة نوع من الممارسة النقدية التى تنبنى على مسلمة لا تفارق معنى من معانى التطابق بين الكاتب والكتابة، أو المبدع والإبداع، فالمنتج التعبيري الناجح هو المرآة الصافية التى تتجلى فيها أعماق المبدع، والناقد الناجح هو الذى يستطيع أن يطالع فى مرآة العمل أعماق أعماق شخصية صاحبه، مستدلاً بما فى الخارج على الداخل، ومرتحلاً من العمل إلى دوافعه المطبوعة فى نفس مبدعه.

ويتخذ هجوم النظريات الاجتماعية على هذا الأصل التعبيري شكل الرقض لما ينطوى عليه من دلالة ميتافيزيقية اجتماعية. ويقول أصحاب هذه النظريات إن مهمة الناقد مهمة اجتماعية فى الاعتبار الأول، ترتبط بقراءة الدلالة الاجتماعية للعمل من حيث قدرته على الكشف عن واقع اجتماعى بعينه وموقف اجتماعى دون سواه، يتجسد به العمل فى نوع من الموازنة الرمزية للواقع الذى يتولد منه العمل. ويعنى ذلك أن على الناقد أن لا يشغل نفسه بانفعال غامض مجهول بالنسبة إلى المبدع نفسه، بل عليه أن يشغل نفسه بما هو أكثر تماسكا وقابلية للفهم، وهو الواقع الموضوعى الذى دفع الفنان إلى فعل الإبداع الذى هو فعل من أفعال الممارسة الاجتماعية. هذا الواقع

الموضوعى ليس ميتافيزيقا تتأبى على الفهم، وإنما هو مجموعة من العلاقات الاجتماعية تنطوى على قدر غير يسير من التعقيد، وتشكل أحداثا فعلية فى مرحلة بعينها من مراحل التاريخ. وحتى لا يضع الناقد العربية أمام الحصان مرة أخرى، فعليه أن يفهم الواقع الموضوعى من العمل أولا، أى يقترب من العمل بوصفه دوالا مدلولها يقع خارجها، وتفضى دلالتها إلى علة تولدها، وذلك من منظور الدلالة الاجتماعية التى ينطوى عليها العمل، بداهة، من حيث هو محاولة لفهم الواقع وتغييره.

وإذا كان العمل الفنى محاولة لفهم الواقع وتغييره، من هذا المنظور المعارض لنظرية التعبير، فإن الناقد لن يتعامل مع العمل الفنى بوصفه وثيقة من الوثائق الحرة أو المروية بأى معنى من المعانى، بل بوصفه موازاة رمزية للواقع. ومن ثم صياغة جمالية لموقف فنان متميز من واقع متميز. والدلالة التى يطرحها العمل الفنى هى هذا الموقف. وتأمل هذا الموقف هو وحده الذى يفضى بنا إلى إدراك قيمة العمل، سواء بالنسبة إلى الواقع التاريخى المحدد الذى تولد عنه العمل، أو بالنسبة إلينا نحن الذين قد نكون أبناء واقع آخر فى عصر آخر أو مكان آخر، لكننا نشترك الفنان موقفه بمعنى من المعانى. وسبب ذلك أن موقف الفنان وإن كان موقفا من الآن أو الحاضر إلا أنه بتعمقه فى هذا الآن أو الحاضر يصل إلى دلالاته الأعمق، أى إلى الجذر الإنسانى الذى يجعل من العمل الفنى غير قابل للنسخ أو الفناء، سواء بتغير الواقع المحدد الذى تتبع منه دلالة العمل، أو تحول

المبدع الذى شكل بذلك العمل موقفًا. وهذا هو معنى وحدة الخاص والعام، الفردى والإنسانى، الآنى والخالد، المحلى والعالمى، تلك الوحدة التى ألح عليها النقاد الاجتماعيون مؤكدين أن موقف الفنان من واقعه ليس سوى موقف من الجذرى فى هذا الواقع. والجذرى فى أى واقع عام وإن تبدى فى صورة الخاص، وعالمى وإن تجلى فى صورة المحلى، ودائم وإن ظهر فى صورة الآنى أو المتغير. ولا يمكن للفن أن يكون عاما وعالميا ودائما إلا إذا كان خاصا ومحليا وأنيا، أى إلا إذا كان نابعا من تأمل واقع محدد، وينطوى على موقف من علاقات اجتماعية محددة. وهذا هو ما ينبغى أن يعنى الناقد، وما يمكن أن يكون فى قدرته، إذا أراد أن يكشف دلالات العمل الفنى. أما البحث عن الانفعالات الخفية المطمورة فى قرارة الشعور أو أعماق اللاشعور والرجم بتلك التحولات السرية لفعل التعبير فى عتمات اللاوعى، فهو أشبه بالبحث عن تلك القطة السوداء التى بحث عنها الفلاسفة قديما فى حجرة مظلمة.

وقد ترتب على هذا الفهم المغاير إزاحة رمزيات نظرية التعبير الأثرية. ولم يعد من المقبول تصور العمل الإبداعى بوصفه مرآة صافية نقية لشخصية صاحبه أو عالمه الداخلى. واختفى ذبوع تشبيه العمل الأدبى بالمصباح الذى يستمد ضوءه من الداخل. واستبدل النقد بتمثيلات النبع الذى يفيض من الأعماق، وبالعمل - الجنين الذى يحتضنه اللاشعور فيما يشبه فعل الحمل إلى أن تأتى لحظة الولادة، وبمصطلحات الصدق النفسى التى

تعنى المطابقة بين فعل التعبير ودوافعه، أقول استبدال النقد بهذه التمثيلات ذات الأصل الرومانتيكى وأشباهاها ولوازها تمثيلات مضادة، تستعيد للعمل علاقته بالواقع الاجتماعى الذى يتولد عنه العمل انعكاسا أو موازاة رمزية، وتستبدل بألية الصدور الطبيعى معنى التفاعل الكيمىائى الذى يغدو به الفن فرارا من الشخصية وليس تعبيراً عنها.

وانطلاقاً من هذا النوع من الاستبدال ، ذهب النقاد الباحثون عن الدلالة الاجتماعية للأعمال الإبداعية إلى أن مهمة الناقد تبدأ من تأمل التشكيل وحده، بوصفه العامل الحاسم المحدد لقيمة العمل الفنى، ذلك لأن التشكيل هو الذى ينطوى على موقف الفنان أو على دلالات العمل. ومن هذا التشكيل، وحده، ينبغى أن نخرج بكل نظرياتنا عن الفن لأنه هو، وحده، موضوع دراستنا، سواء كنا نقاداً أو علماء جمال. ولكن علينا أن نحذر من تجريد هذا التشكيل أو فصله عن الواقع الذى يتجاوزه أو الواقع الذى يستشرفه، لأننا يمكن أن نقع، إذا فعلنا ذلك فى نظرية التعبير بعد تعديلها، أو شارك نظريات أخرى معاصرة لا تفارق جذر نظرية التعبير فى تخيلاتها بالحدثة، الأمر الذى ينقلب بقضية الفن إلى قضية تقنية خالصة لا تؤدى إلا إلى ضياع وظيفة الفن فى أكثر أشكالها إيجابية.

هذا عن نقد نظرية التعبير من منظور النقد الاجتماعى، ولكن هناك اعتراضات جذرية موازية صاغها نقد نظرية «الخلق» التى دعا إليها أمثال إليوت وريتشاردز وغيرهما من نقاد مدرسة

«النقد الجديد». وإذا تأملنا هذه الاعتراضات الجذرية وجدناها تبدأ من إعلان تسمية الخلق المناقضة لمعنى التعبير فى دلالاته التى تدل بها النتيجة على سببها المباشر الذى هى صورة مرآوية له. وفى مقابل هذا المعنى تتحدد دلالة «الخلق» بما يؤكد انقطاع التطابق بين السبب والنتيجة، وتباعد العمل الإبداعي عن أصله بما يجعل منه خلقا على غير مثال. وتلك دلالة يؤكد ما تصور به إليوت العلاقة بين الذات والموضوع، من حيث هى علاقة بين عناصر متفاعلة كالعناصر الكيميائية التى تتفاعل فيما بينها تفاعلا ذاتيا. ولذلك لجأ إلى تشبيهه المشهور عن قطعة البلاطين التى تظل ساكنة لا تتأثر، مع أن وجودها يؤدى إلى تفاعل الأوكسجين وثنائى أكسيد الكربون ليخرج منهما مركب كيميائى جديد هو حمض الكبريتيك. وعقل الشاعر أشبه بهذه القطعة من البلاطين لا تتأثر فى ذاتها مع أنها تسهم دون إرادتها فى تشكيل مركبات جديدة. إن «عقل الكاتب فى الواقع وعاء يستقبل ويخزن عددا لا نهاية له من المشاعر الوجدانية، من العبارات والصور التى تبقى حية حتى تتواجد الجزئيات التى يمكن أن تتحد لتكون مركبا جديدا». ذلك ما يقوله ريتشاردز فى فهم جديد للعملية الإبداعية التى تتفاعل مكوناتها وعناصرها فى تركيبات وكليات جديدة لا وجود لها قبل فعل الإبداع الذى هو فعل خلق.

قد يكون لهذه التركيبات والكليات الإبداعية وظيفة يسميها إليوت وظيفة اجتماعية، وهى وظيفة تقوم على إيصال تجربة جديدة أو إلقاء ضوء على شئ مألوف، أو التعبير عن شئ

مررنا به ولا نستطيع أن نضعه فى كلمات. وذلك هو سبب ما ينتج عن الإبداع من إغناء وعينا وإرهاق إحساسنا، ولكن مثل هذه الوظيفة تبدو غامضة وغائمة إذا وضعناها موضع المسألة من منظور نظرية الانعكاس التى تتهم نظرية الخلق بأنها اختزلت وظيفة الفن الاجتماعية فى التعريف بما هو أقل معرفة، وأحالتها إلى «عبوة» جديدة من الكشف الصوفى الذى تحدثت عنه نظرية التعبير.

ولقد استعان ريتشاردز بمصطلحات علم الدلالة والتحليل النفسى وعلم وظائف الأعضاء، وانتهى إلى أن جعل قيمة الفن نوعا من أنواع التطهير الذاتى الذى يتحقق معه التوازن بين الدوافع المتعارضة، أو المصالحة بين الاستجابات السيكلوجية المتباينة، الأمر الذى ترتب عليه شحوب المغزى الاجتماعى لقيمة الفن، ومن ثم انحصارها فى نوع من التوازن السيكلوجى للجهاز العصبى للفرد. والنتيجة هى ما فقدته لغة الأدب من علاقة جدلية بالواقع وتحولها إلى «قضايا زائفة» تثير استجابات المتلقى الذى لا تكبت دوافعه المتضادة بل تحررها وتوفق بينها، وذلك من غير أن يكون للغة الأدب أو قضاياها الزائفة صلة حاسمة بالواقع. وتلك نتيجة لاتبعد كثيرا عن ما يقوله إليوت بلغة عادية من أن عقل الشاعر الناضج أداة لاستقبال مشاعر وجدانية معينة ومتعددة للغاية، تتفاعل فيه فى حرية وتتحول إلى مركبات جديدة. أى أننا نعود مرة أخرى إلى لحظة التوازن الفردى التى تحدث عندما يتم فعل التعبير، وإلى الدور التعبيرى الذى تقوم به اللغة

فى تحديد الانفعال. ولن يفترق ريتشاردن عن كروتشه من هذا المنظور، ذلك على الرغم من الهجوم القاسى الذى شنه عليه ريتشاردن. ولذلك يلخص ناقد هندى (هو إس. جويتا S. C. Sen Gupta فى كتابه الذى طبعته مطبعة جامعة أكسفورد سنة ١٩٥٩ بعنوان «نحو نظرية فى الخيال» مسعى ريتشاردن بقوله:

إن ريتشاردن متلهف على وضع تمييز يفصل بين جانبى القيمة والتوصيل فى العمل الفنى، ويقول إنه من الممكن للعمل الفنى أن يمدح أو يذم على أساس أى منهما. ويقسو على كروتشه الذى أخفق - فيما يقول - فى التمييز بين جانب القيمة وجانب فاعلية التوصيل فجعلهما مترادفين من مترادفات النقد. ولكن إذا استبعدنا اللحظة جانب القيمة، وفحصنا تعريف ريتشاردن للقسيمة من وجهة نظر فاعلية التوصيل، وجدناه تعريف كروتشه نفسه. الفارق الوحيد بينهما يكمن فى إضافات أو بدائل هى مصطلحات شبه علمية استعيرت من علم اللغة وعلم وظائف الأعضاء وعلم النفس. ولو حذفنا هذه اللواحق العلمية لتحددت نظرية ريتشاردن فى أن الشعر تعبير عن انفعالات، وذلك ما قاله كروتشه بعينه عندما عرّف الشعر على أنه حدس أو تعبير عن المشاعر والانفعالات. ويمكن بالقطع لناقد غير كريم أن يمضى إلى حد القول بأن النقد القاسى الذى وجهه ريتشاردن لكروتشه ينبع من مكابدة

عصبية لإخفاء ما يدين به لكروتشه. وليس من الضروري أن نسهب في هذا الجانب من الشرح، لأن كل ما قاله كروتشه في نظرية التعبير سيستغله ريتشاردز في نظريته عن التوصيل.

باختصار، إن اعتراضات ريتشاردز لا تقدم حلا جذريا للمعضلة الأساسية في نظرية التعبير، وإنما تقدم نوعا من الإصلاح أو التعديل أو حتى التطوير الذى لا يختلف اختلافا جذريا عن التطوير الكمي الذى قام به چون ديوى. ويبدو أننا إذا أردنا أن نحل الإشكال الجذرى لنظرية التعبير فعلىنا أن ننصت إلى حاجة النقاد المؤمنين بالدلالة الاجتماعية للفن، ودوره الذى يسهم فى حركة تغيير المجتمع وتثويره. وعلىنا، من منظور هؤلاء النقاد، النظر إلى التعبير نفسه فى سياقه الاجتماعى، والنظر إلى فعل التعبير فى إطاره الجدلى، فنحن إزاء ذات مبدعة يتخلق إبداعها نتيجة جدلها المتميز مع الواقع الموضوعى الذى نعائشه أو نعانیه فى النهاية.

بعبارة أخرى، علينا أن نحل الإشكال بتأمل العلاقة المعقدة بين الذات والموضوع أصلا، فلا نعزل هذه الذات عن همومها ومحاولتها مجاوزة واقعها وتخطيه، نتيجة إدراكها المتميز لعلاقاته التى تشعر هذى الذات بتخلفها بوجه من الوجوه. وفى الوقت نفسه، لا نغفل الواقع الموضوعى بعلاقاته التى تؤدى إلى توتر الذات المبدعة ودفعها إلى محاولة فهم الواقع من جديد، ومن ثم تجاوزه بواسطة تشكيلها المتميز لإدراكها الجمالى أو عملها

الفنى الذى يتجسّد به موقفها من الواقع. ولولا هذه العلاقة المعقدة، وما تنطوى عليه دوماً من توتر وإحساس بالمفارقة، ما نتج أى شكل من أشكال الإدراك الجمالى، بل انعدم وجود الفن ووجود الذات المبدعة أصلاً، ذلك لأن هذه الذات لا يمكن أن تتحرك ما لم تتوتر وما لم تنطو على الإحساس بالمفارقة بين ما هو كائن وما ينبغى أن يكون. والمفارقة هنا لاتعنى انعزال الذات عن الواقع واغفالها لعلاقاته وإنما تعنى التخطى الجدلى للواقع فى عقل يدرك أنه يجاوز نفسه بمحاولته مجاوزة واقعه.

لقد كانت نظرية التعبير بمثابة صياغة جمالية لثورة البورجوازية الأوروبية فى مدّها الصاعد الذى حطم أشكال الإقطاع القديمة، وأعاد للفرد كرامته المفقودة، وأعلى من قدرته الخلاقة، وكشف عن ثراء عالمه الداخلى، وأكد ضرورة حركته الإنسانية المتحررة المستقلة عن أية نزعات عرقية أو مواضع موروثّة جامدة. وفى تأكيد حضور هذا الفرد الفريد المتفرد يكمن إيجاب نظرية التعبير وسلبها فى الوقت نفسه، لأنها بقدر ما أعلنت من شأن الفرد وأعادت إليه حقه وأطلقت ملكاته، فى تمردّها الليبرالى على نقائضها الإقطاعية، أغفلت من شأن المجتمع، واختزلت صورته فيما يشبه هيولى لا تكشف عن علاقاته الموضوعية، وترتب على ذلك أن أصبح الفرد مناقضاً للمجتمع، يمثل بتوحده عالماً مستقلاً، تنبع قيمته من تفرد مطلق لذات متوحدة تكابد فى عزلة، متعالية عن ما حولها، باحثة عن حدس أو إشراق وهمى، يمنح هذه الذات قداسة الأنبياء، وسمة مشرعى العالم غير المعترف بهم، وذلك على نحو يزيد هذه الذات تضخماً

وتعاليا وعزلة واغترابا. والإلحاح على التفرد، فى هذه المكابدة، يبرر الإلحاح على الانفعال الفريد. والانفعال الفريد يقودنا إلى التعبير، والتعبير يرادف الحدس، والحدس يدعم الإحساس بالتفرد فى النهاية.. وهكذا دواليك فى بورة تبدأ بالفرد المتوحد وتنتهى إليه لتزيد من حدة توحده. ولا يمكن أن تتأسس العلاقة الجمالية بين الذات والموضوع على نحو مجاوز والأمر كذلك، بل على العكس يتم التركيز على الذات وحدها كى تصبح مصدر كل شئ، ويصبح العمل الفنى نفسه انعكاسا لما تسقطه الذات عليه، أو يصبح العالم الخارجى صورة للعالم الداخلى، والعمل تعبيرا عن الانفعال. ويفقد الواقع الموضوعى موضوعيته، فيصبح من خلق الذات فحسب، ذلك لأن الذات العارفة هى الأساس الذى يحدد العالم الذى نعرفه، واتحاد هذه الذات بالموضوع هو فى حقيقته توحيد ما ظلت هذه الذات لاتتحد إلا مع نفسها. وهل نتلقى من الطبيعة إلا ما سبق أن قدمناه، أو ندرك من العالم إلا ما سبق أن أسقطناه عليه، فيما أنشد كولردج فى أنشودته عن الكتابة؟ ولا ضير فى أن يصاحب مثل هذا الفهم نوع من النشوة التخيلية التى تنطوى على وهم خلب بالقدرة على تغيير العالم. أعنى أننى إذا افترضت أن العالم الموضوعى من خلق ذاتى المتفردة، فلا بد أن أنتهى إلى الإيمان بقدرتى على أن أغير العالم، أو أن أجعله على نحو ما أريد. وما دام وجود العالم متوقفا على إدراكى له، وما دام إدراكى له هو الذى يعطيه شكلا وصورة، فإننى قادر على تغييره وصياغته كما أشاء. لكننى فى هذه الحالة أصوغ أحلامى أنا ولا أصوغ العالم، إذ يظل العالم كما هو لا

يأبه بى، ولا يلتفت إلى كل ما أصوغه من أوهام.

وتلك هى، تحديداً، المعضلة الأساسية لنظرية التعبير فى أى مفهوم تطرحه عن مهمة الفن، فهى إما أن تجعل لتلك المهمة طابعاً ترويحياً يتحول به الفن إلى «طرطشة انفعالية» أو تجعل لمهمة الفن طابع المعرفة الصوفية التى تنتهى إلى ميتافيزيقا يصعب الاقتناع بها، أو تجعل للفن - أخيراً - مهمة تنطوى على إيهام بإمكان تغير الواقع، وذلك بواسطة الأنا المتعالية للمبدع الذى يغدو شبيهاً بإله وثنى أو نبي هبط الأرض كالشعاع السنى. والنتيجة هى ما تفضى إليه النظرية على نحو مباشر أو غير مباشر من تباعد عن الواقع الحى، وتغيب القدرة الفعلية على مواجهته أو تغييره.

ويبدو أن علينا إزاء معضلة التعبير الأساسية أن نعيد تأكيد فهم العمل الفنى بوصفه موقفاً إبداعياً من الواقع، موقفاً هو نوع من الموازنة الرمزية التى يصوغها إنسان متميز يسعى إلى تغيير الواقع بواسطة الفن من حيث هو وسيط نوعى من وسائط الممارسة الاجتماعية. وتميز المبدع من هذا المنظور لا يعنى عزله عن أقرانه أو التعالى عليهم، وإنما وضعه فى سياقها الاجتماعى ضمن ممارسة إنسانية خلاقة. هكذا، يبدأ المبدع ممارسته الإبداعية التى هى ممارسة اجتماعية من حيث هو ذات متمردة تستبدل بالواقع الممكن، وبالثابت المتغير، والسؤال بالإجابة، والابتداع بالاتباع، والنسبى بالطلق، متأملة علاقات واقعها بما لا يفقدها تفرداً من ناحية، ولا يفقد الواقع

موضوعيته من ناحية مقابلة. وبذلك وحده تكتسب معطيات الواقع التى ينطوى عليها العمل الإبداعى صفة الموضوعية والذاتية فى أن.

أما الذاتية فلأن ذات المبدع، وهى تمارس فعلها الخلاق، انتخبت واختارت وحذفت وجردت وكثفت. باختصار، أعادت صياغة معطيات الواقع فى ضوء تأملها الخاص له، ومن ثم موقفها منه. والموضوعية لأن معطيات الواقع، وإن فقدت صفة الحرفية بعد إعادة صياغتها، تظل من نبت الواقع ومرتبطة به ما ظلت موازاة رمزية له وليست موازاة حرفية، ومن ثم تظل قادرة على أن تردنا إليه بمنظور جديد يكشف عن فهمنا له وعن استعدادنا لتغييره. أما إذا اختلت العلاقة بين الذات والموضوع، أو اختل التوازن بينهما، بواسطة التركيز على الواقع فحسب، أو الذات وحدها، فإن الناتج يغدو نوعا من المحاكاة الداخلية للذات أو المحاكاة الخارجية للواقع.

إن الفن لا يمكن أن ينقل الواقع كما هو، فضلا عن أنه لا يمكن أن يكون إسقاطا لانفعالات داخلية على موضوع خارجى، أو إفراغا لانفعالات تولدت من توتر ذات متعالية، وإنما هو فهم للواقع من حيث تأثيره على الذات، وفهم للذات من حيث علاقتها بالواقع، ولابد أن يصاحب هذا الفهم تغيير للواقع وللذات على نحو من الأنحاء. ويعنى ذلك أن الفن موقف يصوغه الفنان ليعبر عن علاقة خلقة بين الذات والموضوع، بين الفن والطبيعة، بين الفن والمجتمع. وأصالته لا تنبع من تصوير أى من الطرفين على

حدة، أو التعبير عنهما فى عزلة، بل من قدرته على تشكيلهما تشكيلا جديدا لايعبر عن واقع داخلى أو خارجى، مصنوع أو جاهز، ذاتى أو موضوعى، بل عن واقع فى حالة توتر يحمل فى حناياه بذرة مستقبل لم يتم التنبؤ بها من قبل عند الآخرين.

ولذلك، يلجأ الفنان إلى الرمز ليفرض على المتلقى الوعى بحالة التوتر هذه، أو ليفرض عليه حالة التطلع إلى خلق، إذ يعنى الرمز أننا إزاء تغير كامل فى الاتجاه، وتميز واضح فى نوعية الإدراك. نحن نتجه بالحواس والمفاهيم إلى ما هو كائن أو إلى ما تم إنجازه، أما الرمز فيفرض علينا أن نلتفت إلى ما يجب أن نفعله، ويدعونا لا إلى أن نكون جاسبى تقارير، مقدرين لما هو منجز، بل إلى أن نكون مولدى معان وخالقى مستقبل. ويتطلب الرمز بهذا المعنى، فيما يقول روجيه جارودى، أيام أن كتب عن ماركسية القرن العشرين، أن ننفصل عن ذواتنا ونتخطاها فى لحظة توليد أو خلق تنطوى على المفارقة التى لاتعنى رفض العقل بل التخطى الجدلى لعقل يدرك أنه يفارق دائما ذاته بما وضعته من أنظمة أو صيغ مؤقتة. ولذلك كان بريخت يقول: «يجب أن ينمى مسرحنا لدى الناس متعة الإدراك والفهم، كما يجب أن يدرهم على الاغتياب بتغيير الواقع».

ليكن ما تسعى إليه الذات المبدعة هو فهم العالم وتغييره كما يقول إرنست فيشر فى كتابه «ضرورة الفن». ولكن هذا الفهم لن يتم، ومن ثم لن يحدث الإسهام فى تغيير الواقع، إلا بنوع من الجدل بين الذات والموضوع، ذلك لأن فعل الجدل هو ما

يعطى للفن طابعه التشكيلي ويجعل من عين الفنان عيناً بانية حقاً، وليس مجرد عين سلبية تغيم عليها الرؤيا تحت وطأة انفعال مغرق فى الذاتية.

وطبيعى أن يتم فعل الجدل من خلال أداة. ولكن علينا فهم الأداة لا بمعنى الوسيط التقنى الجامد، وإنما بمعنى أكثر فاعلية يحفظ لها بعدها التاريخى وسياقها الاجتماعى. الأداة فى الشعر، مثلاً، هى اللغة. ولكنها ليست وعاء أو مجرد وسيط يحدث تغييرات فى مادة الانفعال كى تستكن فيه. وإنما اللغة هى الواقع الموضوعى نفسه بكل ماله من جذور، وعلى نحو ما يتجلى أو ينعكس فى علاقات. إنها معطيات سابقة التجهيز بأكثر من معنى، مشحونة بإيديولوجيات قائمة بأكثر من دلالة. وأية عملية تشكيلية يقوم بها الشاعر فى اللغة إنما هى إعادة تشكيل لعلاقات الواقع نفسه من خلال إعادة تشكيل علاقات اللغة التى تعكسه أو توازيه رمزياً. ويعنى ذلك أن العلاقة بين الذات المبدعة وموضوعها هى علاقة جدل يتم فى علاقات اللغة وبها، وذلك على نحو لا يجعل من الأداة، أو اللغة فى الشعر مثلاً، مجرد وسيط ينقل محتوى التعبير، أو يعدل محتواه، أو يعتدل لينقل المنحنى الخاص به. إن اللغة الوسيط الأساسى الذى لا يمكن أن تتم عملية الجدل دونه، فهى الطرف المقابل للذات فى عملية الجدل، الطرف الذى يؤثر كما يتأثر، ويحول كما يتحول، إلى أن تتشكل القصيدة بوصفها علاقات لغوية متميزة عن كل من طرفى الجدل، الأمر الذى يفضى إلى تغير الذات المبدعة وتغير علاقات اللغة السابقة، ويسهم فى تغيير علاقات الواقع بمعنى أو غيره.

هكذا، يصبح تغيير الشاعر لنفسه وللواقع ولعلاقات اللغة فعلا واحدا خلاقا، لا تغاير فيه أو انفصام أو تدابر. وتلك نتيجة يمكن الانطلاق منها إلى إعادة طرح علاقة الشاعر بأداته، ومن ثم التوقف عن النظر إلى هذه العلاقة على أنها علاقة تقنية خالصة تنتهى بتحويل الفن إلى مهارة صناعية من نوع جديد، وتتجاهل ما تنطوى عليه اللغة من سياق تاريخي واجتماعي لاسبيل إلى إغفاله. وإذا كانت العلاقة بين الشاعر وأداته علاقة بين الشاعر والواقع، في الوقت نفسه، فإن القصيدة هي تاريخ هذه العلاقة وناتجها، وموقف الشاعر الذي صاغه الجدل بين طرفي العلاقة. وإذا أردنا أن نفهم ذلك الموقف وندرسه فعليا أن نبدأ بالقصيدة نفسها بوصفها تشكيلا لغويا لموقف لا يمكن أن يفهم إلا من داخل هذا التشكيل اللغوي أولا.

وأحسب أن هذا الفهم يمكن أن يساعدنا على إعادة النظر في الشعر الذي يفرض علينا إعادة النظر في علاقات الواقع ويدفعنا إلى مجاوزة الراهن منه في الوقت نفسه. ويساعدنا هذا الفهم كذلك على إعادة النظر في مفهوم الصورة الشعرية الذي حولته نظرية التعبير إلى عملية قنص للانفعال، تتسع فيها اللغة أو تضيق حتى تسكن فيها تلك الهيولى العvisية التي سميت بالانفعال الفريد. إن الصورة الشعرية، في هذا الفهم المغاير، هي الموازة الرمزية التي ينطوى عليها التشكيل اللغوي للقصيدة، وذلك من حيث هي دوال تقع مدلولاتها خارجها بالضرورة، وتتحدد دلالاتها بواسطة تفاعلها مع من يتلقاها أو يستقبلها.

وإذا كانت الصورة الشعرية تفصح عن موقف يدفعنا إلى إعادة النظر في مواقفنا، من خلال ما تقوم به من إعادة تشكيل للواقع في علاقات كاشفة، فإن الصورة بهذا المعنى فعل من أفعال المعرفة اللغوية التي تحررنا من أسر العادة والعرف والوخم والاتباع. وذلك هو دورها الخلاق في فهمها الذي يجاوز مفهومها البلاغى القديم الذى ربط بينها والزينة، وفصل ما بينها والموقف الذى تشكله القصيدة. ولا شك أن فهم الصورة بهذا المعنى يجاوز مفهومها التعبيري الذى جعلها وسيلة للكشف عن انفعال تعجز اللغة العادية عن كشفه، وقرن بينها والتعبير عن طراز خاص من الحقائق لا يمكن أن يعبر عنه دونها.

وما يقال عن الشعر يقال عن الفن بوجه عام فى النهاية لأن الأصل واحد. وما دمنا لا نستطيع استخلاص موقف العمل إلا من خلال علاقات العمل نفسه، ولا قراءة دلالات العمل إلا فى علاقتها بالمستقبل أو المتلقى، فلا شئ خارج علاقات العمل أو سابق على تشكلها يمكن أن يقودنا إلى تعرف الطراز الخاص من الحقائق التى لا يمكن التعبير عنها دون هذه العلاقات.

البنوية التوليدية

عن البنيوية التوليدية

«البنيوية التوليدية» هي الصياغة العربية التي استرحت إليها في ترجمة المصطلح الفرنسي الأصل Structuralisme Génétique الذي يشير إلى المنهج الذي صاغه الفيلسوف والناقد الأدبي، الفرنسي الجنسية الرومانى الأصل، لوسيان جولدمان (١٩١٣-١٩٧٠). وهو المنهج الذى يتناول النص الأدبى بوصفه بنية إبداعية متولدة عن بنية اجتماعية، وذلك من منطلق التسليم بأن كل أنواع الإبداع الثقافى تجسيد لرؤى عالم متولدة عن وضع اجتماعى محدد لطبقة أو مجموعة اجتماعية بعينها. والواقع أن مبدأ التولد مبدأ أساسى حاسم فى منهج جولدمان كله، الأمر الذى جعلنى أؤثر ترجمة «البنيوية التوليدية» على الاجتهادات المقابلة فى الترجمة من مثل ترجمة «الهيكلية الحركية» و«البنيوية التكوينية» و«البنيوية التركيبية».

ويبدو أن الأصل فى ترجمة «الهيكلية الحركية» اجتهاد مصرى، انتقل إلى تونس فى دراسة محمد رشيد ثابت عن «البنية القصصية ومدلولها الاجتماعى فى حديث عيسى بن هشام». وهى الدراسة التى نال بها شهادة الكفاءة من الجامعة التونسية تحت إشراف المنجى الشملى فى أكتوبر ١٩٧٢. ويبدو أن ترجمة «البنيوية التكوينية» شاعت فى المغرب أولا بواسطة الباحثين المغاربة، وتابعتها بعض الباحثين المشاركة، أذكر منهم بدر الدين عرودى الذى ترجم الفصل الأخير من كتاب جولدمان

«من أجل علم اجتماع الرواية» بعنوان «المنهج التكويني في تاريخ الأدب» بمجلة الفكر المعاصر في عددها الأول الذي صدر في بيروت سنة ١٩٨٠. وظل بدر الدين عرودى على صلة بكتاب جولدمان إلى أن نشر ترجمته كاملة تحت عنوان «مقدمات في سوسيولوجيا الرواية» عن دار الحوار في مدينة اللاذقية بسوريا سنة ١٩٩٢. وارتبطت ترجمة «البنوية التركيبية» بالاجتهاد الذي انتهى إليه جمال شحيد وجعله عنوانا لكتابه المتميز «فى البنية التركيبية: دراسة فى منهج لوسيان جولدمان» الذى صدر عن دار ابن رشد فى بيروت سنة ١٩٨٢. وللأسف لم أعرف هذا الكتاب إلا منذ سنوات قليلة بسبب العزلة الثقافية التى كانت مفروضة على مصر وقت صدوره.

أما ترجمة «البنوية التوليدية» فلا أعرف على سبيل التحديد الحاسم من سبق إليها، ولكننى أذكر أن فكرة «التولد» أو «التوليد» كان لها تردها اللافت منذ بداية الاستقبال العربى لأفكار جولدمان، وأنها ظهرت فى كتابات عربية متتابعة من أبرزها، فيما أحسب، ما كتبه صلاح فضل فى الفصل الثالث من كتابه «منهج الواقعية فى الإبداع الأدبى» الذى صدر بالقاهرة سنة ١٩٧٨. وقد أفرد فى هذا الفصل (المخصص للحديث عن انتقال المنهج الواقعى من السياق الأدبى إلى السياق الاجتماعى) عرضاً لأفكار جولدمان الأساسية، ملحا على صفة «التوالد» وكاشفا عن «بنائية التوالد فى اجتماعية الأدب». وكان معتمدا فى ذلك على الترجمات الأسبانية لكتب جولدمان، من مثل كتاب «الإله

الخفى» الذى ترجم إلى اللغة الأسبانية وصدر فى برشلونة سنة ١٩٦٨، وكتاب «من أجل علم اجتماع الرواية» الذى صدرت ترجمته فى مدريد سنة ١٩٧٥. ولم تغفل قوائم مراجع الكتاب دراسة جولدمان «علم اجتماع الإبداع الأدبى» التى صدرت ترجمتها الأسبانية فى بيونس أيرس سنة ١٩٧١. ولا شك أن كتاب صلاح فضل أكسب مبدأ «التولد» نوعاً من الشيوع فى توافقه مع الاجتهادات السابقة عليه والمعاصرة له، وهى اجتهادات كانت تمثل تقدماً فى فهم الأصول النظرية للبنىوية التوليدية، والانتقال بها إلى المرحلة الأخيرة التى أخذت سبيلها إلى الذبوع.

وأتصور أن هذه المرحلة ما كان يمكن أن تتحقق لولا تجارب البدايات، ومنها الترجمة الأولى «الهيكلية الحركية» التى كانت من اجتهادات هذه البدايات. وهى اجتهادات سرعان ما جاوزتها جهود التعريف المتتابة، وذلك على نحو أدّى إلى انتخاب ترجمة بعينها من بين الترجمات المتعددة المتاحة للمصطلح، وكانت «الهيكلية» الترجمة العربية الأولى المقابلة للمصطلح الفرنسى Structuralisme. وهى الترجمة التى سبق بها محمود أمين العالم، حين تولى تقديم البنىوية الفرنسية للمرة الأولى فى مصر، مطلقاً عليها اسم «الهيكلية» التى كانت الموضوع الرئيسى لواحدة من مقالاته الأسبوعية. أعنى مقالة «نقد جديد أم خدعة جديدة» المنشورة فى الحادى والعشرين من أكتوبر سنة ١٩٦٦ فى مجلة «المصور» المصرية. وشاعت هذه «الهيكلية» فى تونس (وربما المغرب) لفترة قصيرة إلى أن حلت

محلها الترجمة التي حظيت بالقبول العام وهى البنيوية. أما «الحركية» التي كانت مقابلاً أولياً للأصل الفرنسى *Génétique* فسرعان ما انداحت فى اجتهادات الترجمة المتسارعة، وحلت محلها «التكوينية» و«التركيبية».

وإذا كان جمال شحيد انفرد باجتهاد التركيبية فيما أعلم، إلى أن نجد ما يدل على غير ذلك، فإن اجتهاده الفردى لم يقنعه هو نفسه على ما يبدو، فمن اللافت للانتباه السرعة التى تخلى بها عن ترجمته التى جعلها عنواناً لكتابه، وإيثاره «البنيوية التكوينية» بل «التوليدية» داخل متن الكتاب وفى بعض عناوين فصوله. ورغم أن «التكوينية» أقرب إلى الصفة الأجنبية *Génétique* من كلمة «التركيبية» فإن صفة «التكوينية» تظل مرتبطة بالمعنى العامة للنشوء وسفر التكوين *Genesis* الذى هو أول أسفار الكتاب المقدس، لأنه السفر الذى يتحدث عن تكوين العالم وخلقه من العدم، فقبل التكوين كان هناك فضاء مترام لا متناه. وسفر التكوين هو سفر الانتقال من العدم إلى الحياة، ومن عالم الجمار إلى عالم الأحياء. وتلك دلالة بعيدة فى ترابطاتها الدينية عن أداء المعنى المادى لفعل التولد الطبقي الاجتماعى الذى تشير إليه الدلالة الاصطلاحية لمنهج جولدمان.

ولذلك اخترت عنوان «البنيوية التوليدية» دلالة على منهج لوسيان جولدمان الذى عرضت له فى البحث الذى نشرته فى العدد الثانى من مجلة «فصول» بالقاهرة فى يناير سنة ١٩٨١. وكان البحث مصحوباً بترجمة قمت بها لواحدة من الدراسات

المهمة الكاشفة عن منهج جولدمان، وهى دراسته التى جعل عنوانها «علم اجتماع الأدب: الوضع ومشكلات المنهج»، ونشرها بالمجلة الدولية لعلم الاجتماع International Social Science Journal فى العدد الرابع من المجلد التاسع عشر الصادر عن اليونسكو سنة ١٩٦٧ قبل وفاته بثلاث سنوات فحسب. وكان العدد كله مخصصا لعلم اجتماع الأدب الذى تناوله دارسون متباينو المناهج والجنسيات بمجموعة من الدراسات أبرزها دراسة جولدمان التى لم يبق غيرها مسيطرا على تفكيرى بعد قراءة متأنية للعدد الذى كان بداية تعرفى الفعلى المباشر على أفكار البنيوية التوليدية منذ أكثر من عشرين عاما. وأذكر أننى انكبت على هذه الدراسة، بعد القراءة الأولى، ودفعتنى معاودة قراءتها إلى ترجمتها كاملة، سنة ١٩٧٧، ضمن ما ترجمته من نصوص أساسية لكل من البنيوية التوليدية والبنيوية اللغوية وغيرهما من اتجاهات ما بعد «النقد الجديد» من ناحية و«نظرية الانعكاس» من ناحية مقابلة.

والواقع أن معرفتنا النقدية العامة ظلت مراوحة بين هذين القطبين طوال الخمسينيات والستينيات، ولم تحسم هذه المراوحة إلا كارثة العام السابع والستين التى دفعت إلى مراجعة كل شئ ووضع كل الاتجاهات التى عرفناها موضع المسائلة. وأحسب أن الستينيات العربية لم تنصرم إلا وقد انصرم معها مد التأثير الذى خلفه «النقد الجديد» و«نظرية الانعكاس» على السواء. والأول ينتسب إلى الحركة النقدية التى استهلكتها مقالات الشاعر

والناقد توماس ستيرنز إليوت (١٨٨٨-١٩٦٥) ودراسات الناقد إيڤور أرمسترونج ريتشاردز (١٨٩٣-١٩٧٩) فى العشرينيات، ووصلت بها إلى ذروتها الممارسات النقدية لأمثال آلان تيت (١٨٩٩-١٩٧٩) وروبرت بن وارين (١٩٠٥-١٩٨٩) ووليام إمبسون (١٩٠٦-١٩٨٤) وكليث بروكس (١٩٠٦-١٩٩٤) وجون كرو رانسوم (١٨٨٤-١٩٦٧) الذى كان صدور كتابه «النقد الجديد» The New Criticism سنة ١٩٤١ تأصيلاً لهذه الحركة، وتسمية لاتجاهها النقدى الذى وجد أصداءه العربية فى كتابات زكى نجيب محمود وسهير القلماوى ورشاد رشدى ومصطفى ناصف ومحمود الربيعى وغيرهم. وظلّت هذه الأصدا مؤثرة فى مواجهة أفكار نظرية الانعكاس التى صاغت كتابات الفيلسوف الهنجرى الأصل جورجى لوكاش (١٨٨٥-١٩٧١) الذى تنوعت تأثيراته فى الكتابات النقدية لأمثال حسين مروة ومحمود أمين العالم ولطيفة الزيات وعبد المنعم تليمة وغيرهم.

وكان الاستقطاب بين الكتابات التى انحازت إلى النقد الجديد والكتابات التى انحازت إلى نظرية الانعكاس متولداً عن الاستقطاب الأوسع بين العالم الرأسمالى والعالم الاشتراكى فى مرحلة الحرب الباردة، ويقدر ما كان العالم الرأسمالى يغرى بالليبرالية السياسية التى لم تنفصل عن الدعوة الفكرية إلى تحرير الأعمال الفنية، سواء فى تأكيد حضورها المحيث الذى ينطوى على المفارقة، أو الدعوة إلى القراءة المدققة والدراسة

الداخلية للنصوص المكتفية بنفسها، كان العالم الاشتراكي يغرى بتحرير من نوع آخر، مؤكداً أن إبداع الإنسان يتداخل تداخلاً مباشراً مع علاقاته المادية، ويعكس واقعه الاجتماعى، ويمثل تمرده على واقعه الطبقي.

ولم ينته الاستقطاب الحاد بين القطبين المتناقضين إلى أى نوع من أنواع الجدل الذى يجاوز أطرافه ويحتويهما فى مركب جديد، وإنما وصلت الممارسة النقدية المنتسبة إلى كلا القطبين إلى ما يشبه المجرى الضيق الذى لم يتكشف مدى ضيقه إلا بفعل المراجعة النقدية التى استهلها وعى هزيمة العام السابع والستين. وهو الوعى الذى بحث لكل قطب عن بديل أكثر جذرية فى الدائرة نفسها من الممارسة النقدية، فرأى فى البنيوية اللغوية بديلاً أكثر وعداً من أفكار النقد الجديد التى أصابها الهزال، وفى البنيوية التوليدية بديلاً أكثر تماسكاً فى منطق العلمى من نظرية الانعكاس، خصوصاً فى تجلياتها العربية التى لم ترق فى كثير من مجالاتها إلى مستوى الأصل.

هكذا، بدت البنيوية بوجه عام بشاراً لعهد عربى جديد من النقد، عهد بدأت تبشيره فى الانبثاق التدريجى المتتابع طوال السبعينيات، وظلت ممارساتها هامشية إلى أن استحصدت فى الثمانينيات، فتحول المشهد النقدى العربى ليستبدل بالنقد الجديد البنيوية اللغوية التى أخذت من نموذج البحث المنهجى فى لغويات العالم السويسرى فردنان دى سوسير (١٨٥٧-١٩١٣) منطلقاً الأداة، ويستبدل بنظرية الانعكاس البنيوية التوليدية التى ظهرت

فى الوقت نفسه. لكن المفارقة الدالة التى لم يلتفت إليها الكثيرون أن صعود المد البنوي فى الممارسات النقدية العربية لم يبدأ إلا بعد انحسار المد البنوي نفسه فى موطنه الأصلي، وهو الانحسار الذى بدأ بدايته الحاسمة مع تمرد الطلاب، خلال أحداث مايو - يونيو سنة ١٩٦٨ فى فرنسا، وثورتهم على سجون النسق والبنية والنظام، تلك الثورة التى دفعتهم إلى رفع شعار «فلتسقط البنيوية». وكانت الثورة الطلابية التى عصفت أحداثها بالحياة الفرنسية كلها عاملاً أساسياً فى هبوط البنيوية عن عرشها الذى تمتعت به لسنوات، الأمر الذى دفع كلا من لوى ألتوسير (١٩١٨-١٩٩٠) وميشيل فوكو (١٩٢٦-١٩٨٤) إلى نفى انتسابهما إلى الحركة البنيوية، ودفع رولان بارت (١٩١٥-١٩٨٠) إلى طريق مغاير للطريق الذى سبق أن سار فيه فانتتهى إلى «لذة النص» المثلث الذى يشبه الفوضى بالغازه المغوى.

ولكن كان الوضع فى الولايات المتحدة مختلفاً إلى حد لافت، إذ ظل المد البنوي صاعداً طوال السبعينيات التى ظل مناخها مشحوناً بمجادلاته أو مناظراته البنيوية، إذا جاز لى أن ألمح على سبيل التناص إلى ما اختاره ريتشارد ماكسى ويوجينو دوناتو عنواناً لمجموعة بحوث الندوة التى أقامتها جامعة جونز هوبكنز عن «لغات النقد وعلوم الإنسان» فى أكتوبر ١٩٦٦. ونشرتها مطبعة الجامعة نفسها سنة ١٩٧٠. وهى الندوة التى أسهمت فى تعريف المثقفين فى الولايات المتحدة بالبنيوية اللغوية التى مثلها فى الندوة تزفيتان تودوروف ببحث عن «اللغة والأدب»

ورولان بارت ببحثه الشهير «الكتابة فعل لازم» وچاك لاكان (١٩٠١-١٩٨١) يبحث عن البنية من حيث هى علاقة بين الذات والآخر، جنباً إلى جنب البنيوية التوليدية التى مثلها لوسيان جولدلمان ببحث عنوانه «البنية: الواقع الإنسانى والمفهوم المنهجى». وكانت جذرية مسالة البنيوية الأولى دالة على نحو لافت فى بحث چاك ديريدا «البنية واللعب والعلامة فى خطاب العلوم الإنسانية» الذى طرح فيه نقضه الجذرى لأفكار دى سوسير وكلود ليڤى شتراوس بوجه خاص. وكان ذلك للمرة الأولى فى جامعات الولايات المتحدة التى سرعان ما انتبعت إلى أهمية ديريدا فاحتضنته جامعة ييل التى تحقّق حوله فيها مجموعة من النقاد الأكاديميين الذين بدأوا من أفكاره النقضية الثورة المضادة على البنيوية فى أنواعها المختلفة. وكان كتاب بول دى مان (١٩١٩-١٩٨٣) الناقد البلجيكي الأصل «العمى والبصيرة» الذى صدر سنة ١٩٧١ بداية ثمار هذه الثورة المضادة من داخل جامعة ييل، وإشارة دالة على بداية النشاط النقضى لما أصبح يعرف باسم «مجموعة نقاد ييل». وهى المجموعة التى ضمت -إلى جانب دى مان- چيوفرى هارتمان وجوزيف هيلز ميللر وغيرهما من الذين ارتبطت أسماؤهم بالاتجاه النقضى فى النقد الأدبى.

ولكن ما كان هناك كثيرون من المنحازين إلى فلسفة ديريدا التى ظلت هامشية إلى أبعد حد فى النصف الأول من السبعينيات، ولم تجاوز هذه الهامشية إلا هونا فى نصفها

الثانى، فقد كانت أغلب الأنظار متجهة إلى وعود البنيوية التى ظلت براءة طوال السبعينيات فى الولايات المتحدة، وظلت أغلب العقول مؤمنة بما صاغه چان إيبوليت، ضمن حوار ه مع لوسيان جولدمان فى ندوة جامعة جونز هوكينز، بقوله: «إن البحث يجب أن يبدأ من الأبنية». هذه الأبنية، التى أصبح البحث عنها وفيها وبها هدف الجميع، كانت القاسم المشترك فى الاتجاهات التى غلبت على النقد العالمى كله طوال السبعينيات.

وأحسب أن الهجوم اليسارى على البنيوية اللغوية كان مسؤولاً بأكثر من معنى عن توجيه الأنظار إلى البنيوية التوليدية بوصفها بديلاً يسارياً عن قرينتها التى شاع وصفها بصفة «الشكلية» فى الكتابات اليسارية بوجه عام وفى كتابات لوسيان جولدمان بوجه خاص. ومصادق ذلك التابع اللافت لترجمة أعمال لوسيان جولدمان إلى اللغة الإنجليزية.

وكان أسبق هذه الأعمال إلى الترجمة كتاب «العلوم الإنسانية والفلسفة» الذى ترجمه هايدن وايت وروبرت أنكور ونشرته دار جوناثان كيب فى لندن سنة ١٩٦٤. وفى السنة نفسها ترجم فيليب ثودى كتاب «الإله الخفى» الذى نشرته دار روتلج وكيجان بول اللندنية بعد تسع سنوات من صدوره بالفرنسية. وقدم ريموند وليامز ترجمة الاستير هاميلتون لما كتبه جولدمان عن راسين، ونشرت الترجمة والتقديم دار ريقز فى كيمبردج بانجلترا سنة ١٩٦٩. وترجم روبرت بلاك كتاب «إيمانويل كانط» عن دار نشر كتب اليسار الجديد اللندنية سنة

١٩٧٨. وترجم هنرى ماس «الفلسفة والاستنارة» الذى نشر فى انجلترا والولايات المتحدة سنة ١٩٧٣. وترجم آلان شيريدان كتاب «من أجل علم اجتماع الرواية» سنة ١٩٧٥ عن دار تافيسستوك اللندنية. وجاءت ترجمة بارت جرال لكتاب «الإبداع الثقافى فى المجتمع الحديث» سنة ١٩٧٦ بتقديم وليام ميرل مع بيليوجرافيا وافية عن أعمال جولدمان وكتاباته مع ملاحق أعدتها إلينا رودريجيز ومارك ريمرمان. وقام وليام بولهور بترجمة «لوكاش وهایدجر: نحو فلسفة جديدة» الذى نشرته دار روتلج وكيجان بول فى انجلترا والولايات المتحدة سنة ١٩٧٧. وأخر ما أعرفه قيام المترجم الأخير باختيار مجموعة من دراسات جولدمان مع تقديم كاشف وإصدارها فى كتاب بعنوان «المنهج فى علم اجتماع الأدب»، نشره سنة ١٩٨٠ عن دار تيلوس بانجلترا.

والواقع أن التعاقب الزمنى لتواريخ ترجمة كتب لوسيان جولدمان إلى اللغة الإنجليزية يدل على حركة الخط البيانى لعمليات استقبال البنيوية التوليدية فى هذه اللغة، ومن ثم فى النقد العالمى بمعنى من المعانى، ففى مقابل ثلاثة كتب مترجمة إلى الإنجليزية فى الستينيات، على رأسها «الإله الخفى» الذى هو النموذج التأسيسى لبنيوية جولدمان، هناك خمسة كتب فى السبعينيات، تضم «من أجل علم اجتماع الرواية» و«الإبداع الثقافى فى المجتمع الحديث» وغيره من كتب الفكر الفلسفى، وذلك مقابل كتاب واحد فى الثمانينيات التى شهدت التحول عن

البنوية، والانصراف عنها إلى غيرها من المذاهب الأحدث.

ويعنى ذلك أن ارتفاع معدلات ترجمة كتب جولدمان، فى السبعينيات، كان بمثابة استجابة إلى الحماسة الثقافية العامة للبنوية عموماً والتوليدية خصوصاً. والمؤكد أن تتابع الترجمة إلى الإنجليزية فى هذا العقد أتاح لمنهج جولدمان حضوراً قوياً فى العالم الأنجلوفونى، وأشاع ممارساته بين الباحثين المهتمين بأبنية الإبداع الثقافى فى علاقات تولدها عن الأبنية الاجتماعية. وكان هؤلاء يعارضون ببنيوية جولدمان التوليدية بنوية كلود ليفى شتراوس الشككية، ويستبدلون الفعل المتعدى للمنهج الذى تنفتح به البنوية الأولى على التاريخ بالفعل اللازم للمنهج الذى تنغلق عليه البنوية الأخيرة فلا تتعدى إلا إلى علاقاتها المحايثة، ومن ثم يضعون البنوية التوليدية فى سياقها اليسارى العام بكل تنوعاته وتعارضاته التى جسدتها وفرة إنجازات النقد الأدبى الماركسى.

ولكن علينا أن نتحدث عن هذا النوع من الشيوخ بطريقة مغايرة على المستوى العربى لاستقبال كتابات لوسيان جولدمان، خصوصاً أننا لن نجد حركة ترجمة إلى اللغة العربية موازية أو مكافئة لترجمته إلى اللغة الإنجليزية أو غيرها من لغات العالم المتقدم للأسف. لقد ظل الأمر لا يعدو ترجمة مجموعة من المقالات القليلة لجولدمان فى الأغلب، ولم يجاوز ذلك إلى كتبه الأساسية أو كتب البنوية التوليدية بوجه عام. وإذا أضفنا تأخر التعرف العربى على أفكار جولدمان وكتبه، إلى جانب ضالة ما ترجم له إلى الآن، وجدنا أنفسنا إزاء مظهر فعلى من مظاهر تخلف

الثقافة العربية المعاصرة فى متابعة ما يحدث فى العالم حولها، ومن ثم عجزها عن الإسهام الفاعل فى جانب مهم من جوانب المعرفة النقدية العالمية. ودليل ذلك أنه فى مقابل ترجمة تسعة كتب لجولدلمان إلى الإنجليزية من سنة ١٩٦٤ إلى سنة ١٩٨٠ لم يترجم إلى اللغة العربية كتاب واحد فى هذه الفترة التى تمتد إلى ستة عشر عاما، والكتاب الوحيد الذى ترجم لجولدلمان إلى الآن هو الكتاب الذى ترجمه بدر الدين عرودى عن علم اجتماع الرواية سنة ١٩٩٢ بعد عقد كامل على وجه التقريب من شحوب الأضواء عن جولدلمان.

ومهما يكن من أمر، فإن شيوع ترجمة جولدلمان فى اللغة الانجليزية يمكن أن يتحول إلى دلالة قابلة للاجتهااد. وهى دلالة تلت انتباهنا إلى أن أحد العوامل التى ساعدت على شيوع البنيوية التوليدية، بالقياس إلى غيرها من نظريات النقد الأدبى الماركسى فى العالم غير الاشتراكى، هو انتسابها إلى التيار الإنسانى الهيجلى فى الفلسفة الماركسية، وهو الاتجاه الذى يجمع ما بين إسهامات جورجى لوكاش وإرنست فيشر وهيربرت ماركيوز وفردريك چيمسون وأمثالهم فى تقاليد النزعة المثالية التى لم تقارق التأثر بهيجل أو الانطلاق من بعض مقولاته الأساسية. وذلك اتجاه ينطوى على ما يقارب بينه وبين التيارات الليبرالية المخالفة للنزعات الاقتصادية الحديثة التى انطوى عليها الفكر الماركسى. وهى التيارات التى جذبتها فى هذا الاتجاه الهيجلى للنقد الماركسى سماحة المنظور بالقياس إلى التعصب

الذى ورثه هذا النقد عن المرحلة الستالينية، كما جذبها قرب أفكاره الأساسية مع ما ألفتته من فلسفات تعودت عليها، مقارنة بصعوبة الصياغات الجذرية الجديدة للجناح المضاد الذى أبرزته أفكار لوى ألتوسير ومدرسته التى ضُمَّتْ أمثال بيير ماشيرى فى فرنسا وتيرى إيجلتون فى إنجلترا. أعنى تلك الصياغات التى حرصت على تأكيد فصم العلاقة بالمثالية، والانقطاع عن هيكلية ماركس الشاب، والتطوير العلمى لما أخذ يعرف باسم نظرية الإنتاج الأدبى.

ولم يكن بعيدا عن الاتجاه الهيكلى فى الماركسية، بل كان فى موضع بارز منه داخل الولايات المتحدة، كتاب الناقد الأمريكى فريدريك چيمسون «سجن اللغة: تقييم نقدى للبنوية والشكلية الروسية» الذى صدر عن مطبعة جامعة برنستون سنة ١٩٧٢. وهو الكتاب الذى يتصل منظوره الأساسى بمنظور لوسيان جولدمان فى دائرة تقاليد النزعة الهيكلية فى الفلسفة الماركسية التى ينتسب إليها كلاهما، والتى وصلت حبال فريدريك چيمسون بمدرسة فرانكفورت الألمانية، وبخاصة إنجازات تيودور أدورنو (١٩٠٠-١٩٦٩) ووالتر بنيامين (١٨٩٢-١٩٤٠) فى الدائرة نفسها التى عارضت ما بين لوكاش وممثلى مدرسة فرانكفورت الذين انحازوا إلى أفق جديد من الواقعية التى جددت النظرة إليها أعمال برتولت برخت (١٨٩٨-١٩٥٦). ولم يمنع هذا التعارض الثانوى من اتفاق كتابات جولدمان وچيمسون فى المنحى الهيكلى من النقد الماركسى، وهو الاتفاق الذى دفع

كليهما إلى الاهتمام بالتفاعل الجدلى بين الذات والموضوع أو ما أطلق عليه جيمسون التفاعل بين «معطيات التجربة الفردية والأشكال الأوسع للمجتمع المؤسسى».

ولا شك أن صدور كتاب جيمسون فى أوائل السبعينيات كان بمثابة استجابة أمريكية يسارية إلى شكلية البنيوية اللغوية. ويكشف الكتاب عن ذلك عندما يوضح أن لغويات دى سوسير والشكلية الروسية والبنيوية الفرنسية على طريقة ليثى شتراوس وچاك لاكان ورولان بارت (قبل أن يعلن انفصاله عن البنيوية سنة ١٩٧٠) تتماثل فيما تنطوى عليه من نظر غير تاريخى، يعلى من شأن التحليل الآلى (السينكرونى) على التحليل التعاقبى (الدياكرونى)، ويتجاهل دور الفاعل الذى ينتج البنية والمتلقى الذى يستقبلها. وفى مقابل ذلك، يولى كتاب جيمسون اهتماما بالمتلقى، مؤكدا أن النموذج البنيوى لا يمكن أن يكون نموذجا تأويليا أصيلا إلا إذا أعاد تأكيد مكانة الباحث الذى يقوم بالبحث، وأعاد فتح أبوابه فى الوقت نفسه على كل رياح التاريخ. ولكن ليس بالمعنى الذى يجعل من عملية القراءة إنتاج معان تفرضها أنساق تحتوى القارئ فى فعل استقباله النصوص التى تنغل على أنساق مغلفة بدورها، وإنما بالمعنى الذى يفتح فعل القراءة على لحظتها التاريخية الخاصة، ويفتح أنساق النصوص على لحظات تاريخها الموازى، مطلقا سراح التفاعل بين لحظات الإرسال والاستقبال بما يفضى إلى أفق من الوعى التاريخى المفتوح. وذلك ما فعله الكتاب عندما أظهر الكيفية التى تحولت

بها الشكلية الروسية بعد إعادة إنتاجها والبنوية اللغوية فى عملية إنتاجها إلى بنية دالة، هى أنساق موازية لأنساق عصر ما بعد الصناعة الذى تنفلق أنظمتها فيما يشبه السجن، فتحيط بالإنسان من كل صوب وحذب، مغتربة بحضوره الفاعل فى لحظته التاريخية الحداثية.

وقد سبق لوسيان جولدمان فريدريك جيمسون فى تأكيد العلاقة الجدلية بين الذات والموضوع فى البحث المنهجى، كما سبقه إلى فتح مفهوم البنية على التاريخ، ومضى بعيدا فى تحديدها بوصفها وظيفة اجتماعية لحل إشكال بعينه. وهو التحديد الذى انتهى به إلى تناول البنية فى أفعال تولدها المتعاقبة، ابتداء من تولد العمل الأدبى بنية متلاحمة عن رؤية بعينها للعالم، وانتهاء بتولد هذه الرؤية المتلاحمة عن وضع مأزوم لمجموعة أو طبقة اجتماعية فى لحظة متعينة من الزمن. وكان مشروعه تقدما جديدا فى التطوير الجذرى للأبنية العقلية الهيجلية التى سبقه لوكاش إلى تطويرها.

وقد بدأ هذا المشروع منذ أن اتصل جولدمان بأعضاء مدرسة فرانكفورت فى شبابه الباكر، وقبل أن يبدأ دراسة الاقتصاد السياسى فى باريس سنة ١٩٣٤، ويحصل من السوربون على إجازة فى الأدب الألمانى وأخرى فى الفلسفة. وظل يواصل العمل فى المشروع بعد أن اضطر إلى مغادرة فرنسا بعد الاحتلال الألمانى فى الحرب العالمية الثانية. واستقر سنوات فى زيورخ التى حصل من جامعتها على درجة الدكتوراه

بأطروحة عن فلسفة عمانويل كانط فى الأربعينيات. وانتقل من زيورخ إلى جنيف التى عمل فى جامعتها تحت رعاية جان بياچيه الذى تأثر بنظريته التوليدية فى المعرفة. وظل فى جنيف إلى أن تركها عائداً إلى باريس ليواصل مشروعه فى مجال الإبداع الثقافى. ونشر كتابه عن «العلوم الإنسانية والفلسفة» فى دار النشر الجامعية بباريس سنة ١٩٥٢، ممهدا الطريق إلى كتابه الأساسى والتأسيسى فى النقد الأدبى، وهو الكتاب الذى كان أطروحته للدكتوراه التى قدمها إلى الجامعة الفرنسية، ونشرها تحت عنوان «الإله الخفى: دراسة فى الرؤية المساوية ما بين كتاب الأفكار لبسكال ومسرح راسين».

وقد صدر الكتاب عن دار جاليمار سنة ١٩٥٥ فكان بمثابة إعلان حاسم وتأكيد دال على انبثاق التوليدية فى السنة نفسها التى أعلن فيها كلود ليڤى شتراوس عن انبثاق البنيوية المناقضة بكتابه «المدارات الشاجية» الذى كان تمهيدا لكتابه «الأنثروبولوجيا البنيوية» الذى صدر بعد ذلك بثلاث سنوات، تحديداً فى ١٩٥٨، بعد عامين من نشر جولدمان كتابه عن «راسين المسرحى» سنة ١٩٥٦، وقبل ستة أعوام من نشر جولدمان كتابه «من أجل علم اجتماع الرواية» الذى صدر سنة ١٩٦٤ عن دار جاليمار بباريس، بعد سنة واحدة من نشر رولان بارت كتابه «عن راسين» الذى فجر معركة النقد البنيوى وامتد بها إلى صفحات الجرائد اليومية. وبدأ ذلك مع ما نشره ريمون بيكار أستاذ الأدب فى السوربون وممثل التقاليد اللانسونية

(نسبة إلى الناقد الفرنسي جوستاف لانسون ١٨٥٧-١٩٣٤) العريقة من هجوم عنيف على ما تصوره تجديف بارت فى حق راسين فى جريدة «اللوموند» الفرنسية فى الرابع عشر من مارس ١٩٦٤. وكان ذلك الهجوم بمثابة الشرارة التى أشعلت حرائق المعارك التى تتابعت لسنوات بين البنيوية واللائسونية، أو بين أنصار الجديد وأنصار القديم فى النقد الأدبى.

ولم يكن أنصار الجديد تيارا واحدا فى هذه المعارك، فقد أعلن رولان بارت اختلافه مع قراءة لوسيان جولدمان لراسين الذى قرأه بارت بطريقة مناقضة، محاولا الكشف عن نوع مغاير من الأبنية. وكما اقترن نشر كتاب «الإله الخفى» لجولدمان بنشر كتاب ليثى شتراوس «المدارات الشاجية»، فى السياق الصاعد للبنيوية بجناحيها المتعارضين، كان نشر كتاب رولان بارت «عن راسين» فى السنة السابقة على السنة التى صدر فيها كتاب «من أجل علم اجتماع الرواية» تأكيدا للثنائية نفسها. أعنى تلك الثنائية التى تقابلت فيها بنيويتان أصبحتا جناحى الجديد الذى جاوز التقاليد اللائسونية فى فهم الأدب، محلقا فى غمار معاركه مع ممثلى القديم. وظلت هذه المعارك متصلة فى تعارضاتها التى انطلق منها سيرجى دوبروفسكى فى كتابه «لماذا النقد الجديد؟» الذى صدر بالفرنسية سنة ١٩٦٦ (وصدرت ترجمته الإنجليزية عن مطبعة جامعة شيكاغو سنة ١٩٧٣ فى سياق من الاهتمام الأمريكى المتصاعد بالبنيوية) قبل عامين فحسب من ثورة الطلاب الفرنسيين وأحداث مايو - يونيو ١٩٦٨ التى نقلت معارك

الجديد / القديم إلى وجهة أخرى.

ذلك كان هو السياق التاريخي الذي طالعت فيه دراسة لوسيان جولدمان عن «علم اجتماع الأدب: الوضع ومشكلات المنهج» فجذبتني إليها منذ المقدمة الأولى التي تقول إن أول ما يستند إليه الفكر البنيوي التوليدى هو أن أى تأمل فى العلوم الإنسانية يتم من داخل المجتمع لا من خارجه، وأن هذا التأمل جزء -تفاوت فى الأهمية حسب الظروف بالطبع- من الحياة العقلية لهذا المجتمع، ومن ثم الحياة الاجتماعية ككل. ويقدر ما يشكل هذا التأمل جانباً من الحياة الاجتماعية فإنه يغيرها بما يحققه من تقدم يتناسب مع أهميته وفاعليته. ويمضى جولدمان من هذا الأساس مؤكداً أن ذات الفكر فى العلوم الإنسانية تشكل -إلى حد ما على الأقل، ويعدد من التوسطات- جزءاً من الموضوع الذى تتوجه إليه، كما أن هذا الفكر من ناحية أخرى لا يؤسس بداية مطلقة، ويتشكل عموماً بمقولات المجتمع الذى يدرسه أو المجتمع الذى ينبع منه، الأمر الذى يؤكد أن موضوع البحث أحد العناصر المكونة بل واحد من أهم العناصر المكونة لبنية فكر الباحث أو الباحثين.

وكانت هذه المقدمة الأولى حلاً بارعاً لما كنت أبحث عنه من صيغة جدلية تخفف، منهجياً، الطابع المثالى لصيغة هيجل عن وحدة الذات والموضوع فى الفكر، وتستبدل بالتركيز الهيجلى على الروح تركيزاً أكثر توافقاً مع الوضع الإيجابى الذى يتقدم به البحث حين يدرك الباحث أن فكره جانب مهم، ولكن مجرد جانب

فحسب من الواقع. وكان معنى ذلك أن العلوم الإنسانية، ومنها النقد الأدبي، لا يمكن أن يكون لها طابع موضوعي صرف كطابع العلوم الطبيعية، وأن تدخّل قيم خاصة بمجموعات اجتماعية بعينها فى بنية الأفكار النظرية التى نقارب بها موضوعاتنا أمر عام وحتمى. ولكن من غير أن يعنى ذلك أن العلوم الإنسانية لا يمكن أن تصل من حيث المبدأ إلى دقة شبيهة بدقة العلوم الطبيعية. إن الدقة ممكنة وإن اختلفت من حيث نوعها، وقائمة فى مجالها النوعى الذى يقوم على توازن الذاتى والموضوعى بما يسمح بدرجات من التثبيت المنهجى لا يمكن استبعادها فى عمليات البحث المختلفة.

ولم يكن هذا الفهم لموضوعية البحث فى العلوم الإنسانية، من غير غلو فى ادعاء الحيدة المطلقة أو التطابق المنهجى مع العلوم الطبيعية، هو وحده الذى جذبنى إلى أفكار جولدمان الذى سعيت إلى متابعة ما ترجم له إلى اللغة الإنجليزية، فقد كان هناك الإيمان بالوظيفة الاجتماعية للبحث فى العلوم الإنسانية التى ينتسب إليها النقد الأدبي، وتأكيد أن النقد الأدبي جزء من الحياة العقلية للمجتمع ومن ثم الحياة الاجتماعية بوجه عام، وأنه يسعى إلى تغيير هذه الحياة بما يحققه من تقدم يتناسب مع أهميته وفاعليته، ويسهم فعليا فى هذا التغيير بواسطة ما يشيعه من وعى فى أذهان القراء المتابعين. ولايفعل الناقد ذلك بحيل بهلوانية، أو تخيل استعراضى أو تلاعب برطانة غامضة ليس تحتها كبير معنى، وإنما بما يحرز من تقدم فى المعرفة الأدبية،

وما يحققه بهذه المعرفة من خبرة معمقة بالواقع الذى يتولد منه الأدب والنقد معا، خبرة تدفع أصحابها الذين اغتتوا بها إلى تطوير الواقع، والعمل على الانتقال به من مستوى الضرورة إلى مستوى الحرية.

وأتصور أن أفكار البنيوية التوليدية أخذت تنتقل إلى النقد العربى فى السبعينيات، فى موازاة شيوعها على المستوى العالمى، ولكن كان ذلك بعد إرهابات أولية فى النصف الثانى من الستينيات لم يتأثر بها المشهد الثقافى تأثرا فعلا يؤدي إلى تغيير فى الاتجاه. ولعل لا أبالغ لو قلت إن ما انتقل من أفكار البنيوية فى هذه الفترة كان يؤدي دورا مزدوجا، يفتح أفقا جديدا لتطوير المعرفة النقدية والوصول بها إلى مدى أعمق من الانضباط العلمى فى جانب، ويواجه المزالق التى ينطوى عليها التسليم بالبنيوية الشكلية فى تجاهلها للتاريخ فى جانب ثان. وقد كان ذلك واضحا على نحو ضمنى على الأقل فى الكتابات العربية المبكرة عن البنيوية التوليدية، وهى الكتابات التى كانت تعبيرا فكريا بمعنى من المعانى عن موقف أصحابها الذين حاولوا كبح جماح البنيوية الشكلية بالبنيوية التوليدية، ورد المتحمسين لها إلى التاريخ الذى حاولوا الفرار منه.

وكانت كتابات محمود أمين العالم سابقة فيما قامت به من تعريف بالبنيوية الشكلية والاتجاهات الفرنسية المعارضة لها. ويلفت الانتباه فى ذلك المجال النقد الباكر الذى وجهه محمود العالم إلى البنيوية الشكلية فى مقالته «نقد جديد أم خدعة

جديدة». وهى المقالة التى استعار لها عنوان دراسة ريمون بيكار التى كثفت الهجوم العاصف للأخير على كتاب رولان بارت «عن راسين». وكانت أصداء دراسة بيكار التى نشرها سنة ١٩٦٥ لا تزال مدوية إلى الدرجة التى دفعت بارت إلى الرد عليها بدراسته «النقد والحقيقة» التى نشرها سنة ١٩٦٦، أى السنة نفسها التى نشر فيها محمود أمين العالم مقالاته عن اتجاهات الحركة الهيكلية» فى فرنسا ضمن السلسلة التى أطلق عليها عنوان «البحث عن أوروبا».

ومن الجدير بالذكر أن مقالة العالم عن «الأدب وقوانين السوق» التى نشرها فى هذه السلسلة (أوائل نوفمبر ١٩٦٦) كانت تقديمًا موجزًا للمدرسة الاجتماعية الجديدة لدراسة الأدب فى فرنسا من خلال مدرسة جولمان التى عرضت المقالة لبعض أفكارها عن رؤية العالم، خصوصًا الأفكار التى تشير إلى كتابي «الإله الخفى» و«من أجل علم اجتماع للرواية». ويبدو أن حماسة محمود العالم للوكاش جعلته لا يرى فى عمل لوسيان جولمان جديدًا جذريًا بالقياس إلى أعمال أستاذه لوكاش الذى تأثر العالم بمنطلقاته النظرية.

ولكن إذا كانت كتابة العالم عن البنيوية (الهيكلية) التوليدية قد أظهرت نوعًا من عدم الحماسة، رغم هاجس البحث عن منهج جديد للنقد الأدبي، فإن كتابة سيد ياسين عن لوسيان جولمان قد أظهرت حماسة مغايرة فى التعاقب التاريخي للكتابة العربية عن البنيوية التوليدية. وقد أتيت لسيد ياسين أن يذهب إلى

فرنسا للدراسات العالية خلال سنوات العراك البنيوي، فراقب هذا العراك الذى ملأ الدنيا وشغل الناس، متأملاً تياراته على النحو الذى انتهى إلى التعاطف مع البنيوية التوليدية. وما إن عاد من فرنسا حتى أخذ ينشر فى مجلة «الكاتب» المصرية سنة ١٩٦٨ دراسته الأولى عن التحليل الاجتماعى للأدب، مقدماً أفكار جولدمان والفرضيات الأساسية التى يقوم عليها منهجه. وهى الدراسة التى نشرها مع غيرها من الدراسات التى لم تخل من الحديث عن جولدمان ومدرسة النقد الاجتماعى الفرنسى فى كتابه «التحليل الاجتماعى للأدب» الذى صدر فى القاهرة عن مكتبة الأنجلو سنة ١٩٧٠، رائداً الطريق التى مضت فيه كتابات مغربية ومشرقية. وربما كانت بداية الكتابات المغربية البحث الجامعى الذى أعده محمد رشيد ثابت عن «البنية القصصية ومدلولها الاجتماعى فى حديث عيسى بن هشام» الذى قرغ منه سنة ١٩٧٢ (وطبع بعد ذلك فى الدار العربية للكتاب فى تونس سنة ١٩٧٥). ولا أعرف بعده سوى ما كتبه جمال شحيد عن «النقد الأدبى الحديث كما يراه لوسيان جولدمان» فى مجلة «مواقف» سنة ١٩٧٨، وما كتبه رشيد الغزى فى السنة نفسها عن «النظرية الاجتماعية فى الأدب» ضمن كتابه «قضايا الأدب العربى» الذى أصدره مركز الدراسات والأبحاث بالجامعة التونسية سنة ١٩٧٨، فضلاً عن كتاب صلاح فضل «منهج الواقعية فى الإبداع الأدبى» الذى صدر فى السنة نفسها. ونزيد على ذلك ترجمة مصطفى المسناوى المبكرة لدراسة جولدمان عن

«علم اجتماع الأدب: الوضع ومشكلات المنهج» تحت عنوان «المنهجية فى علم اجتماع الأدب» التى نشرها فى الدار البيضاء سنة ١٩٧٩، وهى السنة التى شهدت دراسة حلمى شعراوى عن «لوسيان جولدمان: بعض آرائه فى الاجتماع والسياسة» فى مجلة دراسات عربية. وكان ذلك قبل أن ينشر محمد برادة دراسته عن «الرؤية للعالم فى ثلاثة نماذج روائية» فى مجلة الآداب سنة ١٩٨٠. وقبل أن يترجم بدر الدين عرودكى الفصل الأخير من كتاب جولدمان «من أجل علم اجتماع الرواية» سنة ١٩٨٠. وكان ذلك هو السياق الذى نشرت فيه دراستى عن البنيوية التوليدية فى يناير ١٩٨١، فى وقت لم أكن أعلم فيه شيئا ذا بال عن إنجاز الكثيرين من الذين سبقونى إلى جولدمان.

جولدمان ورؤية العالم

لوسيان جولدمان (١٩١٣-١٩٧٠) واحد من أهم أتباع جورجى لوكاش (١٨٨٥-١٩٧١) فيما يطلق عليه اسم المدرسة الهيكلية الجديدة فى النقد الماركسى للأدب. يشترك مع أستاذه فى مجموعة من المفاهيم الأساسية مثل مفهوم البنية الدالة ومفهوم الوحدة الشاملة ومفهوم الوعى الممكن ومفهوم التشيؤ. وهى مفاهيم كانت بمثابة البداية التى انطلق منها جولدمان، مازجا بينها وغيرها من المفاهيم التى تعلمها من عالم النفس السويسرى المعروف ببحوثه عن عمليات الفكر فى مرحلة الطفولة. أعنى جان بياچيه (١٨٩٦-١٩٨٠) الذى يلتقى جولدمان وإياه فى بعض المفاهيم التى بسطها بياچيه فى كتابه المتأخر عن «البنوية». وقد صدر الكتاب بالفرنسية سنة ١٩٦٨، قبل عامين من ترجمته إلى الإنجليزية سنة ١٩٧٠، كاشفا عن ما يمكن أن نرى فى مفهومه عن الكلية wholeness وجها موازيا لمفهوم لوكاش عن الوحدة الشاملة totality. ويوازى ذلك ما نراه فى حديثه عن الانتظام الذاتى دعما لمفهوم التلاحم الذى لم يتخل عنه جولدمان قط. وأهم من ذلك ما يؤكد بياچيه من علاقة بين البنية والوظيفة، وبين الأبنية اللغوية والتشكلات الاجتماعية، بل إن مفهوم التولد نفسه لا يخلو منه كتاب بياچيه خصوصا فى حديثه عن الأبنية النفسية التى يفيد فى تحديدها من دراساته المبكرة عن التطور العقلى للطفل.

ولكن جولدمان يتميز عن كل من بياجييه ولوكاش بالتوغل فى التحليل البنىوى لمجزات الخلق الثقافى فى مستويات تشكيله الدالة على رؤى العالم التى هى أبنية متولدة ومولدة فى الوقت نفسه. ومن هذه الزاوية يقدم عمله تطورا لمفهوم الأبنية العقلية الهيكلية التى استغلها لوكاش فى أعماله الباكرة، خصوصا فى كتابيه عن «نظرية الرواية» (١٩١٦) و«التاريخ والوعى الطبقي» (١٩٢٣). ولذلك يهتم جولدمان بدراسة بنية العمل الأدبى دراسة تكشف عن الدرجة التى يجسّد بها هذا العمل بنية الفكر عند طبقة أو مجموعة اجتماعية ينتمى إليها مبدع العمل. وتحاول دراساته تجاوز الآلية التى وقع فيها التحليل الاجتماعى التقليدى للأدب، وذلك بتركيزه على بنية فكرية تتمثل فى رؤية للعالم تتوسط ما بين الأساس الاجتماعى الطبقي الذى تصدر عنه والأنساق الأدبية والفنية والفكرية التى تحكمها هذه الرؤية وتولدها. وهو يتناول هذه البنية المتوسطة، أو رؤية العالم، بوصفها «كلية متجانسة» تكمن وراء الخلق الثقافى وتحكمه، وذلك بالقدر الذى تتجلى فيه وتتكشف بواسطته، فهى البنية المتوسطة التى لا تفارق منشأها الاجتماعى، فى حضورها الذى يتحكم فى مجموعة من الأبنية المتغايرة من حيث المحتوى، المتجاوبة من حيث العلائق الوظيفية التى تحكمها، والتى ترتد إلى هذه البنية المتوسطة الكاشفة عن أساسها الاجتماعى.

ولكى نوضح مفهوم «رؤية العالم» بوصفه مفهوما جذريا فى منهج جولدمان، علينا أن نفكر فى هذه الرؤية من حيث هى.

كيان وجودى (أنطولوجى) قار داخل العمل الأدبى وخارجه فى أن. ويعنى ذلك فهم هذه الرؤية من حيث هى أساس معرفى (إبستمولوجى) لفهم العلاقة بين الأجزاء والكل داخل كل بنية من منجزات الخلق الثقافى بما فيها الأدب من ناحية، وفهم العلاقة بين أبنية الخلق الثقافى بعضها ببعض من ناحية ثانية، وبينها جميعا وبين بنية أخرى أشمل تحكمها وتنظمها وتصل ما بينها والأوضاع التاريخية للمجموعة الاجتماعية أو الطبقة من ناحية أخيرة.

وعند هذا المستوى، يجب أن نضع فى تقديرنا أن لوسيان جولدمان ينطلق من المادية التاريخية، ويجعل للوضع الاقتصادى أهمية كبيرة فى الحياة الاجتماعية، ويرى أن هذا الوضع وما يرتبط به هو الذى يكوّن الطبقات ويحدّد علاقات بعضها البعض، بحيث يتكون من هذه العلاقات ما يسميه الواقع الاجتماعى. وإذا كان ما يحدد الطبقة عن غيرها هو دورها الذى تقوم به فى عملية الإنتاج، والعلاقات التى تربطها بغيرها من الطبقات، فإن هذين البعدين يتجاوبان ليصنعا الوعى الجماعى للطبقة الذى هو بنية فكرية خاصة بالطبقة. وهو - من حيث كونه بنية- وعى متحرك لا يتصف بالجمود شأنه شأن الطبقة التى تشكله. وأهم خاصية لهذا الوعى أنه موجود فى الطبقة وبها. أعنى أنه لا يمثل كيانا وجوديا (أنطولوجيا) منعزلا بل يمثل كيانا قاراً فى الوعى الفردى لكل أفراد الطبقة.

لكن هذا الوعى يأخذ شكلين متميزين رغم ما بينهما من تداخل وتجاوب، ورغم أن كليهما يشكل وحدة. أما أولهما فهو ما يسميه جولدمان «الوعى الفعلى» *Conscience réelle* أو الوعى الموجود تجريبيًا على مستوى السلب، وينحصر فى مجرد وعى بالحاضر، وأما ثانيهما فهو «الوعى الممكن» *Conscience Possible* وينشأ عن الوعى الفعلى، ولكنه يتجاوزه ليشكل الوعى بالمستقبل. وذلك طبيعى لأن الوعى بالحاضر لابد أن يولد وعيا بإمكان تغييره وتطويره. وإذا كان الوعى الفعلى يرتبط بالمشكلات التى تعانىها الطبقة، أو المجموعة الاجتماعية، من حيث علاقاتها المتعارضة ببقية الطبقات أو المجموعات، فإن الوعى الممكن يرتبط بالتصورات التى تطرحها الطبقة لتحل مشكلاتها وتصل إلى درجة من التوازن فى العلاقات مع غيرها من الطبقات أو المجموعات.

وعندما يصل الوعى الممكن إلى درجة من التلاحم الداخلى التى تصنع كلية متجانسة من التصورات عن المشكلات التى تواجهها الطبقة وكيفية حلها، وعندما تزداد درجة التلاحم شمولاً لتصنع بنية أوسع من التصورات الاجتماعية والكونية، عندما يحدث ذلك يصبح الوعى الممكن رؤية للعالم. وإذن، فأهم شرط من شروط الرؤية أنها جماعية بالضرورة، أى تنتج عن ذات فاعلة تتجاوز الذات الفردية وتحتويها، ذلك لأن تجربة الفرد وحده قصيرة ومحدودة جداً بحيث لا تستطيع أن تخلق رؤية العالم التى هى من صنع ذات جماعية مجاوزة للفرد الذى هو طرف فاعل

فيها ضمن المجموعة الاجتماعية التي ينتمى إليها.

وكل عمل إبداعي هو تجسيد لرؤية العالم التي تصنعها الذات المجاوزة للفرد، وذلك بالمعنى الذي ينقل هذه الرؤية من مستوى الوعي الفعلى الذي بلغته إلى مستوى الوعي الممكن، خصوصا عندما يكشف العمل الإبداعي عن التلاحم العلائقي للرؤية وتجانسها الفكري من منظورها الخاص على الأقل. ولا يتأتى ذلك إلا لكبار المبدعين والكتاب الذين لا يكتفون بنقل ما هو واقع، ولا يتوقفون عند حدود الوعي الفعلى مقتصرين على وصفه، وإنما يلقون الضوء بأعمالهم على التلاحم البنيوي لرؤى العالم التي تتولد منها أعمالهم، كاشفة عنها ومؤكدة التلاحم العلائقي لوعيها الممكن في الوقت نفسه. وذلك هو أصل القيمة الموجبة للأعمال الفنية والفكرية البارزة، من حيث هي إبداعات تكشف عن رؤية متلاحمة للعالم، ومن ثم عن سر تولدها فيه، وسر تلاحمها الموازي لتلاحم الرؤية التي تولدت عن العالم وفي العالم. ويترتب على ذلك أن العلاقة الأساسية بين الحياة الاجتماعية والإبداع الثقافي في الفكر والفن لا تنحصر في مضمون هذين المجالين من الواقع الإنساني، وإنما تجاوز المضمون إلى الأبنية المتجاوبة ما بين رؤى العالم التي تصوغها الذوات المجاوزة للفرد والأعمال الإبداعية التي تتولد عن هذه الرؤى بواسطة الأفراد المتميزين الذين ينطوون عليها في الوقت نفسه.

وليس من الضروري أن تحدث رؤية العالم عند أفراد المجموعة الاجتماعية على مستوى «الوعي» بالمعنى المستخدم في

التحليل النفسى عند سيجموند فرويد (١٨٥٦-١٩٣٩). كما أنها لا تحدث على مستوى «اللاوعى» بالمعنى الفرويدى للكلمة أيضا، ذلك لأن مفهوم «اللاوعى» عند فرويد ينطوى على عمليات كبت لا يسمح بها الوعى الفردى، وليس ذلك ما يحدث على مستوى بنية الوعى المشكلة لرؤية العالم عند أفراد الطبقة. إن هذه البنية تحدث، أو توجد، على مستوى ثالث، هو المستوى الذى يسميه جولدلمان مستوى «الوعى الضمنى» أو «غير الوعى» Non-conscious. ويتضح هذا النوع من الوعى عندما أتحدث، مثلا، عن طبيعتى الفيزيولوجية كإنسان متعین، إذ قد لا أعى النسق الذى يحدد عمل أجهزتى الحيوية، أو النظام البيولوجى داخل جسمى، ولكن عدم وعى بهذا النسق أو النظام لا يمثل حالة من حالات اللاوعى unconscious بالمعنى الفرويدى، لأنى لا أكبح هذا النسق أو النظام. أنا لا أدرى عنه شيئا فحسب. وإذا وصفه لى عالم فمن المنطقى أن أفهمه وأصبح عارفا به، ومن ثم تزداد خبرتى الواعية به (١).

وإذا كان الوعى الضمنى، على هذا النحو، وعيا يتجاوز صفات المصطلح السيكلوجى الفرويدى، فى إلحاحه على مفهوم الكبت، فإنه وعى يتمثل فى بنية فكرية وشعورية وسلوكية، تعمل فى أفراد الطبقة أو المجموعة الاجتماعية عملا أشبه بعمل الأنسقة أو الأنظمة البيولوجية التى تحكم سلوكنا. ومن المؤكد أنه وعى يتجاوز مفهوم اللاوعى الجمعى بمعناه المستخدم عند كارل يونج (١٨٧٥-١٩٦١) فى الوقت نفسه، ذلك لأنه وعى ضمنى

جماعى له وجود محدد، يتمثل فى نسق من التصورات المتلاحمة تجمع ما بين أفراد الطبقة أو المجموعة، فتجعلهم يشعرون ويفكرون ويسلكون بطريقة معينة، فى لحظة تاريخية محددة وليس فى مطلق الزمان، وتبعاً لعلاقات اجتماعية محددة وليس تبعاً لنماذج عليا ذات طبيعة مطلقة.

ويعنى ذلك أن «رؤية العالم» تتميز - فضلاً عما سبق- بأنها مفهوم تاريخى، يصف الاتجاه الذى تتجهه الطبقة، أو المجموعة الاجتماعية، فى فهم واقعها الاجتماعى ككل، بحيث يصل هذا المفهوم ما بين قيم هذه الطبقة -أو المجموعة الاجتماعية- وأفعالها، فى وحدة تصورية من ناحية، ويميز ما بينها وبين غيرها من ناحية أخرى. ولذلك، يستخدم جولدمان المصطلح -رؤية العالم- باعتباره مصطلحاً «يلئم ذلك الكل المركب من أفكار ومطامح ومشاعر، تصل ما بين أفراد مجموعة اجتماعية (تأخذ شكل طبقة فى أغلب الأحوال) وتفصل ما بينهم وبين غيرهم من أفراد المجموعات الاجتماعية الأخرى»^(٦).

قد ترجع بنا «رؤية العالم» على هذا النحو إلى مفهوم لوكاش عن «الكية الاجتماعية» أو الوحدة الاجتماعية الشاملة. ولكن جولدمان يطور هذا المفهوم، خصوصاً عندما يعالج الرؤية بوصفها بنية لا تفهم إلا فى أدائها لوظيفة، وعندما يفهم هذه البنية فى ضوء السيكلولوجية المتطورة التى ثقفها عن أستاذاه جان بياجييه، فينظر إلى «رؤية العالم» من حيث تولدها عن مشكلات تتطلب حلاً، ومن حيث هى نسق متلاحم يضع المشكلات

مقابل حلولها، فتصبح «رؤية العالم» -والأمر كذلك- بنية شاملة، تهدف بنسقتها المتلاحم إلى تطويع الموقف الذى تعانیه الطبقة أو المجموعة، تماماً كما ينبع نسقتها المتلاحم من الرغبة فى تطويع الموقف، ولذلك يعرفها جولدمان بأنها «خط متلاحم من المشاكل والإجابات»^(٣)، وهو تعريف ينطوى على نوع من التمييز بين رؤية العالم والإيديولوجيا، فالإلحاح على التلاحم فى الرؤية يؤكد وضعها المتميز إيجاباً، خصوصاً حين نضع فى اعتبارنا أن جولدمان يرى أن الإيديولوجيا منظور جزئى، أحادى الجانب، مشوّه للوعى، وليست نظرة شاملة متلاحمة للعالم، وإذا كانت الإيديولوجيا تزييفاً للوعى، ومن ثم تبريراً لما هو قائم بتخييل محاسنه، فإن رؤية العالم تكدح للوصول إلى لون من الحقيقة، هى فى النهاية الحقيقة من وجهة نظر بشر محددين فى لحظة تاريخية محددة.

ولكن إذا كانت رؤية العالم لا توجد خارج الأفراد فإنها ليست من صنع الفرد الواحد أو المتوحد. إنها من صنع المجموعة لأن الفرد لا يتحرك إلا على أساس من علاقته بغيره. وإذا كان الخطأ الأساسى لبعض النظريات السيكلوجية، فيما يرى جولدمان، يرجع إلى تركيزها المستمر على الفرد، بوصفه حقيقة مطلقة متوحدة، فإن التركيز، عند جولدمان، يتركز حول الذات الجماعية التى تتحقق بينها وبين موضوعها وحدة جدلية من ناحية، وتنطوى على علاقة بذوات مماثلة من ناحية ثانية، فتتشكل نتيجة لذلك ذات جماعية أعم من الفرد. وهذا كله طبيعى، لأن

جولدمان يرى أن النشاط الإنساني يتم بواسطة الـ«نحن» وليس «الأنا». صحيح أن بنية المجتمع المعاصر تميل إلى إخفاء الـ«نحن» وتحويلها إلى مجموعة من الذوات المنعزلة، لكن تنظّل العلاقة الجماعية قائمة بين الذوات، فتصنع علاقة الـ«نحن» التي تتجلى فيما تمارسه الجماعة فعلاً من الأفعال على مستوى الموضوع. وعند هذا المستوى يترك جولدمان مفهوم الذات الفردية ليؤكد الذات المجاورة للفرد Trans Individual Subject. يعنى بهذا المصطلح أن الطبقة، أو المجموعة الاجتماعية، حاملة رؤية للعالم وخالقتها، وأن البنية المتلاحمة لهذه الرؤية ليست من صنع الفرد المفرد وإن كانت متضمنة في وعيه بالضرورة.

ويؤكد ارتباط مفهوم «رؤية العالم» بمفهوم «الذات المجاورة للفرد» عدة أمور مهمة. منها أن هذه الرؤية تتجلى في الأعمال الفنية والأدبية والفكرية للطبقة. ولعل لفظة «تتجلى» في هذا السياق لفظة مراوغة تعكّر على ما يقصده جولدمان. ومن الأدق أن نقول إن رؤية العالم تعبر عن نفسها بأشكال مختلفة، وتولد مجموعة من الأعمال، تختلف ظاهرياً باختلاف الفلسفة عن الأدب، ولكنها تتجاوب بنيوياً من حيث تعبيرها عن هذه الرؤية وتولدها عنها. ومن هذه الزاوية، تتأكد أهمية الفلاسفة والفنانين والأدباء الكبار، بل قيمة كبار القادة السياسيين، في جانب أساسي من جوانب القيمة الاجتماعية، وذلك من منطلق أنهم المعبرون عن بنية رؤية العالم عند الطبقة، أو المجموعة الاجتماعية التي ينتمون إليها. ويرجع تمييزهم على غيرهم إلى أنهم يصوغون هذه الرؤية

فى أقصى درجات تلاحمها البنىوى. وما يميز واحدھم عن غيره هو مدى تباين صياغة التلاحم البنىوى للرؤية ودرجة التجانس العلائقى الذى يبين عنه فى صياغتها الفنية أو الفكرية.

ويترتب على ذلك أن الأعمال الأدبية، شأنها شأن الإبداعات الفنية والنظريات الفلسفية والمشروعات السياسية، أعمال فردية وجماعية فى آن، جماعية لأن الوعى الطبقي للمجموعة الاجتماعية هو الذى ينطوى على مكونات رؤية العالم، وفردية لأن الأديب الأصيل هو القادر على أخذ هذه المكونات ونظمها فى عمل ينطوى على أقصى درجة من التلاحم والوحدة، فيحقق لرؤية العالم نفسها أقصى درجة من التماسك والوحدة. وكأن الفنانين والأدباء والفلاسفة وكبار القادة السياسيين هم الذين يرفعون «رؤية العالم» من مستوى الوعى الفعلى إلى مستوى الوعى الممكن عند الطبقة أو المجموعة الاجتماعية التى ينتمون إليها. إن أعمالهم، على هذا النحو، تنطوى على تلاحم داخلى ينبع من التلاحم الخارجى فى «رؤية العالم» ويقوى منه، وبقدر ما يؤكد هذا الفهم الطبيعة التوليدية للأبنية الداخلية لهذه الأعمال فإنه يؤكد استحالة فهمها دون ربطها بالبنية الشاملة التى تولدت منها.

ونتيجة لذلك، يطلق جولدمان على منهجه النقدى مصطلح «البنىوية التوليدية» الذى يكشف عن بعدين مهمين غير منفصلين فى المنهج. أما البعد الأول فيتمثل فى «بنىوية» المنهج: على مستوى النموذج التصورى الذى يحكم إجراءات المنهج

وممارساته أو تطبيقاته، وعلى مستوى الواقع التجريبي للمادة سواء من حيث النظر إليها في علاقاتها التي تحكم شتاتها الظاهر أو تحول هذا الشتات إلى كلية أو بنية تحقق وحدة شاملة بين مقولات متلاحمة. ويعنى ذلك أن الواقع التجريبي ليس مجرد ركام من الظواهر أو الأحداث وإنما مجموعة من الأبنية. ولا سبيل إلى فهمه لو نظرنا إليه متجاهلين منطق البنى.

وإذا نظرنا إلى الأدب، من هذه الزاوية، قلنا إن الأدب ليس مجموعة من الأعمال المتناثرة، تضم عناصر متراكمة أو متجاوزة فحسب، وإنما هو مجموعة من الأبنية تنظم كل عمل على حدة فى بنية من العناصر المتلاحمة، وتنظم مجموعة من الأعمال فى بنية أخرى أكثر شمولاً. وكأن «بنىوية» المنهج على هذا النحو نسق تصورى يحكم العملية التى يقترب بها دارس الأدب من موضوعه المدرك، وهو العمل الأدبى أو الأعمال الأدبية، كما أنه نسق تصورى يحكم العمليات التى يتكون بها الموضوع المدرك ذاته أو الأعمال الأدبية فى نفسها.

ولكن هذا النسق التصورى ليس نموذجاً مجرداً يفرضه الدارس على المادة، كما أنه ليس نموذجاً حسياً، متمثلاً فى المادة، مستقلاً تماماً عن الدارس المدرك له، وإنما هو نسق تصورى ينطوى على تجريد وحسية فى آن، ويرجع إلى العلاقة بين الأعمال الأدبية والدارس فى الوقت نفسه، فيمثل - من هذه الزاوية - تطويراً لصيغة هيجل عن وحدة الذات والموضوع فى الفكر، ويؤكد أن أية محاولة لإلغاء الذات تنتهى إلى نزعة تجريبية

(إمبريقية) زائفة، كما أن أية محاولة لإلغاء الموضوع تنتهى إلى ذاتية ضارة. وإذا سيطر القطب الأول من هذين القطبين سادت الشكلية، وإذا سيطر القطب الثانى ساد الإسقاط. والنتيجة هى ضياع المعنى فى الحالين.

أما عندما يصل المنهج بين الذات والموضوع وصلا جدليا يحقق التفاعل المتوازن بين الطرفين، يؤكد المنهج كلية العملية الإدراكية فى دراسة البنية، من حيث هى وحدة شاملة لا تتركها سوى نظرة كلية ترى الكل الوظيفى فى علاقة أجزائه. وبالقدر نفسه، يؤكد المنهج الحضور الوجودى (الأنطولوجى) المستقل لبنية العمل الأدبى ذاته أو أبنية الأعمال الأدبية، بوصفها نسقا موجودا خارج ذات الباحث أو الناقد ومتأثرا بها فى الوقت نفسه. ويعنى ذلك أن كل باحث (وكل ناقد) يصدر عن «رؤية للعالم» توافق أو تخالف بدرجات متفاوتة متباينة رؤى العالم المتمثلة فى الأعمال الأدبية. والموضوعية - فى هذه الحالة - هى عدم التضحية بموقف الباحث، وعدم التضحية - فى الوقت نفسه - بالكيان الوجودى (الأنطولوجى) المستقل لبنية الأعمال الأدبية. وبهذه المعادلة الصعبة، عمليا، يتم الكشف عن التلاحم الداخلى للأبنية الأدبية المدروسة، دون تدخل مفروض من ذات الباحث على نحو يؤدى إلى تدمير الأبنية المستقلة للأعمال، ودون إلغاء لدور ذات الباحث فى النقاط الدلالة واكتشاف نماذج البنية أو الأبنية. ومهما كانت صعوبة هذه المعادلة فإن تحقيقها شرط لتدعيم الطبيعة الكلية للحديث عن البنيوية بوصفها منهجا، والبنية

بوصفها نسقا يحكم الظاهرة الأدبية.

والحديث عن بنيوية المنهج والظاهرة التى يعالجها لابد أن يقود إلى أمر مهم يرتبط بإلحاح المنهج على التقاط «كليات» الظاهرة وأنساقها أو نظمها، ومن ثم تحليلها تحليلًا علائقيًا يؤكد أن الظاهرة الأدبية تنطوى على خاصية الوحدة الشاملة التى لا يمكن اختزالها فى تجمع أو جماع أجزائها المنفصلة أو المنعزلة. ولذلك، يستبعد المنهج أية محاولة ذرية أو تجزيئية للاقتراب من الظاهرة، كما يستبعد أية محاولة سوسيولوجية تنحو منحى تجريبيًا (إمبيريقيا) خشنا، يتوقف عند مشابهاة مضمونية أو شكلية منعزلة، بل يؤكد المنهج تناول الظاهرة الأدبية من حيث هى بنية متلاحمة، لا يمكن أن يساوى معناها المجموع المتناثر لأجزائها، بل يرتد معناها إلى العلاقات التى تصل ما بين هذه الأجزاء، فتمنحها دورا داخل البنية التى تؤدى وظيفة اجتماعية بدورها. هكذا، يصبح المحرك الدافعى لإجراءات المنهج هو البحث عن النظام أو النسق القار فى الظاهرة، ذلك الذى يكمن وراء شتاتها الظاهري فحسب. ويعنى اكتشاف هذا النظام أو النسق اكتشاف البنية، ومن ثم اكتشاف العلاقات المنظمة للعناصر، الواصلة بين الأجزاء، المفسرة للعناصر والأجزاء فى الوقت نفسه، والنتيجة هى أنه لا سبيل إلى إدراك الأجزاء فى ذاتها لأن الأجزاء لا يمكن إدراكها إلا من حيث علاقتها بالكل، أى من حيث دورها التكويني فى نظام أو نسق أو كلية من العلاقات المتلاحمة، أى فى بنية.

ولكن كيف توجد البنية نفسها على مستوى الموضوع المدروس؟ وهل يمكن عزلها عن ذات فاعلة تصنعها بوصفها موضوعا؟ وهل يمكن تصور البنية بوصفها نسقا مجردا بعيدا عن وظيفة، ومن ثم بعيدا عن معنى له دلالاته التاريخية وشرطه الاجتماعي؟ إن هذه الأسئلة تعنى ربط الأعمال بكتابها فى مجال الأدب، كما تعنى ربط كتابة الأعمال بتأدية وظيفة ذات علاقة بمجموعة اجتماعية أو طبقة تواجه مشكلا تاريخيا. وأهم من ذلك أن هذه الأسئلة تقود إلى النظر إلى البنية نفسها بوصفها نتاجا لذات تاريخية مجاوزة للفرد، والنظر إلى هذا النتاج من حيث أدائه وظيفة لهذه الذات التاريخية المنتجة له.

وعند هذه النقطة، يدخل مفهوم رؤية العالم فى صميم المنهج، بل يصبح علته المحركة وأساسه الدافعى الأول، ومن ثم يتكشف البعد المفهومى الثانى للمنهج، وهو البعد الذى يرى البنية فى تولدها، من حيث هى نتاج لذات تاريخية مجاوزة للفرد، ومن حيث هى بنية ذات دلالة مرتبطة بشرط إنتاجها أو تولدها، ومحقة لوظيفة أساسية تتصل بالمجموعة الاجتماعية أو الطبقة التى أنتجتها. ولا تنفصل البنية عن الممارسة من هذا المنظور ولا تنعزل عن السلوك الوظيفى لإنسان تاريخى. ولذلك، لا يمكن فهمها منفصلة عن «البراكسيس Praxis» إذا استخدمنا هذا المصطلح الأثير عند جولدمان، كما لا يمكن عزلها عن السلوك الإنسانى، فلا وجود لبنية دون وظيفة، كما أن وجود الوظيفة هو الذى يحدد البنية. ولا وجود للثنتين معا دون ذات مجاوزة للفرد تواجه

مشكلا تاريخيا محمدا . يقول جولدمان:

إن البنيوية التوليدية مفهوم علمي وإيجابي عن الحياة الإنسانية، مفهوم يتصل مفكروه الأساسيون بفرويد على أساسى سيكولوجى، ويتصلون بهيجل وماركس وبياجيه على أساس معرفى، مثلما يتصلون بهيجل وماركس وجرامشى ولوكاش على أساس تاريخى اجتماعى^(٤).

هذا الاتصال الذى يتحدث عنه جولدمان بين البنيوية التوليدية من ناحية وكل هؤلاء الفلاسفة والمفكرين من ناحية ثانية يعنى التسليم بالبحث عن نسق أو نظام فى كل عمل أدبى، أى محاولة الوصول إلى بنية. ولكن هذه البنية لا تنعزل، من حيث هى نتاج لذات، فى مستوى فردى يتوقع فى «الليبيدو»^(٥) على نحو ما فهمه فرويد. إنها توجد فى أفق وظيفى مغاير. ويتكشف جانب من دلالتها على مستوى السلوك، حيث تصبح حلا لمشكل أو إعادة لتوازن معرفى فى ضوء سيكولوجية جان بياجيه. ويتكشف الجانب الثانى من دلالتها على مستوى تولدها من رؤية ذات جماعية مجاوزة للفرد.

ولذلك يفهم جولدمان البنية بوصفها وظيفة تؤدي كى تحقق توازنا مفقدا بين مجموعة تاريخية ومشكل تاريخى محدد تواجهه. ويقدر ما تحل البنية مشكلا يدفع إلى تولدها، من حيث هى نتيجة له، فإن هذه البنية ليست حالا من السكون وإنما حال من الفعل الذى يمكن أن يؤدي إلى أبنية مغايرة. وليست أبنية

الأعمال الأدبية والفلسفية والفنية بعيدة عن هذا الفهم ما ظلت تتجاوب بنيويا مع الأبنية الأشمل التي تولدت منها.

ويعنى الفهم الوظيفي للبنية أن الذات الفاعلة تواجه عالما اجتماعيا مبنيا، بدوره، لكن على نحو يؤدي إلى التعارض بين طموحات الذات وعلاقات هذا العالم. وينتج التعارض ما بين أبنية العالم، المستقلة والموجودة سلفا، والذات أبنية جديدة تتولد من التعارض. وهى أبنية تسعى بها الذات إلى حل مشكلها، وخلق توازن جديد يمكّنها من الاستمرار فى العالم. هذه الأبنية الجديدة هى وعى ممكن يصنع بتلاحمه ووحدته رؤية العالم. وسواء نظرنا إليه بوصفه بنية واحدة شاملة، أو أبنية متعددة من المقولات المتلاحمة، فإنه نتاج ذات جماعية متميزة أو طبقة تواجه مشكلا تاريخيا لا يحل إلا بعملية هدم لأبنية وبناء أبنية جديدة، أبنية تعيد التوازن المفقود، وتعين على استمرار الحياة من منظور المجموعة أو الطبقة.

وما دام العمل الأدبى بنية متولدة عن هذه البنية الأشمل فإنه يؤدي وظيفته فى الاتجاه الذى تتجه إليه البنية الأشمل، وذلك على نحو يؤكد أن وظيفته هى التى تصنع بنيته، وتكسبه دلالاته التى لا تفهم خارج إطار هذه البنية الأشمل. ويعنى ذلك أن البنيوية التوليدية منهج يتحرك على مستويين مترابطين، يمثلان مقارنة داخلية وخارجية لدراسة العمل الأدبى، مقارنة تقوم على مراوحة مستمرة بين داخل العمل وخارجه. إنه منهج لا يفهم العمل الأدبى إلا من حيث هو نسق من العلاقات المتلاحمة

داخليا. ولكنه لا يفهم هذا النسق على أنه مطلق، أو نظام مكتف بنفسه، مستقل تماما عن غيره، بل يفهمه من حيث هو وظيفة دالة على مستوى التلاحم الداخلى فى العمل نفسه. ولكن بمجرد أن يتعمق المنهج فى الكشف عن وظيفة هذا التلاحم يضطر للعودة إلى الخارج، حيث الطبقة أو المجموعة الاجتماعية للأديب المنتج. غير أنه لا يتوقف عندها إلا لكي يفهم رؤيتها من حيث كونها البنية الأشمل التى ولدت بنية العمل الأدبى، ومن ثم يعود مرة أخرى إلى بنية العمل الأدبى.. وهكذا دواليك، إلى أن يتعمق المنهج فهم العمل وشرحه من حيث هو بنية متعددة المستويات والإشارات.

وإذا أردنا أن نقترّب من المستويات المتعددة لبنية العمل الأدبى على هذا النحو، قلنا إن العمل الأدبى بنية ما ظل ينطوى على نسق متلاحم لموقف تاريخى. ولكن الأمر لا يتوقف عند هذا الحد، فالبنية ذات طابع وظيفى من حيث إنها تجاوز نوعى لمشكل الحد، قار فى أعماق هذا الموقف. وهى بنية دالة من حيث إنها تنطوى على معنى موضوعى لهذا المشكل. وهى بنية جمالية لأنها تجاوز نوعى أو صياغة خيالية وليست تصويرية للمشكل. وهى بنية موازية أو متجاوبة مع أبنية أخرى تصوغ المشكل صياغة نوعية مغايرة، مثل الفلسفة التى قد تصوغ المشكل نفسه بلغة التصورات والمفاهيم وليس بلغة الخيال. وهى لذلك كله بنية متولدة عن بنية أشمل، هى رؤية العالم التى وصل إليها الوعى الممكن للمجموعة الاجتماعية أو الطبقة التى ينتمى إليها الأديب. وإن،

فالعمل الأدبي أو الفني بوجه عام بنية جمالية دالة يتحدد طابعها الجمالي بما تنطوي عليه عناصرها الأدبية المكونة من تلاحم دال، يقودنا إلى دلالة لا تنفصل عن تولد العمل وتحدد قيمته بالقدر الذي تحدد منهج دراسته.

ممارسة النبوية التوليدية

ما فعله جولدمان فى كتابه «الإله الخفى» مع علمين فرنسيين من أعلام القرن السابع عشر، هما المؤلف المسرحى الشهير جان راسين والفيلسوف لويـز بسكال، يعد أكثر النماذج توضيحاً لمنهج النقدى. لقد كشفت له فى مسرحيات راسين بنية متكررة من المقولات -الله والإنسان والعالم- تتغير فى مضمونها وعلاقاتها المتبادلة من مسرحية إلى أخرى، لكنها تكشف عن رؤية خاصة للعالم، هى رؤية بشر ضائعين فى عالم يخلو من القيمة. ومع أن هؤلاء البشر يتقبلون العالم بوصفه العالم الممكن الوحيد لأن الإله غائب عنه، فإنهم لا يكفون عن الوقوف ضد هذا العالم، ليبرروا أنفسهم فيه باسم قيمة مطلقة غائبة دوماً عن النظر. ويجد جولدمان أساس هذه الرؤية فى الحركة الدينية التى عرفت فى فرنسا باسم الجنسينية^(٦). ويفسر لوسيان جولدمان «الجنسينية»، بدورها، على أنها نتيجة لإزالة نبالة الرداء Noblesse de robe من موظفى البلاط الذين كانوا يعتمدون اقتصادياً على الملكية رغم تضاؤل قوتهم مع نمو الحكم المطلق.

ولا يكتفى جولدمان بذلك بل يكشف عن تماثل بنيوى آخر بين مأسى راسين وكتاب «الأفكار» لبسكال، ويصل بين البنيتين على مستوى التولد بردهما إلى رؤية العالم عند الجنسينية، ويرد الجنسينية ومأسى راسين و«أفكار» بسكال على السواء إلى

مشكل اجتماعى لمجموعة اجتماعية محددة، وعلى نحو يكشف عن الدلالة الوظيفية المتجاوبة فى البنية الأشمل والأبنية الأقل شمولاً فى العلاقة برؤية مأساوية للعالم. ولكى يثبت جولدمان هذا كله، يتحرك فى كتابه «الإله الخفى» على النحو التالى:

« فى مرحلة ازدهار الحكم المطلق فى فرنسا فى القرن السادس عشر، نظم الملك بيروقراطية تدعمه من المحامين البرجوازيين، وجعل منهم نبلاء بمرسوم ملكى، الأمر الذى مكّنهم من تشكيل ما سُمى النبالة الشرعية فى مقابل الأرستقراطية الإقطاعية القديمة. ولما كانت هذه النبالة الشرعية تدين فى وجودها الاجتماعى إلى الملك فقد أصبحت عوناً له فى صراعه ضد الأرستقراطية. ولكن حدث، فى أوائل القرن السابع عشر، أن شعر لويس الثالث عشر أن النبالة الشرعية Officers لم تعد أداة خاضعة لإرادته تماماً، فخلق بيروقراطية أخرى منافسة لها Commissaires ومنحها حقوق البيروقراطية الأولى وامتيازاتها. وكان من الطبيعى، والأمر كذلك، أن يجد أفراد النبالة الشرعية أنفسهم فى مأزق صعب، فقد كانوا يدينون بوجودهم إلى الملك الذى انقلب عليهم وتخلّى عنهم لأسباب غير معروفة. ولما كان هؤلاء بلا أحلاف طبقيين فقد ظلوا عاجزين فى مواجهة تصاعد الحكم المطلق، ولم يعد أمامهم من خيار سوى أن يشهدوا نهايتهم على يد من خلقهم.

« فى سنتى ١٦٣٧-١٦٣٨ تشكلت طائفة دينية هى الجنسية. ورغم أنها كانت حركة دينية، يفخر ممثلوها بنقائهم

الكاثوليكي، ومحاربة التحرر والإباحية، فإن الحركة صارت هدفا لهجوم الكنيسة والحكومة، ومن ثم هدفا للاتهام بالهرطقة فى الدين. وعندما حلل جولدمان التعاليم النظرية لكل من أرنو Arnould وباركوس Barcos وغيرهما من أقطاب الجنسينية، وجد ثلاث مقولات أساسية تشكل بنية: لقد أكد الجنسينيون أن الإله تخلق عن العالم وسحب منه نعمة الهداية والخلاص. وما دامت نعمة الخلاص منسحبة من العالم فليس فى العالم نفسه سوى الشر القاهر الذى يجر كل أفعال الإنسان إلى شرك المعصية المهلكة. وما دام العالم على هذا النحو، وما دامت نعمة الخلاص غير متاحة فيه، فلا مفر للإنسان من مواجهة المقدور عليه فى العالم لأنه لا يستطيع أن يفعل شيئا فى مواجهته.

ويكشف جولدمان، على هذا النحو، عن تماثل بنيوي دقيق بين المألزق الاجتماعى للنبالة الشرعية والتعاليم الدينية للجنسينية. ويتضح التماثل على النحو التالى:

المجال الاجتماعى	المجال الدينى
١- خلق الملك النبالة الشرعية لكنه تخلق عنها لأسباب غير معروفة.	خلق الله العالم ولكنه تخلق عنه لأسباب غير معروفة.
٢- فأصبحت الظروف الاجتماعية مدمرة.	وأصبح العالم شرا كاملاً.
٣- لا قدرة للنبالة على مواجهة المقدور الملكى.	لا قبل للإنسان على الخلاص فى العالم.

▪ يكشف هذا التماثل البنيوي عن رؤية مأساوية للعالم، رؤية وجد كل من بسكال وراسين مكوناتها فى الجنسينية التى تأثرا بها، فصاغ كلاهما من هذه المكونات صياغة مختلفة عن الآخر، أعنى صياغة تصورية فكرية عند بسكال وصياغة تخيلية إبداعية عند راسين، لكن كل صياغة تتجواب بنيويا مع الأخرى على أساس من المقولات المتكررة -الله، والإنسان، والعالم. وهى المقولات التى تتجواب بها الصيغتان بنيويا، وذلك على نحو تحقق به كل منهما تطويرا لمكونات الرؤية المأساوية للعالم، ووصولا بها إلى أقصى درجة من التلاحم والوحدة.

وإذا كان هذا كله يؤكد أن رؤية العالم هى التى صنعت أعمال بسكال ومسرح راسين فإنه يعنى أن أعمالهما تولدت عن هذه الرؤية، واستمدت دلالتها من تحقيقها لوظيفة على مستوى مشكل اجتماعى واجهته مجموعة اجتماعية محددة. وما يبحث عنه جولدمان على هذا النحو هو جماع من العلاقات البنيوية بين النص الأدبى ورؤية العالم والتاريخ نفسه، ساعيا إلى الكشف عن الكيفية التى يتحول بها موقف تاريخى لمجموعة اجتماعية أو طبقة إلى بنية عمل أدبى، بواسطة رؤية العالم عند هذه المجموعة أو الطبقة. ولكن إدراك هذا التحول ودراسته لا يمكن أن يتم بدراسة العمل الأدبى من حيث هو بنية منغلقة على ذاتها، وإنما من حيث هو بنية متولدة. والسبيل الوحيد إلى ذلك هو أن نبدأ من العمل الأدبى أو الفكرى لكى ننطلق منه إلى التاريخ، ثم نعود من التاريخ إلى العمل فى حركة أشبه ما تكون بحركة «المكوك».

ويصف جولدمان هذه الحركة بأنها حركة جدلية من حيث إنها تقوم على منهج جدلي، يتحرك دائماً ما بين العمل ورؤية العالم والتاريخ، وعلى نحو يكيف معه المنهج كل واحد من الأطراف الثلاثة مع الآخر، وينظر إلى كل واحد من الثلاثة في ضوء الآخر.

وعند هذا المستوى، يميز جولدمان ما بين جانبين من عملية واحدة في الدرس الأدبي، هما عملية التفسير أو الفهم وعملية الشرح. أما عملية التفسير فتتجلى في الكيفية التي يفهم بها الدارس العناصر المكونة للعمل الأدبي، ومن ثم الكيفية التي نكتشف بها بنية هذا العمل. أما الشرح فهو النظر إلى هذه البنية الأدبية نفسها حيث هي وظيفة لبنية اجتماعية أوسع منها. وإذا كان التفسير درساً أدبياً على مستوى فهم البنية الداخلية للعمل الأدبي فإن الشرح درس اجتماعي على مستوى البنية الخارجية الأشمل. ولذلك، يقول جولدمان إن الشرح يتصل، تحديداً، بما يتجاوز نص العمل الأدبي، أما التفسير فإنه ملازم لنص العمل الأدبي، ذلك «لأن فهم الظاهرة هو وصف بنيته» وعزل معناها. أما شرح الظاهرة فهو الإبانة عن تولدها على أساس من وظيفة تنطلق من ذات^(٧). وليست الحركة ما بين التفسير والشرح حركة متعاقبة تسير في اتجاه أفقي لا يتكرر وإنما هي حركة متعاكسة، مكوّنة مثلما هي دائرية، فنحن نتطلق من التفسير إلى الشرح، ثم نعدّل من التفسير في ضوء الشرح.. وهكذا دواليك إلى أن نصل إلى أدق إدراك لبنية العمل الأدبي.

ويؤكد جولدمان أن عمليتي الفهم (التفسير) والشرح

ليستا عمليتين عقليتين مختلفتين أو منفصلتين بل عملية واحدة مركبة تتربط بمتأثرات مختلفة. وإذا كان الفهم هو الكشف عن بنية دالة محايثة فى الموضوع المدروس، أى هذا العمل الأدبى أو ذاك، فإن الشرح إدماج هذه البنية فى بنية شاملة تغدو البنية الأدبية عنصرا تكوينيا من عناصرها. ولا يستكشف الباحث أو الناقد البنية الشاملة فى تفاصيلها وإنما بالقدر الذى يعينه على فهم تولد العمل الذى يدرسه، فالهم هو تناول البنية المحيطة من حيث هى موضوع للدرس، وعلى نحو ينقلب معه ما كان شرحا ليصبح فهما، ويغدو البحث الشارح مطالبا بالاتصال ببنية جديدة أوسع.

ويقدم جولدمان مثالا لتوضيح الأمر بقوله إن فهم كتاب «الأفكار» لبسكال أو ماسى راسين يعنى الكشف عن الرؤية المساوية التى تؤسس البنية الدالة التى تحكم عمل راسين وبسكال على السواء. ولكن فهم بنية الجنسسية المتطرفة يعنى شرح تولد «الأفكار» وماسى راسين. وبالمثل، فإن فهم الجنسسية هو شرح لتولد الجنسسية المتطرفة. وفهم تاريخ نبالة الرداء (نبلاء الإدارة) فى القرن السابع عشر هو شرح لتولد الجنسسية. وفهم العلاقات الطبقية للمجتمع الفرنسى فى القرن السابع عشر هو شرح لتطور نبالة الرداء (نبلاء الإدارة).. الخ.

ويترتب على ذلك إدراك صعوبة فصل التفسير المحايث عن الشرح بواسطة البنية المحيطة، وصعوبة التقدم فى أى مجال من مجالى التفسير والشرح إلا بمراوحة مستمرة بينهما. لكن هذا لا

يمنع فى النهاية من التمييز الدقيق بين العمليتين المتصلتين من حيث طبيعتهما والنتائج المترتبة على كل منهما، فالفهم أو التفسير عملية داخلية فى النصوص التى ندرسها، بينما الشرح خارجى دائما بالنسبة إلى هذه النصوص. وحركة المراجعة بينهما لا تدنى بكليهما قط إلى حال من الاتحاد بل إلى حال من المناقلة الفاعلة.

والأساس الفلسفى لهذه المناقلة يقوم على أبعاد معرفية (إبستمولوجية) مؤداها أن تقدم المعرفة لا يتم من البسيط إلى المركب وإنما من المجرد إلى الملموس، خلال مراجعة مستمرة بين الكل وأجزائه. ويرى جولدمان أن هذه المراجعة هى الأساس الذى تقوم عليه وحدة العملية المنهجية للتفسير والشرح. ولذلك فإن كليهما لا يمثل إجراء مباينا للآخر بل وجهين لإجراء مركزى، إذ يتضمن التفسير وصف البنية المتأصلة فى الموضوع المدروس، وينطوى الشرح على إدماج البنية المفسرة فى بنية أشمل، كأننا إزاء العملية المنهجية نفسها، ولكن من زاويتين مختلفتين من التطبيق. ويترتب على ذلك من الوجهة التأويلية (الهرمنيوطيقية) ما يتخذه مفهوم التفسير والشرح عند جولدمان من وضع مناقض لتعاليم الكانطية الجديدة التى تؤكد انفصال عملية الشرح السببى (ومجاله العلوم الطبيعية) عن التفسير والشرح (ومجالهما العلوم الاجتماعية والتاريخية). ولذلك فإن جولدمان بتأكيد وحدة التفسير والشرح، على هذا النحو الذى ينطوى على معنى المناقلة، فى تبادل التآثر والتأثير ما بين العمليتين، يؤكد نوعا من النزعة

السياقية الجذرية Radical Contextualism فيما يرى جورج هواكو، نزعة تدعم النمط المتلاحم للعملية الإدراكية للموضوع المفسر^(٨).

وطبيعى أن يترتب على المفاهيم السابقة للبنيوية التوليدية اختلاف جذرى مع كثير من مناهج النقد الأدبى المعاصرة. وأهمها منهج التحليل النفسى والمنهج البنىوى اللغوى أو الشكلى (فيما يسميه جولدمان) والمنهج الاجتماعى التقليدى. ويدخل جولدمان فى حوار مع ممثلى هذه المناهج المغايرة، توضيحا لمنهجه من ناحية، ودفاعا عنه من ناحية ثانية، وكشفا عن خلل المناهج الأخرى فى مواجهة منهجه من ناحية أخيرة. وليس من الضرورى حصر المناهج المخالفة وإنما ذكر أهمها من زاوية الحوار بينها وبين «البنىوية التوليدية» توضيحا للمبادئ التى ينطوى عليها المنهج الأخير.

أما منهج التحليل النفسى فهناك مجموعة من المشابهات تصل بينه وبين البنىوية التوليدية على مستوى السطح. إذ هناك -أولا- فكرة النظر إلى السلوك الإنسانى بوصفه تشكيلا لجانب من بنية دالة، وهناك -ثانيا- التسليم بأن السلوك الإنسانى لا يمكن فهمه إلا بعد دمج فى بنية أشمل، وهناك -ثالثا- النتيجة اللازمة، وهى استحالة فهم البنية إلا على مستوى تولدها. هذه الجوانب الثلاثة تقيم مشابهات بين التحليل النفسى والبنىوية التوليدية، بل تجعل من التحليل النفسى بنىوية توليدية بمعنى من المعانى. ولكن هذه المشابهات تظل على مستوى السطح الذى لا تفارقه. أما على المستوى الأعمق بكل ما يحكمه من مبادئ

معرفية أو وظيفية، فإن المنهجين يتميزان تميزاً جذرياً، ويصلان إلى درجة من التعارض الحاد الذى يقع على مستوى الخلاف بين التفسير الفردى والتفسير الجماعى للظاهرة الأدبية.

من هذه الزاوية، ترى البنيوية التوليدية أن التحليل النفسى، عندما يقودنا إلى «اللاوعى» الفردى، يقودنا إلى منطقة مائعة يصعب تحديدها أو تثبيتها بالمعنى التجريبي. ولذلك تظل مستعصية على مبدأ التحقق من الصحة. يضاف إلى ذلك أن «التحليل النفسى» يقودنا إلى خارج العمل الأدبى منذ اللحظة الأولى، ودون أن يتوقف ليكتشف البنية الذاتية للعمل. إنه لا ينظر إلى العمل بوصفه بنية متأصلة، يجب اكتشاف علاقات تلاحمها الداخلى، وإنما ينظر إلى العمل بوصفه «عرضاً» يشير مباشرة إلى «لاوعى» الكاتب، فيتحول العمل الأدبى، منذ اللحظة الأولى، إلى تعبير فردى على مستوى اللاوعى. ويقدر ما يعزل هذا الإجراء العمل الأدبى عن وظيفته الاجتماعية، ويخرجنا فوراً من داخله إلى خارجه، يحيل العمل إلى وثيقة غير أدبية بالضرورة. أعنى وثيقة يتعامل معها التحليل النفسى بوصفها إشباعاً مُصنَّعاً لرغبة فى تملك موضوع، وجماعاً من «المونتاجات» النفسية الفردية، أو تمثيلاً أميناً أو مشوها لعدد بعينه من حقائق اللاوعى. وفى هذا كله إلغاء لأدبية الأدب من ناحية، وتقليص لوظيفته الاجتماعية من ناحية ثانية، وعدم تمييز بينه وبين نتاج أى مجنون من المجانين من ناحية أخيرة.

وتؤكد البنيوية التوليدية فى مقابل ذلك أنها تنظر إلى

الطبيعة الأدبية للعمل الأدبي منذ البداية، أى تؤكد الخاصية الأدبية والجمالية للبناء، وذلك من خلال تمييزها المستمر بين جانبي التفسير والشرح من العملية المنهجية الموحدة رغم تعقدها. يضاف إلى ذلك أن البنيوية التوليدية لا تدمج السلوك الإنساني فى بنية فردية وإنما فى بنية جماعية، فلا تنظر إلى الذات فى السلوك بوصفها ذاتا قائمة على مستوى الليبدو بل بوصفها ذاتا جماعية توجد على مستوى آخر للوعى. ولذلك يقول جولدمان إن التحليل النفسى يختزل السلوك الإنسانى كله فى ذات فردية، وفى شكل واحد لرغبة فى موضوع، بغض النظر عن إعلان هذه الرغبة أو التسامى بها. أما البنيوية التوليدية فإنها تفصل السلوك على مستوى الليبدو (الذى يدرسه التحليل النفسى) عن السلوك الذى ينطوى على خاصية تاريخية لذات جماعية، إذ تؤكد البنيوية التوليدية، دائما، أن هذه الذات لا يمكن أن تتوجه إلى موضوعها إلا بعد توسط لمطمح يقتضيه الانسجام^(٩).

وبالقدر الذى يوقع به التحليل النفسى الاتحاد بين الشرح والتفسير فإنه يبحث عن المبدأ الشارح للعمل الأدبى فيما دون وعى الكاتب وليس فى العمل الأدبى ذاته. والنتيجة هى ما يشرح به المحلل العمل بما ليس فيه، خصوصا عندما يحيله إلى مجهول قار فى أغوار لا وعى فردى متعال. وبغض النظر عن خطورة التسوية بين جانبي التفسير والشرح للعمل الأدبى، فإن الإحالة إلى مجهول اللاوعى تدمر سلامة المبدأ الشارح وسلامة التفسير فى الوقت نفسه. إن التفسير، أى فهم العمل الأدبى، فيما تراه

البنوية التوليدية، عملية عقلية إلى أقصى حد، بمعنى أنها تقوم على أدق وصف ممكن لبنية دالة دون أية إضافة إلى نص العمل الأدبي. ويحدد جولدمان التفسير على نحو بالغ الصرامة عندما يقول:

إن هذه العملية يجب أن تخضع لقاعدة أساسية مؤداها أن التفسير يضع النص، كل النص، في اعتباره دون أن يضيف إليه شيئاً. ولقد قلت إن المرء ليس له أى حق فى أن يضيف شيئاً إلى أوديب عند سوفكليس فيفترض أن أوديب كان ينطوى على رغبة لا واعية فى الزواج من چوكاستا، ذلك لأن فكرة سفاح المحارم ليست مقررة فى أى مكان من نص أوديب^(١٠).

والحديث عن سفاح المحارم عند أوديب سوفكليس أشبه بالحديث عن «المرحلة المصيبة» التى تشيع فى شعر نزار قباني مثلاً، وتتجلى ، على نحو ما تصوّر المرحوم فؤاد ديارة ذات مرة، فى إلحاح الإشارة إلى «النهود» و«الحلمات» والأعضاء الجنسية للمرأة. وذلك كله من قبيل التأويل الخارجى الذى لا يقع فى دائرة فهم النص أو تفسيره، لأنه تأويل يجاوز النص إلى خارجه، ويتباعد عن دائرة المبدأ الشارح عند لوسيان جولدمان لأنه لا يؤسس حقيقة التولد الاجتماعى للنص. وإذا أضفنا أننا لا نعرف إلا أقل القليل عن حياة الكاتب، وأننا نتعامل مع كتاب وليس مع حالات مرضية، أو أعراض كاشفة عن عقد نفسية مكتوبة، وأننا نتعامل مع نصوص وليس مع ما دون وعى المؤلفين،

وأنا نفتش أول ما نفتش عن البنية الداخلية للنص - إذا أضفنا ذلك كله، فإن الأغلبية الساحقة من الشروح النفسية تبدو «توليفات» ذكية لعلم نفس خيالي، ينهض على شواهد واهية من وجهة نظر جولدمان.

وحتى عندما تنجح الشروح النفسية، أحياناً، فإنها لا تغلح إلا في الإبانة عن بعض العناصر الجزئية من نص العمل الأدبي. وأي شرح لا يفسر سوى ٥٠٪ إلى ٦٠٪ من النص لا ينطوي على أهمية علمية فيما يقول جولدمان، وإنما يرتبط بالذكاء اللماح فحسب، ذلك لأن سلامة المبدأ الشارح ترتبط بقدرته على تبرير معظم إن لم يكن كل العناصر التكوينية للنص من ناحية، وقدرته على تكييف المتغيرات التي تبدو متعارضة للوهلة الأولى. ومن هنا، يجب على الناقد أن يتيقن مما يقول في كل الأحوال، فلا يفترض اهتبالاً أن هذا العمل الأدبي أو ذاك يؤسس بنية، بل يجب أن يصل إلى نمط أو نموذج، يتألف من عدد محدود من العناصر والعلاقات، يتمكن به هذا الناقد من تفسير المادة التجريبية التي يتكون منها العمل الأدبي أو تتألف منها الأعمال الأدبية.

وليس من الإفراط والأمر كذلك أن ننشد نموذجاً يفسر ثلاثة أرباع أو حتى أربعة أخماس النص، وإلا أسلمنا أنفسنا لتقلبات الفرضيات الهوجاء التي تطوح بالنص في كل اتجاه، وتجعله قابلاً لكل صورة، فيفقد النص بعده الوجودي (الأنطولوجي) أو حال وجوده المتعين في النهاية.

ومعنى هذا أن العمل الأدبي ليس تعبيراً مباشراً عن اللاوعى الفردى للكاتب، وأهم من ذلك أنه ليس تعبيراً مباشراً عن أى شئ يقطع ما بيننا وبينه من أواصر أدبية. ولا يؤدي ذلك إلى إلغاء ارتباط العمل الأدبي بشئ خارجي بالقطع، فالجذر المحرك للبنىوية التوليدية كلها هو الصلة التي تربط بين بنية العمل الأدبي وأبنية معينة من الوعى فى المجتمع، ولكن معناه أن الصلة بين داخل العمل وخارجه تقع على أساس بنيوى، أى على مستوى التماثل أو التجاوب بين الأبنية، الأمر الذى يفضى إلى إلغاء مفهوم المحاكاة الكامن فى وصل العمل الأدبي بالوعى الفردى، والانتقال بالعمل من مفهوم المرأة العاكسة إلى مفهوم البنية المؤسسة لدلالة موضوعية لها استقلالها الخاص.

ومن هذه الزاوية تعالج البنىوية مشكلة العلاقة بين «المقاصد الواعية» للأديب و«الدلالة الموضوعية» لأعماله، فتؤكد الدلالة الموضوعية بوصفها الغاية الأساسية التى يسعى إليها الناقد. ولكنها لا تتطرق فتلقى المقاصد الواعية كما فعلت مدرسة النقد الجديد New Criticism فى الولايات المتحدة الأمريكية^(١١)، كما لا تتطرق فتبالغ فى تأكيد هذه المقاصد، كما يفعل بعض دارسى التأويل (الهرميوطيقا) المعاصرين فى نوع من رد الفعل المضاد لتطرف النقد الجديد^(١٢)، وإنما تعالج البنىوية التوليدية هذه المقاصد من منظورها الخاص الذى يلج على الدلالة الموضوعية للعمل الأدبي من حيث هو بنية معبرة (على مستوى التولد البنيوى) عن رؤية العالم.

ولذلك يؤكد جولدمان وجود فاصل واضح بين المقاصد الواعية للمؤلف -أى أفكاره الفلسفية، أو السياسية، أو الأدبية - والطريقة التى يشعر بها أو يرى العالم الذى يخلقه. ويؤكد أن انتصار المقاصد الواعية إنما هو تدمير للعمل الأدبى الذى تعتمد قيمته الجمالية على مدى تعبيره-رغم المقاصد الواعية للكاتب، بل عكسها فى كثير من الأحيان- عن الطريقة التى يشعر بها الكاتب أو يرى بها شخصياته. والأمثلة المشهورة على ذلك، عند جولدمان، تردنا إلى بلزاك ودانتى وجوته، وهى تذكرنا بتميز لوكاش الشهير بين الوعى الإيديولوجى والإدراك الجمالى. وهو تمييز يقود -على مستوى التفسير- إلى التحليل الأدبى المتأصل للدلالة الموضوعية للعمل على مستوى العلاقات الأدبية لبنيته، مثلما يقود -على مستوى الشرح- إلى الكشف عن التوازى الدال بين هذه العلاقات الداخلية وعلاقات البنية الأشمل التى يتولد منها العمل. ومن هذا المنظور، يقول جولدمان إن العمل الأدبى له وظيفة دالة عند صاحبه بالتأكيد، ولكن هذه الوظيفة لا تتصل اتصالا مباشرا بالبنية التى تحكم العمل، فما أكثر ما تتعارض معها. والحل الأمثل لتجاوز خطر هذا التعارض هو عدم الإلغاء التام للمقاصد الواعية للكاتب، والتعامل معها فى الوقت نفسه بوصفها جانبا من جوانب كثيرة يمكن أن تساعد فى الشرح. ومن هنا، يصبح شأن المقاصد الواعية شأن أى عمل نقدى آخر يمكن أن يفيد منه الناقد، شريطة أن يؤسس تفسيره الخاص معتمدا على النص الأدبى وحده من غير أن يمنح المقاصد الواعية

أية قيمة متميزة.

ولو عكس الناقد الأمر وتجاهل المقاصد الواعية تماما فإنه قد يحرم نفسه من معطيات تجريبية، يمكن أن تعينه فى الشرح ولو بطرائق غير مباشرة. ولو تحيز الناقد لهذه المقاصد فإنه يحيل النقد الأدبى إلى نوع آخر من التراجع والسير. وتتجلى خطورة الوضع الأخير فى فرض مبدأ خارجى مغاير للعمل الأدبى، لن ينتج عن فرضه سوى تدمير التلاحم الداخلى لبنية العمل الأدبى نفسها. وإزاء هذا الوضع الخطر تؤكد البنيوية التوليدية أن «السيرة» ليست عنصرا فى شرح العمل الأدبى، كما أن المعرفة بمقاصد الأديب الواعية ليست عنصرا أساسيا فى فهم أعماله الأدبية، ذلك لأنه كلما زادت أهمية الأعمال الأدبية زاد استقلال وجودها الخاص، ومن ثم قدرتها على أن تسلم نفسها إلى الشرح ذاتيا بواسطة تحليل وعى الطبقات الاجتماعية المختلفة.

هل يعنى هذا كله إلغاء الوظيفة الفردية ونفيها فى الإبداع الأدبى؟ بالطبع لا. وإنما يعنى تأكيد أن هذه الوظيفة وظيفية جدلية مثل غيرها من الحقائق، يجب أن نبذل أقصى الجهد لى نفهمها. ولا يحلم أحد بقطع الصلة بين المنتجات الأدبية وأصحابها فيما يقول جولدمان، ولكن يظل لهذه الأعمال منطقها الخاص، فلا تصبح مجرد استجابة شرطية أو مجرد تدفق ألى. إن هناك تلاحما داخليا فى بنية الجُماع الشامل من علاقات الكائنات والأحداث الحية فى الأعمال الأدبية، وبقدر ما يشكل

هذا التلاحم العلائقى كليات هذه الأعمال فيما يقول جولدمان، فإنه يؤكد ضرورة فهم عناصرها من حيث علاقة كل منها بالآخر، وعلاقتها جميعا بغيرها:

ولذلك فإنه كلما زادت عظمة العمل الأدبى زاد طابعه الشخصى، لأن مثل هذا العمل لن يتاح إلا لشخصية غنية قوية، قادرة على أن تفكر فى كل جوانب رؤية العالم وتعيش فيها. وإذا كانت رؤية العالم تظل فى حالة صنع دائم، فإنها تبرز بشق الأنفس فى وعى المجموعة الاجتماعية، وتحتاج إلى الكاتب العبقرى النابه الذى يصوغها ويكشفها للوعى. وكلما كان العمل أكثر تعبيراً عن كاتب عبقرى كان أكثر قابلية للإفهام الذاتى، ومن غير أن يحتاج إشارة إلى سيرة مبدعه أو مقاصده الواعية^(١٢).

اختلاف البنيوية التوليدية

إذا كان الخلاف بين البنيوية التوليدية والتحليل النفسى يرجع إلى طبيعة الذات الفاعلة للبنية، واختزالها فى التحليل النفسى إلى ذات فردية تقع على مستوى «الليبدو» فى لاوعى الفرد، فإن الخلاف بين البنيوية التوليدية واتجاهات البنيوية الشكلية المعاصرة يرجع إلى أن هذه الاتجاهات الأخيرة تلغى هذه الذات، وتحل محلها نسقا مجردا متعاليا بلا «ذات» إلى درجة تصبح معها البنية نظاما شكليا منغلقا على نفسه، نظاما ينطوى على تحولات داخلية لا تخضع لأى شئ سوى هذا النظام، ولا تتصل بأى شئ خارجه.

وما دامت البنيوية التوليدية تؤكد الأهمية الأساسية للأبنية فى فهم التاريخ فإنها لابد أن تتولى الدفاع الحار عن وجود الذات الفردية غير منفصلة عن وجود الذات المجاوزة للفرد، على أساس أن الأخيرة هى العنصر الفعال فى البنية والفاعل الذى يحدد وظيفتها. ومن هنا، فإن البنيوية التوليدية، من حيث هى منهج، تؤكد أن البنية ليست كيانا منغلقا يسجن الإنسان أو يستبعده من التاريخ، ليحل محله شكلانية مطلقة بلا مضمون أو معنى أو وظيفة أو ذات، بل يؤكد المنهج البنية بوصفها خاصية مميزة لنشاط من الفاعلية الخلاقة التى تصنع النسق وتخلق الأنظمة فى حركتها التاريخية، أى فى ممارساتها الدالة. ولذلك لايفك جولدمان عن تذكيرنا بأن علينا أن ندرك أن لكل بنية

دلالة، وأن هذه الدلالة نتاج ذات فاعلة ومحقة لوظيفة، فإذا حذفنا الذات واستبعدنا الوظيفة دمرنا دلالة البنية، وحولناها إلى مجرد نسق جبرى مغلق.

ولا يكتفى جولدمان بذلك بل يصب هجومه على البنيوية الشكلية أو البنيويات اللغوية على نحو ما مثلها كلود ليفي شتراوس فى الإثنولوجيا ولاكان فى التحليل النفسى ورولان بارت فى النقد الأدبى^(١٤). والجذر الخلافى بين بنيوية جولدمان التوليدية وهذه البنيويات يتمثل فى أنها تلغى فاعلية الذات فتلغى التاريخ، وتتجاهل الوظيفة فتدمر الدلالة. ولذلك يصف ليفي شتراوس بأنه «يمثل نسقا شكليا يهدف إلى الاستبعاد التام لآى اهتمام بالتاريخ أو بمشكلة المعنى».

وما يقدمه جولدمان فى مواجهة شكلية البنيوية عند ليفي شتراوس هو توليدية البنية، الأمر الذى يعنى ربطها الدائم بذات ووظيفة دالة فى التاريخ وليس خارجه. ويلج جولدمان فى هذا الإطار على أن الإبداع الأدبى جانب من جوانب السلوك الإنسانى. قد يكون جانبا متميزا. لكنه يظل جانبا ينطوى على الطبيعة نفسها التى تحكم غيره من الجوانب، فيظل خاضعا إلى القوانين نفسها. وينطوى هذا المبدأ العام على التسليم بوجود خاصية شاملة تؤكد أن السلوك الإنسانى لايمكن أن يكون سلوكا إلا إذا كان دالا، أو يسعى إلى أن يكون دالا، ذلك لأن الإنسان، عندما يقوم بأى فعل من الأفعال، يواجه موقفا ينطوى على أداء مهمة، أو ينطوى على مشكلة تتطلب حلا. ولذلك لاتنفصل محاولة

الإنسان، فى تغييره العالم بسلوكه فيه وإزاءه، عن استجابة دالة إلى المشكلة التى تواجه هذا الإنسان. يضاف إلى ذلك أن الإنسان يميل، بغض النظر عن نجاحه فى ذلك، إلى أن يصلح بين استجابات مختلفة، يضطر إلى أن يقدمها فى مواجهة المشاكل المختلفة التى تواجهه. أعنى بذلك أن كل البشر يميلون إلى أن يشكلوا بنية متلاحمة دالة لأفكارهم ومشاعرهم وسلوكهم. ومن هذه الزاوية، فإن النشاط الثقافى بأشكاله المختلفة - دينية، فلسفية، فنية، أدبية - يؤسس نوعاً معيناً من السلوك، من حيث إنه يحقق، فى كل مجال من مجالاته، بنية متلاحمة دالة^(١٥).

وإذا كان السلوك الإنسانى محاولات مستمرة، تتمثل فى استجابات دالة على مواقف، فإن هذا السلوك يهدف إلى خلق توازن بين ذات الحدث أو فاعله والموضوع الذى يؤثر فيه. ولكن هذا التوازن ذو طابع مؤقت فحسب، لأنه يرتبط بموقف يقوم فيه السلوك الإنسانى بتحويل العالم، على نحو يكشف فيه التحول عن عدم ملاءمة توازن سابق، فيولد اتجاهها إلى توازن جديد، يتم تجاوزه هو الآخر، بموقف مغاير ومحاولة مغايرة. ومن هنا، يصبح الواقع الإنسانى منطقياً على عمليات مزدوجة الجانب، تتمثل فى هدم توازنات (أبنية) قديمة، وبناء كليات جديدة تعين على خلق توازنات قادرة على تحقيق المطالب الجديدة للمجموعات الاجتماعية^(١٦).

وإذا كان هذا الفهم للسلوك الإنسانى يعنى تحديد البنية من حيث هى وظيفة، ترتبط بمجاوزة التعارض فى الموقف

السلوكي، فإنه يؤكد أن البنية ليس لها ثبات مطلق، وأنها تتغير بتغير نسق الشرط المرتبط بالموقف المتعارض المؤدى إليها. وإذا حولنا هذا التحديد إلى الأعمال الأدبية، قلنا: إن الأعمال الأدبية أبنية مشروطة بالموقف المتعارض الذي أدى إليها، وإنها ليست أبنية متعالية تفهم خارج وظيفة، أو خارج الموقف، وإنما هي أبنية مرتبطة بوظيفة ونابعة من موقف، ومن ثم لابد أن تتغير إذا تغير الموقف وتطلب أداءً جديداً لوظائف.

وما دما قد أكدنا الموقف على هذا النحو، وأكدنا الوظيفة، فقد أكدنا الذات الفاعلة في البنية، وأثبتنا المجتمع والتاريخ. وأهم من ذلك أن هذا الفهم لابد أن يؤكد الطابع الجدلي لتحولات البنية، بحيث لا ترد هذه التحولات إلى قوانين منغلقة في نسق مستقل بنفسه وكامل في ذاته، بل ترتبط التحولات بالاستجابات المختلفة للذات التي تواجه موضوعها.

وربما كانت كلمة «بنية» كلمة مراوغة في هذا السياق فيما يقول جولدمان، لأنها تنطوي على إيحاء بالسكون، ولكن هذه المراوغة تختفي عندما نربط بين الأبنية والاتجاهات السلوكية. ونحدد الأخيرة من حيث خصائصها التكاملية التي تنطوي على عمليات هدم وبناء. ومن هنا، يمكن النظر إلى الأعمال الأدبية على مستوى تعاقبي (دياكروني) من حيث هي عمليات بنيوية تنطوي على هدم لأبنية قديمة، وتأسيس لأبنية جديدة. ونضع في هذا المستوى مجموعتين من العوامل التي تحدث التحول في الأبنية: أولاهما داخلية، ولكنها لا تفهم إلا من حيث هي استجابة

لمجموعة أخرى من العوامل الخارجية. وعندما نفهم الجدل بين المجموعتين، ومن ثم لا نفصل بينهما، نفهم المنطق الداخلى لبنية الأعمال الأدبية، ومن ثم نفهم تحولاتها التى تتحدد فى ضوء قانون آخر عن الانتقال من الكم إلى الكيف. ولكنه قانون معدل فى هذا السياق، يرادف التحول من استجابات بنىوية قديمة إلى استجابات بنىوية جديدة مختلفة التوجه.

وإذا عدنا إلى المبدأ الأساسى، وهو أن الإبداع الأدبى جانب من السلوك الإنسانى يخضع للقوانين نفسها، من حيث ما ينطوى عليه من محاولة لخلق التوازن، فإن هذا المبدأ يقودنا إلى تأكيد الذات الفاعلة مرة أخرى، وأهم من ذلك يقودنا إلى فهم الذات الفاعلة بوصفها ذاتاً مرتبطة بمجموعة اجتماعية أو طبقة. وعندئذ نواجه مبدأ جديداً، يلزم عن المبدأ الأساسى، مؤداه أن العلاقات بين العمل الأدبى والمجموعة الاجتماعية تنطوى على نظام العلاقات نفسه. وإذا صح هذا المبدأ اللازم، وهو صحيح عند جولدمان، فلا يمكن دراسة العمل إلا بتحديد علاقته بالمجموعة الاجتماعية التى يؤدى لها العمل وظيفته دالة، أى أن علينا تحديد نظام العلاقات بين المجموعة الاجتماعية والعمل الأدبى. وفى الوقت نفسه، تحديد العلاقات بين العناصر المكونة للعمل والعمل ككل. وهكذا نصبح مطالبين بالقيام بعملية مزدوجة على مستوى الإجراءات التطبيقية. محورها الأول هو الفهم أو التفسير من منظور علاقة الأجزاء بالكل فى العمل الأدبى، ومحورها الثانى هو الشرح من منظور تماثل أو تجاوب هذه

العلاقة بين الكل والأجزاء مع العلاقة بين الأعمال والمجموعة الاجتماعية أو الطبقة.

وإذا عدنا، مرة أخرى، إلى راسين الذى درسه جولدمان وقارنا بين دراسته ودراسة رولان بارت، وهو بنيوى شكلى، إن لم يكن أهم البنيويين الشكليين قاطبة فى مرحلته البنيوية التى هجرها بعد أحداث ١٩٦٨ فى فرنسا، أمكن لنا أن نلمح الفرق بين توجه البنيوية التوليدية والبنيوية الشكلية فى دراسة نص أدبى واحد، وليكن مسرحية «فيدرا»^(١٧).

لقد تحدث رولان بارت، فى كتابه «عن راسين» (١٩٦٣) عن اتجاه جولدمان فى النقد، على أساس أنه اتجاه ينظر إلى العمل الأدبى بوصفه «علامة» على شئ يجاوزه، وذلك على نحو يتجه معه هذا النقد إلى فض الشفرة الأدبية للعمل باستمرار، وينظر إلى «العمل-العلامة» من حيث هو «دال» ينطوى على «مدلول» لا بد من كشفه بطريقة تؤسس «دلالة» هذا العمل. ويقول بارت إن لوسيان جولدمان قدم أرقى نظرية لما يسميه «نقد الدلالة» فى مستواها التاريخى، حيث يتوجه مركز الاهتمام فى نقده إلى «فتح» العمل، من حيث هو دال لمدلول وليس من حيث هو علة لمدلول. ولكن بارت يرى أن هذا النقد يظل نقداً «غير برىء» لأنه ينطوى على إسقاط للموقف السياسى لجولدمان، كما ينطوى على التسليم بمبدأ المحاكاة، إذ ينظر جولدمان إلى العمل بوصفه محاكاة لنموذج مستقل عنه أو تعبير عنه. والنتيجة هى تحول العلاقة بين العمل والنموذج المستقل إلى علاقة تماثل

فحسب، ذلك كله رغم تركيز جولدلمان الواضح على تعدد المستويات بين العمل الأدبي والنموذج المستقل. ومع ذلك ينتهى جولدمان -فيما يقول بارت- «إلى الإذعان لمبدأ المماثلة، فينتهى بسكال وراسين إلى مجموعة سياسية محبطة، رؤيتها للعالم إعادة إنتاج لهذا الإحباط، كما لو كان الكاتب لا يملك أية قدرة أخرى سوى نسخ ذاته حرفياً»^(١٨).

ومن هذه الزاوية، يلج رولان بارت عالم فيدرا معلناً أن العمل الأدبي لا يسلم نفسه إلى الدرس الموضوعى إلا على أساس من نظامه الداخلى، وأن هذا النظام شركة ما بين العمل والناقد فليس هناك قراءة بريئة للأدب. وإذا كان الوضع الخاص للأدب ينطوى على مفارقة لافتة ما ظل الأدب جماعاً من الموضوعات والقواعد والتقنيات والأعمال، وما ظلت وظيفته، تحديداً، تأسيس موضوعية ذاتية، فإن النقد نفسه ينطوى على هذه المفارقة. وإذن، فلا مفر للناقد من تقبل المراهنة الخطرة، ومن ثم الحديث عن راسين وعدم الحديث عنه فى الوقت نفسه. وما دام الناقد ينتمى إلى الأدب فإن أول قاعدة موضوعية له هى الكشف عن نظامه الخاص فى القراءة وإعلان عدم حياده منذ البداية.

ومن السهل أن نلاحظ ما يكمن وراء هذه المبادئ التى يطرحها بارت: لقد تراجع البعد التاريخى لمسرح راسين وتقهقر إلى المؤخرة، واختفت الذات الفاعلة فى النص لتحل محلها ذات الناقد بدعوى استحالة القراءة البريئة، وتحولت فيدرا إلى نظام

من الدلالات المجاوزة للزمان، واختفت الوظيفة الدالة من حيث علاقة العمل برؤية العالم. ولذلك نواجه نظاما مغلقا من الدلالات يقع ما بين الناقد والعمل، وليس نظاما متولدا ما بين النص والمجموعة الاجتماعية التي أنتجته. وما دامت الكتابة فعلا لازما بالمعنى النحوى فليس أمامنا سوى نظامها المنغلق كالسجن، حيث ترتبط بنية مسرح راسين بجغرافية الأمكنة الداخلية فى المسرحيات، فنواجه العلاقات المكانية بين الغرفة والمدخل والخارج، تلك العلاقات التى توازى حركة البطل المسجون الذى لا يستطيع الخروج دون موت، ثم نواجه صيغ العلاقات الإنسانية، على مستوى الاشتهااء والسيطرة، مما ينتج الاغتراب على مستويات متعددة لتعارضات ثنائية لا تحل، فنواجه انشطار عالم راسين إلى طرفين متعارضين.

وعندما يتقلص عالم راسين فى هذه العلاقات الثنائية، تصبح بنية فيدرا قائمة على الانتقال بكيونة الكلام ذاتها إلى المسرح، فى فعل ينطوى على المجازفة المأساوية فى تجلى الكلام أكثر مما فى معناه، وفى اعتراف فيدرا أكثر مما فى حبها. وكأن فيدرا هى تراجيديا الكلام المسجون والحياة المحجوزة. وكأن مأساتها لاترتبط بذنبها عندما أحبت هيبوليت، بل فى صراعها للصمت عن هذا الذنب. إن تلفظها به أمام إينون وهيبوليت وتيزيه يقربها من الحرية، ويمثل درجات فى الاقتراب من حالة الكلام الأكثر صفاء. وإذا كان بوحها لإينون بوحاً نرجسيا تحل فيه عقدة الكلام نفسها بنفسها، لأن إينون فى مقام الأم منها، وهى

الوجه الآخر لفيدرا، فإن بوحها أمام هيبوليت يمثل لعبة مسرحية لأداء حبها، أما بوحها أمام الزوج تيزيه فهو الذروة التي يتم فيها الاعتراف أمام الشخص الذي أسس الخطيئة بوجوده ذاته.

ولست بقية الشخصيات سوى صورة أخرى للبنية نفسها المنطوية على التعارض الثنائي بين الكلام والصمت. ولكن تتميز فيدرا بحدة ترجحها بين النقيضين اللذين ينعكسان في المكان، فتتمزق فيدرا، مرة أخرى، بين الكهف والشمس، ولاعجب فأبوها مينوس الذي ينتمى إلى نظام الكهف العميق المعتم، وأمها باسيفا التي تنحدر من الشمس. وإذا كانت فيدرا تدفن سرها، كي تعود إلى الكهف والحياة المحجوزة، فإن قوة أخرى تدفعها إلى إعلان السر والخروج من الكهف والبقاء تحت الشمس.

هكذا، تقوم بنية فيدرا على نسق ثلاثي من العلاقات بين تعارضات ثنائية. هناك التعارض المكاني بين الكهف (الحجرة) والشمس (الخارج). والتعارض الإنساني في الحب بين الإذعان والسيطرة، حيث يمارس الطرف الأول السيطرة على الطرف الثاني، أو يحب الطرف الأول الطرف الثاني الذي لا يبادله الحب. أما التعارض الأخير فبين الفعل الذي يرادف الكلام والصمت الذي يعنى انتقاء الفعل. وتتجاوب هذه العلاقات في مستوى آخر ليتم إسقاط محور التضام على محور الاختيار، لو استخدمنا مصطلحات عالم اللغة البنيوي رومان ياكوبسن (١٨٩٦-١٩٨٢) الذي تعلم منه رولان بارت الأسس اللغوية للمنهج، فينعكس التعارض المكاني على التعارض الإنساني،

وتتحول ثنائية اللغة - الكلام إلى مجلى لتعارضات أخرى،
وتصبح فيدرا نسقا منفلقا على نفسه فى النهاية، أو فعلا لازما لا
يتعدى إلى أى مفعول خارج نطاقه الذاتى.

وأحسب أن هذه القراءة التى قدمها رولان بارت لفيدرا،
وهى قراءة لامعة ما فى ذلك شك، تبدو قراءة شكلية من وجهة
نظر جولدمان، بل قراءة تكشف عن ذاتية الناقد الذى يلغى
الدلالة الموضوعية للعمل، خصوصا عندما يعزل بنيته عن الذات
والتحول والوظيفية. لقد قام جولدمان بتحليل مسرح راسين، قبل
بارت، ولكنه تعامل مع هذا المسرح، على نحو ما أوضحت، من
حيث هو مجموعة من الأبنية الأدبية التى تتجاوب مع أبنية أخرى
فلسفية فى كتابات بسكال، وعلى نحو تتجاوب معه كلتا
المجموعتين من الأبنية فى رؤية مأساوية للعالم. ومن هذا المنظور
تحدد دلالة فيدرا عند جولدمان، ويتكشف التماثل فى العلاقة
بين أجزائها والعلاقة بين مكونات رؤية عالم بعينها.

ولذلك أصبحت فيدرا صياغة متلاحمة عمادها الوهم الذى
يكابده البطل المأساوى (= فيدرا) عندما يتصور إمكان الحياة فى
العالم دون تنازل أو اختيار، وعندما يتوهم إمكان الحوار مع
العالم. وفيدرا، أقرب مسرحيات راسين إلى الرؤية التى تكشف
عنها «الأفكار» لبسكال من هذه الناحية. وهذا يعنى أن المفتاح
إلى «فيدرا» - ومن ثم إلى «الأفكار» - يكمن فى تقرير المفارقة
التي تنطوى عليها القيمة الإنسانية، تلك القيمة التى تتصل
بالنحى الخلقى فى مأسى راسين ومجال الأخلاق والنظرية

المعرفية العامة في «الأفكار». والنتيجة هي ما تواجهنا به المسرحية من ثلاثة أنواع من الشخصيات، تمثل ثلاثة أنواع من الحقيقة والقيم، من منظور الفهم الذي يفضى إلى الشرح:

(أ) هناك الآلهة (الشمس، فينوس) وهي كائنات مشاهدة، صامتة، محايدة، لا تقدم أى عون إلى البطل التراجيى (فيدرا) الذى يؤسس ضميره الأخلاقى على وجودها. ولا تكتفى الآلهة بالمشاهدة المحايدة بل تترك البطل بمطالبها المتعارضة، فها هي «الشمس» تمنع «فيدرا» من التفریط فى طهارتها، بينما «فينوس» تدفعها إلى الإبقاء على حبها، دون أن تقدم كلتاها - الشمس أو فينوس - أى عون للبطل الذى يكابد - وحده - محاولة التوفيق بين المطالب المتعارضة، إذ عليه - وحده - أن يواجه المقدور غير المفهوم، وأن يختار بين الوهم الذى لا تفارقه المعصية فى البقاء على العالم أو الموت الذى يعنى الانسحاب من العالم. وليس من عادة السماء - فيما يقول «تيرامين» رسول الحقيقة فى المسرحية:

أن تتدخل فى أمورنا،

عندما تحين الساعة.

(ب) وهناك العالم الذى تمثله شخصيات هيوليت وتيزيه وأريسيا وإينون. وهو عالم زائف لا ينطوى على حقيقة أو قيمة. وما يؤدى إليه هو أنه يتيح سبيل الخطأ أمام البطل فيدفعه إلى اكتشاف الحقيقة.

(ج) وبين هذين النقيضين -الصامتين، غير القابلين للحوار- تقع فيدرا التي تمثل الإنسان الجنسينى بأجلى معانيه فى المسرحية. وتنبع مأساتها من استحالة التوفيق بينها وبين العالم من ناحية، وبين المطالب المتعارضة للآلهة من ناحية أخرى.

ويعنى ذلك أن جوهر الصراع فى المسرحية يتمثل فى الحوار بين فيدرا والآلهة الصامتة من ناحية، وبينها والعالم من ناحية ثانية. كأنها تعيش باحثة عن تكامل لا وجود له، ما ظل تكاملها يقوم على وحدة قيم متعارضة تماما فى العالم الذى تحاوره، وما تسعى إليه، وما تظن أنها تحققه، هو الوحدة بين عواطفها وسمعتها الشخصية، وبين النقاء الكامل والحب المحرم، وبين الحقيقة والحياة. ولكن هذه الوحدة مستحيلة لأن فيدرا لا تقابل فى العالم الفعلى الذى تؤمن -وهماً منها- بنقائه سوى رجال عاديين، ترعبهم مطالبها المهولة التى تربك نظامهم الذى تقبلوه من غير أن يفكروا فى حقيقته، فلا يكون لهيبوليت سوى رد فعل واحد- طوال المسرحية- وهو الرغبة فى الفرار من شخصية فيدرا التى تجمع بين أكثر العناصر تناقضاً، تجمع بين الجحيم والنعيم والعدالة والخطيئة. وهو يصرح بذلك عندما يعلن:

تلك الأيام السعيدة انتهت، وكل شىء تغير وجهه،

منذ أرسلت أثينا ابنة مينوس وباسيفاء،

إلى هذه الشواطئ .

ويقدم الوصف الذى ينطوى عليه البيت - «ابنة مينوس وباسيفا» - نموذجاً مصغراً للتعارض الذى تنطوى عليه فيدرا نفسها، فأبوها مينوس ينتمى إلى الجحيم، فهو قاضى الخطأ فيه، وأمها باسيفا تنتمى إلى السموات، وفيدرا تجمع بينهما فتجمع بين طرفين متعارضين وتضارب لا يحل. ويكشف البيت عن التعارض الدلالى على مستوى التعارض الصوتى بين الاسمين. ومن هنا يفشل حوارها مع العالم وحوارها مع الآلهة، فتصبح الحياة، فى نظرها، هى الخطأ العظيم والجريمة الكبيرة. لقد كانت على صواب عندما قررت أن تترك الشمس والأرض وراءها. وإذا كان يمكن للآخرين أن يعيشوا تحت أعين الآلهة الخفية، فإن «فيدرا» لا يمكن أن تعيش تحت هذه الأعين. وهى تحس بهذا منذ البداية، عندما تتحدث إلى الشمس التى تراها للمرة الأخيرة. ومن هنا، فإن الزمن يدور فى المسرحية فلا يتجه فى خط أفقى أو خط صاعد، بل يستدير كالدائرة لنعود إلى نقطة البدء، فالنهاية معروفة منذ البداية، والشمس اللامبالية ستظل كما هى، تشرق صامتة على عالم يفقد معناه تحت أشعتها. ولن يعرف أحد ما إذا كانت فيدرا ستعود إلى مينوس أبوها فى الجحيم، أو إلى باسيفا أمها فى السموات العلى. وتختتم المسرحية بكلمات الملك تيزيه (المخطئ دائماً). ويعود كل شئ كما كان. يستمر العالم وتستمر الآلهة فى المشاهدة والمراقبة دونما عون، وليس للإنسان سوى أن يقبل ما قدر عليه.

هكذا، تصبح «فيدرا» تراجيديا الأمل المحبط، وتصوغ

رؤية مأساوية عن عالم يقودنا إلى بنية أخرى أكثر شمولاً في وعى الطبقة أو المجموعة الاجتماعية التي عبّر عنها راسين في القرن السابع عشر. ونعود -مرة أخرى- فنغادر العمل إلى خارجه. ولاعجب في ذلك. فقد قلت إن منهج جولدمان خارجي داخلي، ومن خلال التفسير والشرح يتحرك صاعداً من الأبنية المتلاحمة للأعمال الأدبية عند راسين ليقارنها بأبنية بسكال، ليكشف عن رؤية العالم، ليصعد منها إلى الوعي الطبقي (الجنسية) ومنها إلى الطبقة الاجتماعية (النبالة الشرعية/ نبالة الرداء) ثم يهبط المنهج -مرة أخرى- إلى العمل الأدبي ليناقش أدق ما فيه، إلى أن يصل إلى التعارض الصوتي في «ابنة مينوس وباسيفا»، وينقلنا إلى التعارض بين انغلاق الصوت في «مينوس» وانفتاح مداه في «باسيفا»، وكل ذلك في حركة لا تتوقف في الكشف عن علاقات التولد في الأبنية الصغرى والأبنية الكبرى والعلاقات الوظيفية التي تصل ما بين الجميع.

تري ما الخلاف بين قراءة بارت وجولدمان للمسرحية نفسها؟ إن كلتا القراءتين تبدأ من نقطة واحدة هي البحث عن النسق أو النظام أو البنية التي تصنع للعمل الأدبي تجانسا شاملا. ولكن الخلاف ينبع من مفهوم البنية التي يفهمها جولدمان فهما تاريخيا يصلها بالذات والتحول والوظيفية، فيصل ما بينها ومشكل بعينه يتطلب حلا عند مجموعة اجتماعية محددة. والبنية التي يفهمها بارت فهما أنيا، يجاوز تاريخ التولد ويلغى ذاته الفاعلة، فتصبح البنية إسقاطا لنموذج ذهني قد يكون قارا في

وعى الناقد قبل أن يكون قارئاً فى العمل نفسه. وكأن جولدمان وبارت، فى الحقيقة، يبحثان عن شيئين مختلفين فى فيدرا. أما بارت، ولا أشك فى أنه أفاد من تفسير جولدمان، فيبحث عن حالة سكونية يثبت فيها النص، منقطعاً به عن تاريخ تولده، بينما يبحث جولدمان فى النص عن التلاحم الداخلى الذى يربط بين الأجزاء والكل، من حيث تحقيقه وظيفته على مستوى العلاقة بين النص والمجموعة الاجتماعية التى تولد النص من رؤيتها المأساوية إلى العالم.

ويمتد الخلاف بين المنهجين من مفهوم البنية إلى الإجابة عن السؤال المهم المرتبط بمعنى العمل الأدبى نفسه، إذ يصبح المعنى عند بارت قرين فاعلية «ذات» الناقد التى تسيطر على موضوعها وتخضعه إلى رقية سحرها، فتتحدث عن النص الموضوع ولا تتحدث عنه فى الوقت نفسه، وتحاول الوصول إلى موضوعية ذاتية، لاتنفصل عن ذلك الشعار الخلاب الذى يقول: لا توجد قراءة بريئة. أما المعنى عند جولدمان فيصبح قرين محاولة تحقيق وحدة الذات والموضوع، مرتبطاً بالبحث عن دلالة موضوعية تتجلى على مستوى التفسير والشرح. وإذا انغلق معنى النص فى حالة بارت، وانتفى الشرح، فإن المعنى ينفتح فى حالة جولدمان- لتقودنا البنية من داخلها إلى تولدها. وإذا كان بارت يؤكد اللزوم الدلالى قياساً على اللزوم النحوى لهذه البنية، من حيث هى البدء والمعاد اللذان لا يفصل بينهما شئ، واللذان يتحولان إلى شئ واحد، فإن جولدمان يؤكد أن بنية العمل الأدبى

تمثل نقطة البدء ونقطة المعاد، ولكن تقع بينهما الوظيفة، التي لا تتجلى إلا على مستوى التولد. ولذلك يظل جولدمان مخلصا للمبدأ الأثير الذى يقول «إن كل ظاهرة إنسانية بنية، من حيث إنها توجد داخل ظاهرة أكبر، فى علاقة لا يمكن فهمها إلا بوصفها علاقة وظيفية».

وإذا كان الإلحاح الحاد على وظيفية البنية أو على تولدها هو الذى يميز ما بين البنيوية التوليدية والبنيوية الشكلية، فلا شك أن الإلحاح على «البنية» هو الذى يميز منهج جولدمان ويرتقى به عن المناهج الاجتماعية التقليدية فى دراسة الأدب. لقد طرحت البنيوية التوليدية مفاهيم جذرية غيرت من وجه الدراسات الاجتماعية التقليدية للأدب فيما يقول جولدمان، يعنى بالمناهج الاجتماعية التقليدية ما يشبه الموجود إلى الآن فى النقد العربى من موازنات سطحية، آلية، بين بعض مضامين الأعمال الأدبية وبعض الخصائص السطحية لما يسمى الطبقات الاجتماعية.

لقد قضت البنيوية التوليدية، أو كادت، على خرافة «الانعكاس» للواقع الاجتماعى، وأكدت القيمة الجمالية للأعمال الأدبية، فلم تر فيها وثائق اجتماعية، تحاسب على أساسها ذمم الكتاب أو ضمائهم. ولم تفر من مواجهة الطبيعة التخيلية للأعمال الأدبية بل جعلتها ملمحا مميزا لكل عمل أدبى أصيل. وحاولت أن تقدم نموذجا تصوريا وإجرائيا لدراسة التحولات الإبداعية التى تباعد ما بين العمل الأدبى والواقع الاجتماعى الذى يتصل به، وقدرت وجود تواسطات وتعقيدات لا يتجاهلها إلا

ساذج أو جاهل بطبيعة العمل الأدبي. ولذلك أكد جولدمان البنية الأدبية من حيث هي نقطة الانطلاق، وألح على أن البنية الواحدة يمكن أن تتحول إلى محتويات بالغة التباين والتنوع، ومع ذلك لاتفارق طابعها البنائي. وإذا كانت رؤية العالم نفسها تؤدي وظيفة فإنها تؤديها على أكثر من مستوى يجعلها تتجلى على أكثر من محور. ومهمة المحور هي البحث عن البنية القارة وراء محتويات متباينة من هذه الزاوية، وعبر مستويات متعددة ومحاور معقدة. وعندما وضعت البنيوية التوليدية هذا الهدف نصب أعينها أكدت وحدة العمل الأدبي وبرهنت على فاعليتها إزاء الأعمال الأكثر تلاحما.

ومن الطبيعي أن يوجه جولدمان هجومه الحاد على المناهج الاجتماعية التقليدية في دراسة الأدب، ذلك لأن علماء الاجتماع الأدبي الوضعيين حاولوا، ولا يزالون، أن يصلوا ما بين محتوى الوعي الجماعي ومحتوى الأعمال الأدبية، الأمر الذي أدى بهم إلى إضاعة الحقيقة الأدبية للأدب، خصوصا عندما بحثوا فيه «عن انعكاس لوعي جماعي أكثر مما بحثوا عن خلق أبنية»^(١٩). وكانت نتيجة تناول الأدب على هذا النحو تفتت الأعمال الأدبية، وتحولها إلى مرايا عاكسة للواقع، على نحو أحال محتوياتها إلى وثائق اجتماعية لا أدبية. ولذلك لم تنجح هذه المناهج إلا مع الأعمال الرديئة التي «ينسخ» أصحابها الواقع. أما الأعمال الأدبية الحقة فكان مصيرها التشويه الكامل.

من المؤكد أن الكاتب لا يعكس الوعي الجماعي عند

جولدمان، وإنما تطور تلاهما بنيويا لم يصل إليه الوعي الجماعي نفسه إلا بطريقة خشنة. ولذلك فإن العمل الأدبي، وإن أسس إنجازاً جمعياً خلال وعى مبدعه، يكشف للجماعة عن ما يتحرك فى أفكارها ومشاعرها وسلوكها دون أن تعرفه. ولا يمكن أن يحقق العمل خاصيته هذه إلا بتلاحم بنيته ووحدتها، كما أن بنيته لن تحقق وظيفتها إلا بوحدتها وتلاحمها. ومن هذه الزاوية لا يبدو العمل الأدبي انعكاساً لواقع اجتماعى من منظور البنيوية التوليدية وإنما صياغة متلاحمة لمطامح هذا الواقع، بحيث يصبح تعبيراً عن رؤية متجانسة لا يصل إليها أفراد المجموعة إلا فى حالات استثنائية. لذلك يقول جولدمان:

إن الكاتب العظيم (أو الفنان) هو، تحديداً، الفرد الاستثنائى الذى ينجح فى أن يخلق، فى مجال معين، هو العمل الأدبى (أو الفنى، أو الفلسفة)، عالماً تخيلياً متلاحماً، أو قريباً من التلاحم، بحيث تتجاوب بنيته مع ما تنتجه إليه كل المجموعة الاجتماعية (٢٠).

وإذا كان العمل الأدبى يتجاوب بنيويا مع ما تنتجه إليه المجموعة على هذا النحو فلا سبيل إلى دراسته إلا من زاوية طبيعته، أى بالتركيز على صياغته المتلاحمة من حيث هى بنية توازى بنية أخرى أو تتجاوب معها. ومن المهم أن نؤكد أن هذا التوازى، أو التجاوب، إنما هو توازٍ بين أبنية للمقولات وليس بين محتويات تجريبية (إمبريقية) مبعثرة هنا أو هناك. ولهذا السبب يلح جولدمان على أن المهمة الأولى لعالم الاجتماع الأدبى يجب

أن تبدأ من التسليم بأن العلاقة الأساسية بين الحياة الاجتماعية والإبداع الأدبي لا تتمثل في محتوى هذين المجالين (الحياة الاجتماعية/ الإبداع الأدبي) وإنما في «شكل المحتوى». وما يعنيه جولدمان بشكل المحتوى، في هذا السياق، هو الأبنية العقلية التي تنظم الوعي التجريبي لمجموعة اجتماعية بعينها، مثلما تنظم العالم الخيالي الذي يبدعه الأديب المرتبط بها. يضاف إلى ذلك أن الانتقال من داخل بنية العمل إلى المجتمع لا يتم بشكل مباشر وإنما عن طريق وسيط له وجوده بين الاثنين، ذلك لأن تولد العمل لا يتم عن طريق الحياة المادية وإنما عن طريق رؤية العالم. ورؤية العالم على هذا النحو هي التي تمكننا من فهم الكل أو التجانس الشامل الذي يحدد الروائع الأدبية في مقابل الأعمال الأدبية الأقل أهمية، لأن الأعمال الأخيرة أقل تجانسا في تجسيدها رؤية العالم.

ويمكن أن نقول إن روائع الأدب لا تتسم بصفة إيجابية إلا لأنها تنطوى على بعدين هما بمثابة وجهين لعملة واحدة، التجانس الشكلي من ناحية، وتجسيد هذا التجانس لرؤية العالم من ناحية ثانية. ويلتقى البعدان عندما نفهم أن الأعمال الأدبية تمثل أقصى درجات تجانس الوعي الممكن لمجموعة اجتماعية، بحيث ترتد عبقرية الأديب الفرد إلى تجاوزه غيره في تقديم هذا الوعي في أعلى درجاته من التجانس، خصوصا عندما يحقق عمله الأدبي التناغم الكامل بين رؤية العالم كما تعانيها المجموعة والعالم التخيلي الذي يخلقه مبدعه، فيحقق العمل التناغم بين

عالمه المتخيل والأدوات التى يستخدمها للتعبير عن هذا العالم.
ويقودنا ذلك إلى إطار القيمة الجمالية، تلك التى تتشكل
فيها «الحقيقة الاستطيقية» عند جولدمان من مستويين متجاوبين
بالضرورة:

- (أ) التجاوب بين رؤية العالم بوصفها واقعا تعانیه المجموعة أو
الطبقة الاجتماعية والعالم الذى يصوغه الأديب.
(ب) التجاوب بين هذا العالم المصاغ والوسائل الأدبية المستخدمة
فى صياغته من صور وتراكيب وإيقاعات.. إلخ^(٢١).

وتعتمد قيمة العمل الأدبى على هذين المستويين معا، ذلك
لأن العمل الأدبى الحق ينطوى على تلاحم داخلى وإلا لم يشكل
بنية. لكن هذا التلاحم الداخلى لن يتحقق ما لم يصل إلى درجة
عالية من إدراك التلاحم فى بنية وعى العالم نفسها. وإذن،
فالمعيار الجمالى لقيمة العمل الأدبى معيار داخلى وخارجى فى
وقت واحد. داخلى من حيث ارتباطه بدرجة التلاحم البنىوى فى
العمل. وخارجى من حيث الموازنة بينه وبين أبنية أخرى تقع
خارج العمل بالضرورة. ويكاد جولدمان -عند هذا المستوى- أن
يقول إن المعيار الخارجى متضمن فى المعيار الداخلى. ذلك لأنه
يؤكد أن الأديب مشغول دائما بما تحت السطح، ويجاوز الواقع
الفعلى إلى الوعى الممكن ليكتشف فيه، ويصوغ منه، بنية العمل
الأدبى التى تصبح دالا يفضى مدلوله إلى رؤية العالم. ويقدر
نجاح الأديب فى صياغة هذه البنية، ويقدر ما تنطوى عليه من
تلاحم دال، تتحدد قيمة العمل الأدبى.

ولذلك، فإن مضمون العمل الأدبي لا يمكن تناوله بوصفه
 علة لمعلول أو مقولة اجتماعية كما تفترض النظرة الاجتماعية
 التقليدية، بل على العكس من ذلك، إذ «ليس هناك عناصر
 اجتماعية في العمل الأدبي، وإنما شخصيات فردية ومواقف
 خيالية فحسب... لأن الأعمال الأدبية أبعد من أن تكون انعكاسا
 بسيطا لوعى جماعى، إنها تعبير موحد متلاحم عن اتجاهات
 ومطامح خاصة بمجموعة بعينها»^(٢٢). ولذلك يقول جولدسمان مرة
 أخرى: «من الضروري -قبل أن نبث عن الصلة بين الأعمال
 الأدبية والطبقات الاجتماعية في الفترة التي كتبت فيها الأعمال-
 أن نفهم أولا دلالة هذه الأعمال بلغتها الخاصة، وأن نحكم عليها
 جماليا بوصفها عالما موحدًا من الكائنات والأشياء التي يتحدث
 من خلالها الكاتب الذى خلق هذا العالم»^(٢٣).

ومن الممكن أن نلاحظ أن «الحقيقة الجمالية» على هذا
 النحو تردنا إلى تمييز الأديب الفرد بالضرورة، وتربط بين قيمة
 إنتاجه وما ينطوى عليه هذا الإنتاج من كشف على المستوى
 الإدراكي فى استيعاب العناصر المنظمة لبنية الوعى الجماعى.
 لكن الكشف المرتبط بالإدراك المتميز للأديب لن يقودنا هذه المرة،
 كما يحدث فى تصورات جمالية مخالفة، إلى نوع من الوعى
 الجمالى المتعالى الذى يصل ما بين الكتابة والإلهام مثلا، أو
 يصل ما بين الإدراك الجمالى والحدس الصوفى، بل يتحدد هذا
 الكشف على أسس أكثر واقعية، ويرتبط بدرجة عالية من الوعى
 التى يتمكن معها الأديب من إدراك العلاقات البنوية لرؤية العالم،

وذلك على نحو متلاحم يصعب أن يقوم به غيره، اللهم إلا إذا استثنينا الفيلسوف الذى يأخذ الوضع نفسه عند جولدمان، ويمارس الفعل نفسه على المستوى التصورى وليس التخيلى.

ولذلك يمكن لجولدمان أن يحدثنا عن العبقرية الأدبية من حيث هى إدراك جمالى يجاوز فى تلاحمه الوعى الإيديولوجى للأديب. وإذا كان هذا التمييز يردنا إلى ثنائية الوعى والإدراك التى تثير جدلا لم يفض إلى الآن^(٢٤)، فإنها تؤكد لنا، على الأقل، أن العمل الأدبى ليس نسخة من الواقع، وأن الكاتب ليس معلما أو واعظا. إنه يخلق أشياء وكائنات تؤسس عالما موحدا ينطوى على تلاحم، ويكشف عن منطق داخلى نابع من المنظور الذى يعبر به جماليا عن رؤية العالم.

وإذا كان العمل الأدبى تعبيرا عن رؤية العالم، وطريقة خاصة فى صياغة عالم ملموس متعين من الكائنات والأشياء، فإن الأديب هو الإنسان الذى يصل إلى إدراك هذه الرؤية فى الوقت الذى يخلق فيه شكلا ملائما، يتخلق من خلاله هذا العالم المتعين الثرى بوفرته الحسية من الكائنات والأشياء المنخيلة، والثرى بوحده الداخلية التى تصنع للعمل بنيته الخاصة.

مسألة البنيوية التوليدية

قد نقول مع بعض الأصوات المعارضة لجولدمان إن التركيز على التلاحم والوحدة في النظر إلى طبيعة رؤية العالم يمكن أن يكون بمثابة تناقض في التفكير عند مفكر جدلي مثل جولدمان، يتبنى النظرة الماركسية في النظر إلى التشكل التاريخي. إن رؤية العالم التي يدرسها هي رؤية الجماعات البرجوازية فيما يقول. وتلك، بدورها، يجب أن تظهر وعيا زائفا حسب الأفكار الماركسية عن الإيديولوجيا، أي نظرة جزئية وليست كلية عن الحياة الاجتماعية. وبدل أن تكون هذه الرؤية متلاحمة ومتكاملة فكريا، فمن المنطقي أن تعكس ملامح مغايرة من التناقض الداخلي والتعارض؟ ثم ألا يعنى الإصلاح على التلاحم بشكل مطلق أن جولدمان الذي يزعم أنه جدلي يتخلى عن الجدل في إدراك الحقيقة الجمالية؟^(٢٥) إن الحقيقة الجمالية تظل منطوية على قطبين للصراع وإلا انتفى الصراع ذاته. والتركيز على الوحدة والتلاحم يقلل من وزن قطب التنوع إلى أبعد حد، ومن ثم الصراع ولذلك تبدو الوحدة نفسها وحيدة الجانب، غير جدلية، وذلك بالقدر الذي يبدو به التلاحم نوعا من التمسك ببنية ساكنة تقوم على مركز أو مراكز ثابتة.

إن مثل هذه الأسئلة والملاحظات تشكل أساسا ينطلق منه الخلاف حول إنجاز جولدمان، ومن ثم حول السلامة الكاملة لمنهجه. ومن المؤكد أنه خلاف لا يقلل من قيمة الإنجاز المتميز الذي حققته البنيوية التوليدية، أو حققته جهود لوسيان جولدمان التي

تبرز أهميتها ككتب المتعددة وأبحاثه الوفيرة وفرق العمل التي ظل يقودها أو يشرف عليها إلى أن توفي سنة ١٩٧٠. وهى جهود تدعو إلى دعمها، والبدء منها بعد وضعها موضع المسألة التي تفتح آفاقا رحبة لتطويرها.

ولكن هناك ملاحظة ينبغي تأكيدها لتوضيح مفهوم الوحدة والتلاحم عند جولدمان. إن مفهومه عن التلاحم ليس مفهوما عن تلاحم منطقي فيما يقول إدريان ميللور^(٢٦)، وإنما عن تلاحم ينشأ عن مجاوزة جدلية القطبي الوحدة والتنوع. وعلينا أن نتذكر أن فلاسفة الجدل لا يقتصرون عند جولدمان على هيغل وماركس ولوكاش فحسب بل يشملون كانط وبسكال. ولذلك يبدو الجدل من منظور متميز، يجعل جولدمان أقرب إلى تأكيد التلاحم على حساب التنوع أو الصراع. ودليل ذلك ما يؤكد جولدمان من أن المعنى الحقيقي للنص، أو الفقرة، هو المعنى الذي يعطينا صورة كاملة متلاحمة للعمل كله. ويستند جولدمان فى هذا السياق إلى بسكال الذى يقول:

لكى نفهم معنى الكاتب، يجب علينا أن نفرض كل التعارضات فى عمله. وهكذا علينا -إذا أردنا فهم النصوص- أن نجد معنى يصلح ما بين كل الفقرات المتعارضة، إذ لا يكفي أن يكون لدينا معنى ينطبق على عدد من الفقرات المتوافقة، بل علينا أن نصلح ما بين هذه الفقرات ونتأول ما يعارضها، ذلك لأن لكل مؤلف

معنى ينسجم مع كل الفقرات المتعارضة فى عمله وإلا
ما كان هناك أى معنى عنده.

وما يترتب على التدليل بمثل هذا الاستشهاد هو أن
الإلحاح على التلاحم لا يعنى إلغاء التعارضات الممكنة الموجودة
فى النص. إن إلغاء التعارض فى سبيل التلاحم نزعة دوجماطية
تؤثر التوحيد، أما إدراك التعارض فوظيفة نقدية تسعى إلى
إدراك الظواهر فى تعقيدها وحركتها. وهذا هو الفارق بين النقد
والدوجماطية. وهو فارق قار فى الظاهرة التى تتضمن الشئ
ونقيضه، وقار فى كيفية إدراك الظاهرة نفسها فى الوقت نفسه.
ولذلك يقول جولدمان^(٢٧):

إن كل عمل أدبى عظيم ينطوى على رؤية للعالم تنظم
عالم العمل الأدبى... ولذلك يجب على المرء أن يكشف
فى كل عمل فنى عظيم حقاً - عن القيم المرفوضة
التي تقمعها الرؤية التي تصنع وحدة العمل، فيكشف
عن التضحيات التي يعانيتها البشر فى سبيل رفض
هذه القيم وقمعها.

وذلك قول يعيد للصراع بين عناصر الجدل بعض توازنه،
ويقترح جولدمان من إدراك طبيعة الحقيقة الجمالية بوصفها
مجاوزة لقطبي التنوع والوفرة الحسية من ناحية، والوحدة التي
تنظم هذا التنوع فى كل متلاحم من ناحية أخرى. ولكن الحق أن
جولدمان ركز على قطب الوحدة أكثر مما ركز على قطب التنوع.
ولقد التفت إلى ذلك فى السنوات الأخيرة من حياته، ونبه على

أن أغلب عمله وعمل الباحثين الذين ألهمتهم كتابات لوكاش الأولى يتركز حول قطب واحد من قطبي التوتر اللذين يبنى عليها العمل الفنى، وهو قطب الوحدة الذى أخذ فى الواقع العمل للبحث البنىوى التوليدي شكل بنية تاريخية دالة. لقد اتجهت أبحاث هذه المدرسة، فيما يقول، صوب الكشف عن هذه البنية المتلاحمة المتحدة فى المحل الأول، وإيجاد نسقها المتجانس الذى يحكم عالما شاملا يؤسس دلالة كل عمل إبداعى.

ويحاول جولدمان تجنب مزلق النزعة النسقية المغالية الذى وقعت فيه ممارساته بالإشارة إلى ما تتضمنه الأعمال الإبداعية من وظيفة نقدية أساسية، وكيف أن هذه الأعمال تتجه إلى تجسيد الأوضاع التى تدينها بواسطة خلق عالم ثرى متعدد لشخصيات فردية ومواقف متميزة. ويعنى ذلك أن هذه الأعمال حتى إذا عبرت عن رؤية خاصة للعالم، تنتهى لأسباب أدبية أو جمالية إلى صياغة حدود هذه الرؤية والقيم الإنسانية التى لا بد من التضحية بها دفاعا عن الرؤية. وبدل الإلحاح على قطب التلاحم وحده، أبرز جولدمان القطب الثانى للتنوع عندما كتب عن ضرورة أن يكشف الناقد فى كل عمل فنى عظيم عن القيم المرفوضة التى تقمع الرؤية التى تصنع وحدة العمل. وكان ذلك الفهم المتأخر إيذانا بإدراك العناصر المضادة التى تسعى الرؤية المبنية للعمل إلى الهيمنة عليها وإخضاعها لمنطقها، لكن من غير أن تستبعد تأثيرها، أو تقضى على فاعليتها المناقضة، إذ تظل هذه العناصر موجودة على مستوى التنوع الداخلى فى البنية

الأدبية، كاشفة عن جوانب الصراع التى تنطوى عليها بالضرورة،
والتي تتراجع بالدلالة المطلقة للتلاحم إلى حدودها النسبية التى
تتقضى أى معنى للإطلاق.

وللأسف لم يمض جولدمان مع هذه النتيجة إلى نهايتها
المنهجية التى حال بينه وبينها الموت، فتركها شاهدا على نوع من
المراجعة الذاتية التى كانت، فى جانب منها، استجابة موجبة إلى
النقد الموجّه له من الممثلين للجناح المضاد فى النقد الماركسى.
وكان هؤلاء من صنف بيير ماشيرى الذى أصدر كتابه «نظرية
فى الإنتاج الأدبى» سنة ١٩٦٦ مؤكدا القطب الثانى من التوتر
الجمالى الذى أغفلته تقاليد مدرسة لوكاش التى وصل بها إلى
ذروتها البنيوية لوسيان جولدمان، أعنى قطب التنوع والوفرة
والصراع الذى يتناقض مع قطب التلاحم والوحدة، ذلك التناقض
الذى يستدعى إلى الذهن التعارض بين ديونسيوس وأبولو فى
الثنائية الرمزية المتوترة التى أشاعها الفيلسوف الألمانى فريدريك
نييتشه (١٨٤٤-١٩٠٠) منذ أن كتب عن «ميلاد التراجيديا» سنة
١٨٧٢.

وقد نظر ماشيرى إلى إبداع العمل الأدبى على أنه عملية
إنتاج تستخدم العديد من المواد المنفصلة سابقة التجهيز التى
تتغير فى عملية الإنتاج. هذه المواد ليست أدوات حرة يستخدمها
الكاتب استخداما واعيا لخلق نص محكم، موحد أو متلاحم أو
متجانس فى دلالاته على بنية أحادية المركز، فالعمل الإبداعى فى
شغله على مواد سابقة التجهيز لايسعى إلى هذا النوع من

التلاحم أو التجانس أو الوحدة المنتظمة بين العناصر. إنه يعمل على حالة وعى بعينها يدعوها ماشيرى الإيديولوجيا، ويدعوها لوسيان جولدمان رؤية العالم. ويعنى ذلك أن العمل الإبداعي يعيد إنتاج الإيديولوجيا الموجودة فى الواقع الفعلى، أى الموجودة بوصفها شيئاً طبيعياً، وبكيفية تتيح لخطابها التخيلى تزويدنا بتفسير يبرر الواقع الذى تتولد منه. ولكنها بمجرد أن تتحول إلى نص فى عملية إعادة إنتاجها فإن كل ثغراتها وتناقضاتها تتعزى وتتكشف. ومهما حاول الكاتب الواقعى توحيد عناصر النص فى عمله الإبداعي فإن مايقع فى عملية إعادة الإنتاج يفضى بالضرورة إلى ثغرات وانقطاعات، تناظر عدم اتساق الخطاب الإيديولوجى الذى يستخدمه العمل أو يشتغل عليه. إنك إذا أردت أن تقول شيئاً فلابد أن تصمت عن أشياء أخرى. هذا ما يقوله ماشيرى الذى يؤكد أن مهمة الناقد ليست إظهار الكيفية التى تتماسك بها أجزاء العمل، أو إحداث التناغم الذى يقلل من حدة أى تناقض قائم، أو المصالحة بين الفقرات المتعارضة فى النص على نحو ما ذهب باسكال، وإنما مهمة الناقد شبيهة بمهمة المحلل النفسى الذى يركز اهتمامه على لاشعور النص، أى على ما لايقال وما هو مكبوت أو مكبوح أو مقموع أو مسكوت عنه.

وبقدر ما كان بيير ماشيرى يناقض بهذا الفهم التقاليد الهيجلية التى انتسب إليها لوسيان جولدمان، التقاليد التى لم تفارق الإلحاح على الوحدة الشاملة للأبنية المتلاحمة، كان متوافقاً مع منطلق أستاذة لوى ألتوسير الذى قاد النزعة المعادية للنزعة

الهيكلية في النقد الأدبي الماركسي المعاصر، والذي ظل معارضا لحركة الإحياء الهيكلية داخل الفلسفة الماركسية بوجه عام. ولذلك رفض مفهوم الوحدة الشاملة عند هيجل ومن سار على دربه، خصوصا لوكاش ولونسيان جولدمان. وذهب إلى أن هذا المفهوم يجعل ماهية الكل تعبر عن نفسها في جميع أجزائه بما ينفى الصراع في علاقات الأجزاء. وتجنب استخدام مفاهيم «النسق الاجتماعي» و«النظام» لأنها توحى ببنية ذات مركز يحدد شكل كل تجلياتها التي لاتفارق سجن النسق الذي تركها فيه جولدمان. وفي المقابل، يتحدث التوسير عن «تشكل» هو بنية بلامركز، بنية هي نقيض الكائن الحى من حيث إنها لاتتضمن مبدأ مهيمنا يحكمها، أو بذرة تنبثق منها، أو وحدة كلية شاملة تتولد عنها. هذه البنية تقوم على مستويات متباينة، تدخل في علاقات معقدة من التناقض الداخلى والصراع المتبادل. ولايمكن فهمها بقصر النظر إليها من عدسة الوحدة الشاملة أو التلاحم الذى يفضى إلى مركزية العلة، ومن ثم مفهوم البنية وحيدة المركز.

ويلزم عن ذلك أن العمل الأدبي لا يرتبط بالأيديولوجيا عن طريق ما ينطقه بل عن طريق ما يسكت عنه، فنحن لا نشعر بوجود الإيديولوجيا فى النص الأدبي إلا من خلال جوانبه الصامتة الدالة بصمتها، أى نشعر بها فى فجوات النص وأبعاده الغائبة. ومهمة الناقد هى الكشف عن ثغرات هذه الجوانب وإنطاقها، ذلك لأن النص ممنوع عليه، إيديولوجيا، قول أشياء بعينها. ويضطر الكاتب، فى محاولة رواية الحقيقة بأسلوبه

الخاص، إلى الكشف عن حدود الإيديولوجيا التي يكتب منها،
 دالا على ثغراتها وصوامتها، ومن ثم الكشف عن المسكوت عنه.
 ومادام النص ينطوى على هذه الثغرات والصوامت فإنه يظل
 غير متكامل، دائما، لا يكشف عن وحدة شاملة متجانسة أو
 متلاحمة وإنما عن صراع المعانى المتضاربة فى علاقاته. ولذلك
 تكمن قيمته الأدبية، إذا كان نصا أدبيا، فى الخلاف بين معانيه
 أكثر مما تكمن فى وحدتها وتلاحمها. وإذا كان لوسيان جولدمان
 ينظر إلى النص بوصفه بنية مركزية، يبحث عن السبب الرئيسى
 لتلاحمها فى المركز الدلالى الذى يفترض أنها تتبنى حوله، فإن
 ماشيرى لا يرى فى النص سوى بنية غير مركزية ابتداء. ولأن
 النص بنية مزاحة المركز، لا تعتمد على جوهر مفترض أو بؤرة
 ثابتة، فليس فى هذه البنية سوى التعدد والتنوع اللذين يفضيان
 إلى الصراع والاختلاف. ولذلك فإن قيمة العمل الأدبى فى هويته
 من حيث هو نص متفرق، مشتت، متعدد، غير منتظم.. إلى آخر
 الصفات التى يستخدمها ماشيرى نقيضا لصفات التلاحم
 والانسجام والترابط واتحاد العناصر التى ينتسب بها كل من
 لوسيان جولدمان ولوكاش إلى وحدة الأبنية العقلية الهيجلية.

ولا يقصد بيير ماشيرى، فيما يقول قرينه المتحمس
 لأفكاره تيرى إيجلتون، بحديثه عن العمل غير الكامل أن هناك
 قطعة ناقصة من العمل يضيفها الناقد بنقده، وإنما يقصد إلى أن
 عدم اكتمال العمل يرجع إلى طبيعة العمل الأدبى نفسه، من حيث
 ارتباطه الدائم بإيديولوجيا تصمته فى بعض المواضع، الأمر

الذى يعنى أن العمل الأدبى كامل فى عدم اكتماله، وأن هويته غير مفصولة عن ثغراته. ولذلك فليس المطلوب من الناقد أن يملأ فراغ العمل أو يضيف إليه أو يعيد ما ينقصه أو ما سقط منه، وإنما الكشف عن مبدأ الصراع فى معانيه، وإبراز مبدأ الاختلاف فى عناصره العلائقية، ومن ثم إظهار الكيفية التى ينتج بها الصراع النص فى مدى علاقة الكاتب بالإيديولوجيا.

ويوضح تيرى إيجلتون ذلك فى كتابه عن الماركسية والنقد الأدبى بمثال من رواية «دومبى وولده» التى يستخدم فيها ديكنز عددا من اللغات المتصارعة فى تصويره الأحداث، وذلك على نحو تظهر معه الرواية على سبيل التبادل اللغة الواقعية واللغة الميلودرامية واللغة الرعوية ولغة المثل والتمثيل. ويصل الصراع بين اللغات إلى ذروته فى الفصل الشهير عن السكة الحديدية، حيث تتمزق الرواية على نحو غامض بين الاستجابات المتناقضة إلى السكة الحديدية، متوترة ما بين الحذف والاحتجاج والاستحسان والابتهاج والحبور والتوجس، عاكسة ذلك كله فى تضارب الأساليب والرموز. والأساس الإيديولوجى لالتباس الرواية فى هذا الجانب هو توزيعها ما بين الإعجاب البرجوازى بالتقدم الصناعى وقلق البرجوازية الصغيرة الناتج عن الآثار الحتمية القاهرة لهذا التقدم. والنتيجة هى تعاطف منظور الرواية مع الشخصيات الهامشية المستنزفة التى يلغىها العالم الجديد، وذلك فى الوقت الذى تحتفى الرواية بالاندفاع اللاهب للرأسمالية الصاعدة التى جعلت من هذه الشخصيات كائنات عتيقة مهجورة.

قد يحترس تيرى إيجلتون بعد ذلك التحليل لرواية ديكنز بقوله إن هناك فارقاً بين الصراع فى المعنى والصراع فى الشكل، وإنه مثل ماشيرى يقصد إلى صراع المعنى، لكن من غير أن يستبعد أن تضارب الدلالات وثيق الصلة بالشكل الأدبى المتكامل، وأنه لا يفضى بالضرورة إلى تصدع الشكل. ولكن هذا الاحتراس ينقلنا إلى مفهوم مغاير للشكل الذى لن يغدو مبنى من تلاحم الوحدة المتناغمة العناصر، وإنما مبنى من الوحدة التى تغطى بتنوعها وتتوتر بصراع مكوناتها، شكل لا يضيف السكينة على مكوناته ولا يحارب اختلافها، وإنما ينبى بهذا الاختلاف ويتأسس بالتوتر الذى ينطق دلالاته ويؤكد قيمته، فينفى عنه صفات البنية الساكنة المتلاحمة وحيدة المركز.

وأتصور أن لوسيان جولدمان كان يحاول تخفيف هيمنة المركز الوحيد للبنى الجمالية عندما أكد أن القيمة الجمالية هى مجاوزة التوتر القائم بين قطب التنوع والوفرة الحسية من ناحية، وقطب الوحدة التى تنتظم هذا التنوع فى كل متلاحم من ناحية ثانية. وكان هذا التأكيد يعنى تحديد أهمية العمل الإبداعى وقيمته حسب درجة الفاعلية التى يتم بها مجاوزة هذا التوتر، الأمر الذى يدل على العودة إلى الأصل الهيجلى فى وحدته الجدلية، ومن ثم تأكيد أن القيمة الجمالية ترتفع درجتها بتصاعد الوفرة الحسية وتعدد عناصر الرؤية وانتظامها فى وحدة بنيوية دالة فى تلاحمها الذى لا يخلو من وفرة التنوع. ولكن الذى لم يلتفت إليه جولدمان فى محاولته هو أن عملية مجاوزة التوتر

التي يتحدث عنها إنما هي عملية اختزال لإمكانات القيمة الجمالية في العمل الإبداعي الذي لاقية له بعيدا عن توتره، ومن ثم بعيدا عن صراع قطبيه من ناحية، وصراع مكونات كل قطب مع غيرها من المكونات في العمل كله من ناحية ثانية، وليس ما يحدد هذه القيمة أو يؤكدها هو غلبة عنصر التلاحم الذي يشبه الحضور العقلاني لأبولو على حضور الوفرة الحسية للتنوع والصراع والتعارض والتنافر الذي يمكن أن ينطوى عليه القطب الثانى الذى يشبه ديونسيوس. إن القيمة الجمالية هي التوتر الدائم بين القطبين، وإطلاق سراح قطب التنوع المكبوت ليخلل سجن النسق المتلاحم، فيطلق سراح الصوامت المقموعة فى داخله، وينطقها حتى فى صمتها الدال، منفتحا بها على التنوع الحوارى الخلاق للعناصر التى لاينبغى أن يقيدها قطب الوحدة.

هل أدرك جولدمان ذلك فى أواخر حياته عندما توقف عند قراءة چوليا كرسيتيكا لأفكار ميخائيل باختين (١٨٩٥-١٩٧٥) عن التنوع الحوارى و«الكرنفالية» مقابل النجوى أحادية البعد التى تختزل الصراع والتعدد والاختلاف؟ إن الأمر ممكن. يدعم الحدس به أن جولدمان أخذ يهتم اهتمام المحاور بما كان يطالعه من أفكار الطليعة الأدبية النقدية الشابة من حوله، وهى الطليعة التى تأكد حضورها فى الحياة الثقافية الفرنسية مع وصوله إلى الخمسينيات من عمره، فأخذ يناقش الاتجاهات النقضية الصاعدة التى تولت مهمة تفكيك مفهوم البنية وحيدة المركز، وفتح تلاحمها على قطب الصراع والاختلاف. ولم يكن مصادفة أن

جولدمان نشر دراسته المهمة عن «علم اجتماع الأدب: الوضع ومشكلات المنهج» سنة ١٩٦٧، السنة نفسها التي صدرت فيها ثلاثة كتب أساسية، حاسمة، للفيلسوف الفرنسي چاك ديريدا، تولت تقويض البنيوية بأكثر من معنى، سواء فى نقضها مركزية اللوجوس التي تنطبق على مفهوم البنية المتلاحمة وحيدة المركز، أو فيما أحدثته من نزوع جديد، حين استبدلت بمفهوم التلاحم مفهوم الاختلاف وبعملية التوحيد الشامل عملية النقض المستمر. وتجمع هذه الكتب ما بين عناوين «الصوت والظاهرة» وهو دراسة عن فلسفة الفيلسوف الألماني إدموند هوسرل (١٨٥٩-١٩٣٨) الظاهراتية و«دراسة الكتابة» أو «الجراماطولوجيا» من الجراما Gramma اليونانية التي تعنى الكتابة أو الحرف فالجراماطولوجيا هي دراسة العلامات المكتوبة التي تنقض مركزية اللوجوس بما تنطوى عليه علاقاتها من اختلاف لا يفارق مبدأ الإرجاء المستمر فى الدلالة، وأخيرا «الكتابة والاختلاف» وهو عنوان الكتاب الذى تضمن بحث «البنية والعلامة واللعب فى خطاب العلوم الإنسانية» الذى ألقاه ديريدا فى ندوة جامعة جونز هويكنز عن «لغات النقد وعلوم الإنسان فى تشرين أول (أكتوبر) ١٩٧٠ وأسهم به فى تقويض بنيوية كلود ليفى شتراوس فى أساسها اللغوى عند دى سويسير. (يجد القارئ ترجمة قمت بها لهذا البحث الأخير مع مقدمة عن سياقه الفكرى فى مجلة فصول: المجلد الحادى عشر، العدد الرابع، شتاء ١٩٩٣).

وما يعنيه صدور كتب أساسية ثلاثة لچاك ديريدا على هذا

النحو دال في إشارته إلى تغير السياق الذي كانت تتحرك فيه ممارسات لوسيان جولدمان، وصعود جيل جديد مغاير في مطامحه، ومناقض في اتجاهه، هو جيل چاك ديريدا (المولود سنة ١٩٣٠) الذي هو أصغر من لوسيان جولدمان في العمر بسبعة عشر عاما، وأصغر من رولان بارت المولود بعد جولدمان بعامين (سنة ١٩١٥) بخمس عشرة سنة، شأن ديريدا في ذلك شأن چوليا كرستيفا (المولودة سنة ١٩٤١) التي تصغر جولدمان بثمانية وعشرين عاما ورولان بارت بستة وعشرين عاما.

وكانت چوليا كرستيفا البلغارية الأصل المنتسبة إلى جماعة «تل كل» Tel Quel الباريسية غير بعيدة عن الأفق النقضى الذى فتحته كتابات چاك ديريدا. ولذلك اختارت قطب التنوع والوفرة الحسية على قطب التلاحم والوحدة الشاملة، وذلك أثناء دراستها لدرجة الدكتوراه في باريس تحت إشراف كل من لوسيان جولدمان ورولان بارت اللذين كانا أستاذين متعارضين منهجيا في المدرسة التطبيقية للدراسات العالية في باريس. وسرعان ما أظهرت طالبة الدكتوراه (التي أصبحت واحدة من أبرز ناقدات ما بعد البنيوية) تمردا على مفاهيم الوحدة الشاملة والتلاحم عند أستاذها جولدمان الذى ظل هيجلى الهوى، واستبدلت بقطب التلاحم والوحدة قطب التنوع والتعدد الذى وجدته في تحولات رولان بارت الذى كان قد أخذ يقترب من إدراك «لذة النص» في بحثه عن القيمة الجمالية للنص المطلوب الذى يتأبى على كل مشابهة كآئه الفوضى المغرزة. ومن هذا

المنظور، أعادت كرستيفا قراءة باختين في دراستها التي نشرتها في العدد ٢٣٩ من مجلة «النقد» Critique، مؤكدة مبدأه الحوارى في بعده الكرنفالى الذى يطلق سراح النقض إلى أقصى مداه الذى يدمر علاقات التراتب المفروضة. وتلك هى الدراسة التى ناقشها أستاذها جولدمان، مؤكدا عدم موافقته على منظورها فى نهاية دراسته عن «علم اجتماع الأدب: الوضع ومشكلات المنهج». ولكن ذلك لم يمنعه من المضى مع بعض منطلقاتها فى محاولة منه لتطوير منطلقاته، شأن الأساتذة الكبار الذين لايتوقفون عن مساهمة أعمالهم والإفادة من طلابهم النابهين. ويعترف الأستاذ الكبير بتقصير مدرسته فى الاهتمام بقطب التنوع والتعارض والصراع من القيمة الجمالية. ويرى فى الوقت نفسه أن الوضع المنهجى لكرستيفا فى تأويلها لحوارية باختين الكرنفالية لا يختلف عن وضعه المنهجى كثيرا، لأنها تتبنى وضعاً أحادى البعد عندما ترى فى الخلق الثقافى وظيفه للتعارض والتنوع فى المحل الأول، أى وظيفة للديالوج الذى يعارض المونولوج إذا استخدمنا مصطلحات باختين فى دراسة «شعرية دستيوفسكى».

وأحسب أن حوارية المساهمة التى دخل جولدمان إلى غمرتها، طرفا فاعلا مع الجيل الجديد الذى مثلته تلميذته النابهة جوليا كرستيفا، هى أحد العوامل الحاسمة المسؤولة عن محاولة التطوير الأخيرة فى منهج البنيوية التوليدية، خصوصا من حيث التفات جولدمان إلى قطب التنوع وتأكيد أهمية دراسته، ومن ثم تأكيد ضرورة دراسة المستويات المعقدة للصراع داخل بنية

الأعمال الأدبية نفسها، ومن ثم دراسة:

(أ) الصراع على مستوى مركب القيم الذى تذكره رؤية العالم التى تبني العمل ومركب القيم الذى يسعى العمل الأدبى إلى تبنيها.

(ب) الصراع بين المستوى الفردى والمستوى الجماعى داخل رؤية العالم.

(ج) الصراع بين مستويات الصياغة نفسها فى عناصر الأبنية الصغرى.

ويعنى الكشف عن هذه المستويات تأكيد وظيفة أخرى إلى جانب التلاحم، وظيفة تقربنا من فعل الجدل ومعناه ولا تبعدنا عنهما. وتبرز هذه الوظيفة فيما كتبه جولدمان فى مقال متأخر بعنوان «الإيديولوجيا والكتابة» نشره فى الملحق الأدبى لجريدة «التايمز» (٢٨ سبتمبر ١٩٦٧) قال فيه:

على الرغم من أن نظرة العالم ترتبط، ابتداءً، بوظيفة التلاحم ووحدة المعتقد المتضمنة فى كل فعل إنسانى، فإن عنصر الثراء يرتبط، ابتداءً، بوظيفة مماثلة فى الأهمية، وهى وظيفة العقل النقدى الذى يجاوز نفسه بنفسه، فيحقق عنصرى التلاحم والتنوع اللذين يشكلان كلية كل عمل شامل.

ولكن كان هذا كله من قبيل الطموح الذى سعى جولدمان إلى تحقيقه وخطط لإنجازه، لكن العمر لم يتسع لتحقيق ما طمح

إليه، فترك المهمة لمن تأثروا به من العاملين فى مجال النقد الاجتماعى، أولئك الذين ابتدأوا من حيث انتهى فى فهم الحقيقة الجمالية أو القيمة الأدبية.

وإذا انتقلنا إلى مستوى آخر من مستويات هذه «الحقيقة» واجهنا مشكلة أخرى تتصل بعملية فهمها على مستوى تحققها فى العمل الأدبى. وهى مشكلة تتصل بتأويل النص نفسه. ومن هذه الزاوية يثار السؤال المهم: ألا يعنى تركيزنا على التولد التاريخى لبنية العمل الأدبى وقوفا على بعض مستويات هذه الحقيقة الجمالية وليس كل مستوياتها؟ إن العمل له دلالاته الوظيفية المرتبطة برؤية العالم عند المجموعة التى أنتجته بالتأكيد، ولكن ماذا عن دلالاته الوظيفية بالقياس إلى مجموعة أخرى لم تنتج، سواء فى العصر الذى أنتج فيه أو العصور اللاحقة التى تتلقاه وتتأثر به؟ وهل تتلقاه وتتأثر به لأنه يصور «ذكرى تاريخية»، أم لأنه يصور وضعا باقيا فيتصل العمل بحياة أخرى غير حياته الأولى؟

لقد قال جولدمان -فى «الإله الخفى»- إن العمل الفنى يمكن أن يحتفظ بقيمته خارج المجموعة التى ظهر فيها، لأن العمل ينقل الموقف المتعين الذى يعبر عنه إلى إطار المشاكل الإنسانية الكبرى التى تخلقها علاقة الإنسان بأقرانه وعالمه. وما دام عدد الإجابات المتلاحمة عن هذه المشاكل عددا محدودا بحدود بنية الشخصية الإنسانية ذاتها، فإن كل إجابة متلاحمة يمكن أن تتجاوب مع موقف تاريخى آخر، فلا تؤدى وظيفة واحدة

بل وظائف متباينة تاريخيا. ولذلك، نواجه نوعا من الولادة الجديدة المتعاقبة للبنية نفسها. ولو صحَّ هذا الذى يقوله جولدمان، ولو صح فهمى له، فإنه يثير إشكالا جديدا يرتبط بما يمكن أن نسميه البنيوية التوليدية لقراءة النص أو العمل الأدبى، وهو إشكال يدفعنا إلى التساؤل: هل نميز فى هذه الحالات المتولدة بين مقصد تاريخى محدد للنص، يرتبط بطبقة محددة أو مجموعة اجتماعية محددة، ودلالات مغايرة للعمل نفسه عند طبقات أخرى ومجموعات اجتماعية مخالفة؟ وإذا فعلنا ذلك، فماذا يحدث للتفسير والشرح؟ هل يظل الشرح ثابتا والتفسير متعددا أم تظل الدلالة الموضوعية للعمل ثابتة فى مستواها التاريخى فلا يتباين التفسير والشرح؟ وإذا نظرنا إلى الإشكال من زاوية وحدة الذات والموضوع، سواء على مستوى التعاقب الزمانى فى قراءات النقد المغايرين الذين يتحركون داخل هذا التعاقب أو قراءات النقد الذين يتحركون داخل النظرية العامة التى يتحرك فيها جولدمان، فهل تظل العلاقة المؤسسة للوحدة بين طرفى الذات والموضوع ثابتة؟ أم تتغير بتغير المجموعة الاجتماعية؟ ومن ثم تتغير رؤى العالم عند كل مجموعة من النقاد؟ وهل نحتاج فى هذه الحالة إلى تعديل النموذج المنهجى وتطويره كى يتقبل ويستوعب احتمالات التعقيد، ويفض إشكالات كثيرة طرحها علوم التأويل (الهرمنيوطيقا) المعاصرة وتفتح أفقها المغلق نظريات الاستقبال؟

وإذا تركنا التفسير والشرح وعدنا إلى الحقيقة الجمالية

مرة أخرى، ومن زاوية مغايرة، فإننا نلاحظ أن جولدمان يرى في العمل الأدبي تعبيراً عن الحقيقة نفسها التي تعبر عنها الفلسفة بلغة مغايرة، وكأننا إزاء لغة التصورات في الفلسفة ولغة الخيال في الأدب، وإذا كان مدلول اللغتين يظل واحداً رغم اختلاف الدال اللغوي، فإن كتاب «الأفكار» لبسكال ينطوي على البنية نفسها التي تنطوي عليها مأسى المسرح عند راسين، والنتيجة المنطقية المترتبة على ذلك هي أن حقيقة الأعمال الأدبية والفلسفية واحدة، وأن المغايرة تقع في طرائق التعبير فحسب لأن المضمون واحد والأشكال متغايرة. ويشبه الأمر على هذا النحو ما نواجهه في «النحو التوليدي» عند تشومسكي، حيث تترد الأبنية السطحية المتغايرة لجمل متعددة إلى «بنية عميقة» واحدة تتولد عنها الجمل المتغايرة، ويعني ذلك أننا نواجه مظاهر متعددة لحقيقة واحدة أو أشكالاً متعددة لمضمون إيديولوجي واحد^(٢٩). وإذن، فما يميز الأدب عن غيره هو الشكل الذي سيصبح كيفية خاصة في صياغة مضامين جاهزة سلفاً. وإذا صح ذلك فقد الأدب بعده المعرفي القديم، ولم يعد طريقة خاصة في صياغة تجارب متميزة لا يعبر عنها العلم ولا تقدمها الفلسفة (بقايا المفهوم الرومانسي) وإنما يصبح صياغة لمضامين واحدة، كأن «الموت» -مثلاً- حقيقة ثابتة جاهزة، تظل هي هي، حتى لو تبدت محسوسة في «فيدرا» أو تبدت مجردة في «الأفكار».

وإذا نظرنا بعين الاعتبار إلى ما ينطوي عليه منهج جولدمان من تسليم بوحادية البنية وتعدد المضامين أو المحتويات،

فإن الأمر لن يتغير كثيرا، فالبنية تتحول إلى ما يشبه روح هيجلى يتجلى تجليات متعددة أشبه بتجليات «الروح» فى «الأشكال». والنتيجة هى الفصل بين الشكل والمضمون رغم إعلان الوحدة الجدلية بينهما، واضطراب العلاقة بين الدال والمدلول، إذ لاشك أن كل تغير فى الدال يقود إلى تغير فى المدلول ما ظللنا فى دائرة الإبداع.

وإذا تأملنا، أخيرا، العمل الأدبى نفسه من حيث علاقته بالمجتمع، رغم كل ما فى العلاقة نفسها من تعقد يسلم به جولدمان، فإلى أى مدى يمكن التسليم بما يؤكدّه -فى كتابه- «من أجل علم اجتماع الرواية»- بقوله «إن العلاقات بين العمل الأدبى والمجموعة الاجتماعية تنطوى على نظام العلاقات نفسه بين الأجزاء والكل فى العمل الأدبى»^(٣٠). إن التسليم بهذا الفرض الجازم يقود إلى الإلحاح على المماثلة التى هى مصطلح يستخدمه جولدمان كثيرا، كما يقود إلى فهم العمل الأدبى بوصفه مظهرا جماليا لجوهر مستقل عنه. وعندئذ، نصبح فى قلب المحاكاة القديمة بمعنى من معانيها، وفى صيغة هيجلية للانعكاس من نوع مغاير فى الكم فحسب. ولن يتغير الوضع لو تحدثنا عن أبئية صغرى تتولد عن أبئية كبرى، ما ظللنا نسلم بصحة الفرض الأساسى نفسه، ذلك لأن حال وجود العمل الأدبى وكيانه المادى لا بد أن يتهاوى ليصبح مجرد مجلى لشيء آخر.

ولن يسترد العمل الأدبى كيانه المادى المتعين إلا بتقدير ما فيه من صراع ذاتى وما فيه من عمليات هدم وبناء، وما ينطوى

عليه من ثغرات صامته لها لغتها التي تعبر بصمتها مثلما تعبر العناصر الناطقة. ولقد ألمح جولدمان نفسه إلى بعض هذه الفاعلية الخاصة للعمل الأدبي عندما تحدث عن قدرة العمل على رفع درجة التلاحم في رؤية العالم إلى أقصى مداها، ولكنه لم يحوّل التلميح إلى صياغة تصويرية تقلل من غلواء الممانعة، ولم يركز على ما لفته إليه الفيلسوف والناقد الألماني تيودور أدورنو عندما أكد الثاني، في مناظرة وقعت بينه ولوكاش، أن العمل الأدبي نسق أو نظام، ولكن من زاوية واحدة فحسب لأن هناك، دائما، الزاوية الأخرى التي تجعل من العمل نقيضا للنظام، فتكسبه طبيعته المزدوجة^(٣١) التي هي سر ما فيه من حيوية التوتر.

ترى هل يرجع ذلك كله إلى أن جولدمان عالم اجتماع أدبي وليس ناقدا بالمعنى الدقيق؟ قد يكون ذلك صحيحا على نحو ما ألمح محمود أمين العالم في المقالة العربية الأولى عن لوسيان جولدمان التي نشرها في مجلة «المصور» القاهرية في أوائل نوفمبر سنة ١٩٦٦، ووصف فيها جولدمان بأنه عالم اجتماع وليس ناقدا أدبيا. وقد يكون ما رآه العالم صائبا. وقد يكون موقف جولدمان بوصفه عالم اجتماع هو الذي دفعه، رغم كل تحذيراته بل رغم كل حدوسه الرائعة، إلى الهبوط على العمل الأدبي من المجتمع بدل الصعود من العمل إلى المجتمع فيما يقول سيرجي دوبروفسكى. ولكن هذا التبرير يقودنا إلى أسئلة أخرى وإلى مشكلات أخرى جعلت الآراء تتضارب تضاربا بيّنا حول

جولدمان ومنهجه.

ويبدو جولدمان، من زاوية هذه المشكلات، وكأنه يستفنز عقول الكثير من النقاد المعاصرين رغم اختلاف رؤاهم إلى العالم. هكذا، نسمع ميريام جلوكسمان التي تتساءل عن جولدمان: ماركسى هو أم إنسانى؟! ونسمع تيرى إيجلتون يتحدث عن الثغرات التي تكمن في منهج جولدمان^(٣٢)؛ فهناك مفهومه عن الوعي الاجتماعى الذى هو مفهوم هيجلى يتناول الوعي الاجتماعى بوصفه تعبيراً مباشراً عن الطبقة الاجتماعية، الأمر الذى يحيل العمل الأدبى إلى تعبير مباشر عن الوعي والطبقة. وهناك النموذج الذى يطرحه المنهج كله، وهو نموذج يعجز عن التوفيق بين الصراع الجدلى والتعقيدات، وبين التفاوت والانقطاع فيما يقول تيرى إيجلتون. والنتيجة هى انزلاق المنهج إلى نوع من الصياغة الآلية عن علاقة البنية الفوقية بالبنية التحتية فى الرواية. وذلك واضح كل الوضوح عندما يقول جولدمان فى كتابه «من أجل علم اجتماع الرواية»:

إن هناك تماثلاً صارماً بين شكل الرواية... وعلاقة البشر بمنتجاتهم فى عصر بعينه، كما أن هناك تماثلاً ثانوياً بين شكل الرواية والعلاقات الإنسانية فى المجتمع السلعى.

ويحدثنا رولان بارت من منظور إيديولوجى مخالف، رغم إعجابه بجولدمان الناقد، عن المحاكاة الكلاسيكية التي يعيد جولدمان صياغتها فى منهجه. ويحدثنا ناقد آخر، أقصر قامة

بكثير من بارت- عن جولدمان الذى يقدم «عبوة جديدة»^(٣٣) لتراث قديم فى خليط عصرى (على الموضة) يشمل البنيوية والوجودية والظاهرانية وطرانة التحليل النفسى. ويتوقف هذا الناقد، وهو جورج بيزستراى صاحب كتاب «النماذج الماركسية فى النقد الأدبى» الذى صدر عن جامعة كولومبيا الأمريكية سنة ١٩٧٨، على تحليل جولدمان لروايات مالرو، محاولا الكشف عن الرطانة البنيوية والوجودية والسيكولوجية فى التحليل النقدى.

ولكن هناك، من المنظور الإيجابى، من يرى فى منهج جولدمان بداية مهمة تصلح لتأسيس علم اجتماع للفن، على نحو ما فعلت جانيت وولف فى كتابها عن «الفلسفة التأويلية وعلم اجتماع الفن»^(٣٤). وهناك من يؤكد بحق أن نقد جولدمان الاجتماعى يمثل رأس الحرية فى جهد بذله قسم كامل من النقد الجديد فى فرنسا كى يؤسس نماذج علمية لفهم الأعمال الأدبية. ويقال من هذا المنظور إن أبحاث جولدمان جددت فهمنا لبسكال والجنسينية، وأحكمت المفهوم الفذ للرؤية المأساوية، وسلطت ضوءا جديدا على تطور الرواية المعاصرة، الأمر الذى يكشف عن دين النقد المعاصر لتفسيرات جولدمان وشروحه لأعمال مالرو وآلان روب جرييه وجيروود وناثالى ساروت وغيرهم^(٣٥). وذلك بعض ما يقوله سيرجى دوبروفسكى فى كتابه عن النقد الجديد فى فرنسا.

ترى أى هذه الأقوال والآراء أقرب إلى الدقة والصواب؟ وأيها أقرب إلى تصوير الإنجاز المتميز للوسيان جولدمان، ومن

ثم الإسهام المتميز للبنىوية التوليدية. ذلك ما ينبغي أن يفكر فيه الناقد العربى المعاصر كثيراً، وأن يفكر فيه طويلاً، بأن يفيد من إنجازات جولدمان على مستوى الفهم والشرح معاً، وأن يتعلم من الحوار الذى دار حولها، وأن يطرح أسئلته الخاصة على الإنجازات نفسها، بواسطة ملاحظاته النظرية وممارساته العملية، وذلك على نحو يضع كتابة جولدمان وممارساته موضع المسألة. وأتصور أن الناقد العربى المعاصر مطالب بفعل ذلك مع جولدمان وغيره من نقاد العالم حوله، فى موازاة ما يفعله مع نقاد تراثه والتراث الإنسانى كله، فقد تجاوز هذا الناقد، فى فعل أصالته، مرحلة التقليد والأخذ الساذج والولع بالموضوعة إلى مرحلة الوعي النقدي الذى لا يكف عن مساءلة الأفكار والمفاهيم والتصورات والنظريات والشخصيات فى أى زمان ومكان. وبذلك وحده، نأمل أن يكون الناقد العربى المعاصر طرفاً فاعلاً فى حوار خلاق، يسهم فى تأسيس أصول نظرية وممارسات تطبيقية عميقة الأثر فى تجديد النقد الأدبى العربى، والتحول به عن أفق التبعية والاتباع إلى أفق الاستقلال والابتداع.

هوامش :

(١) راجع:

Lucien Goldmann: **Structure; Human Reality and Methodological Concept**, in Richard Macksey (ed.)
The Struturalist Controversy, The Johns Hopkins
University Press, 1975, p. 101.

(٢) انظر:

Goldmann: **The Hidden God**, trans. by Philip Thody,
Routledge & Kegan Paul. 1977, p. 17.

وقارن بما كتبه الرشيد الغزى عن «النظرية الاجتماعية فى الأدب»،
قضايا الأدب العربى، الجامعة التونسية، مركز الدراسات والأبحاث
الاقتصادية والاجتماعية، ١٩٧٨، ص ٤٩٣-٥٢٠.

(٣) راجع:

Laurenson & Swingewood: Lucien Goldmann and the
study of Literature, in **New Society**, 362, 4th September, 1969
p.354.

وقارن بما كتبه حلمى شعراوى عن «لوسيان جولدمان.. بعض آرائه
فى الاجتماع والسياسة»، دراسات عربية، العدد (١٠)، أغسطس ١٩٧٩،
ص ٦٣-٨٠.

Goldmann: Ideology and Writing, **Times Literary Supple-** (٤)
ment 28th September. 1967, p.903.

(٥) الليبيدو Libido اسم مشتق من اللفظ اللاتيني Libet، ومعناه اشتهى الشئ، أو رغب فيه، ويطلق على الرغبة، ولاسيما الرغبة الحسية، أو الجنسية. وقد استعار فرويد هذا اللفظ لإطلاقه على الغريزة الجنسية من جهة ما هي طاقة حيوية مشتملة على مجموع الحياة الوجدانية. والليبيدو Libidinal هو المنسوب إلى الليبيدو.

(٦) نسبة إلى چنسينوس Jensenius أسقف إپريس Yprese الذي أنفق عشرين عاما في كتابة الأوغسطينوس Augustinus الذي ظهر عام ١٦٤٠.

Goldmann: **Cultural Creation**, Trans, by Graco Bart (٧)
Grahl, Telos Press, 1976, p.16.

George A.Huaco: **Ideology and Literature**, in **New Literary History** Vol, IV, No.3, 1973, p.429.

Goldmann: **The Sociology of Literature; status and Problems of Method**, in: **International Social Science Journal**, Vol. XIX, No, 4, 1973.

Ideology and Writing, Ioc. cit. (١٠)

(١١) راجع -على سبيل المثال- مقال و.ك. ومزات بعنوان «وهم المقصد» في المرجع التالي:

W.K. Wimsatt: **The Verbal Icon**. Methuen. 1970.
pp.13-18.

(١٢) راجع ما كتبه هيرش في:

E.D.Hirsch: **Validity in Interpretation**. Yale University Press. 1967.

Goldmann: **Dialectical Materialism and Lirterary History** (١٣)
in: **New left Review**. No. 92 July August 1975. p.43.

(١٤) أصبحت الكتب العربية المؤلفة التي تعرض للمذاهب البنيوية كثيرة إلى درجة لافتة، خصوصا بعد أن تحولت هذه المذاهب إلى نوع من الموضة. ومن أسبق الكتب النظرية المؤلفة عن البنيوية، من حيث تواريخ النشر، كتابا زكريا إبراهيم، **مشكلة البنية**، مكتبة مصر، ١٩٧٦، وصلاح فضل، **نظرية البنائية في النقد الأدبي**، مكتبة الأنجلو، القاهرة، ١٩٧٧. ويظل الكتاب الوحيد بالعربية عن جولدمان هو كتاب جمال شحيد: **في البنيوية التركيبية، دراسة في منهج لوسيان جولدمان** (دار ابن رشد، بيروت ١٩٨٢). وهو كتاب يتميز بدقة الفهم وإرداف التقديم بنصوص دالة شارحة من كتابات جولدمان.

Goldmann: **Genetic Structuralism in Sociology of litera-** (١٥)
ture, in Elizabeth Burns (ed), **Sociology of literature and Drama**. Penguin. 1973, pp 112-113.

Goldmann: **Towards a Sociology of the Novel**, trans: by (١٦)
Alan Sheridan. Tovistock Publications, 1975. p.156.

(١٧) اخترت «فيدرا» دون غيرها لأنها أكثر مسرحيات راسين شيوعا لدى القارئ العربي المعاصر، فقد مُثِّلت على المسرح القومي في القاهرة على سبيل المثال، وترجمت أكثر من مرة، ولعل أهم ترجماتها ترجمة

أونيس (على أحمد سعيد) التي صدرها بتلخيص لماح لدراسة رولان
بارت. وقد صدرت في سلسلة من المسرح العالمي، العدد ١١٨، وزارة
الإعلام - الكويت، يوليو ١٩٧٩.

Roland Barthes: **On Racine**, trans, by Rich and Howard, (١٨)
Octagon Books. 1977, p.169.

Cultural Creation, p.109. (١٩)

Towards a Sociology of the Novel, p.160. (٢٠)

The Hidden God, p.315. (٢١)

The Structuralist controversy, p.109. (٢٢)

Dialectical Materialism and literary History, (٢٣)
p.41.

George Biztray: **Marxist Models of literary criti-** (٢٤) انظر:
cism, Columbia University Press, 1978, p.88-101.

(٢٥) انظر كمثال لهذا النقد لجولمان:

Miriam Glucksmann: Lucien Goldmann: Humanist or Marx-
ist? in **New Left Review**, No. 56. July-Aug 1969.

Adrain Mellor: **The Hidden Method**; Lucien Goldmann (٢٦)
and the sociology of literature, in **Birmingham Universi-**
ty Working Papers in Cultural Studies, No. 4. Spring
1973. p.89.

Goldmann: *Criticism and Dogmatism in Literature*, in (٢٧)
David Cooper (ed) *The Dialectics of Literature*, Pelican.
1968. p. 145.

Ideology and Writing, p. 904. (٢٨)

Terry Eagleton: *Criticism and Ideology*, Humanities (٢٩)
Press, 1976, p.97.

Towards a Sociology of the Novel, p.156. *Cultural Crea-* (٣٠)
tion, pp144-145.

(٣١) نص المناظرة منشور كملحق للكتاب السابق ذكره.

Cultural Creation, pp.44-145

Terry Eagleton: *Marxism and literary Criticism*. Uni- (٣٢)
versity of California Press, p.32-34.

وقد نشرت ترجمتى لهذا الكتاب فى عدد «الأدب والإيديولوجيا» من
مجلة فصول سنة ١٩٨٥.

Georg Bisztray, *op. cit.*, p. 158. (٣٣)

Janet Wolff: *Hermeneutic philosophy and the sociology* (٣٤)
of Art, Routledge & Kegan Paul. 1973.

Serge Doubrovsky: *The New Criticism in France*, Trans. (٣٥)
by Derek Collman, the University of Chicago Press, 1973,
pp. 186-187.

البنوية والشعرية

ذكريات بنوية

كانت زيارتي الأولى الطويلة إلى الولايات المتحدة الأمريكية، عام ١٩٧٧، أستاذًا زائرًا لتدريس الأدب العربي في قسم اللغات الإفريقية وآدابها في جامعة وسكنسن ماديسون، حيث كانت اللغة العربية تعامل بوصفها إحدى اللغات الإفريقية، بعد أن أدّت الضغوط الصهيونية إلى طردها من دائرة اللغات السامية إلى دائرة اللغات الإفريقية. وقد تلقى أساتذة الدائرة الأخيرة اللغة العربية بالترحيب اللائق بوصفها إحدى لغاتهم الأساسية، وإحدى الآداب الإنسانية المهمة التي تشارك أدب القارة السوداء التطلع نفسه إلى عهد جديد من الاستقلال والتميز في عالم ما بعد الاستعمار.

وقد أتاح لي هؤلاء الأساتذة أن أعين بنوع من الفرحه التجاوب الملحوظ في مدى هذا التطلع بين الدراسات الأفروأمريكية وغيرها من دراسات الأقطار الخارجة من ليل الاستعمار الطويل. وهي دراسات كان لها حضورها البارز في جامعة وسكنسن التي أسهمت، أكاديميا، في تشكل خطاب ما بعد الاستعمار، وأبرزت بواكير ما جسده من قلق البحث عن أفق نوعي مختلف، أفق يسعى إلى تسليط الضوء على الخصوصيات الثقافية للهويات القومية في مناخ حمل دعاوى التعددية الثقافية والتحرر السياسى.

ورغم جاذبية هذا الأفق الواعد، والحماسة التي أثارها في النفوس، كانت البنيوية هي الصرعة التي صرعت الجميع ودفعتهم إلى اللهاث المحموم في تعرف أبعادها التي بدت واعدة بالكثير الكثير في ذلك الزمان. ولم يكن من الغريب، والأمر كذلك، أن تذوب حماسة اكتشاف خصوصية الهويات القومية في حماسة البنيوية، وأن تبدو البنيوية نفسها دعوة منهجية وحركة إنسانية تسقط الحواجز والتراتب بين الأماكن والأعراق، مؤكدة وحدة الأبنية الشاملة التي تنظم عقل الإنسان من حيث هو إنسان في كل مكان، بعيدا عن معانى التفرقة أو التمييز أو الهيمنة أو الاستغلال من أى نوع.

وكانت المفاجأة السارة أن جامعة وسكنسن خصصت لى غرفة الدكتور داستن كاول أستاذ الأدب العربى الذى رحب بأن أستخدم غرفته أثناء إجازته العلمية الطويلة، وترك مكتبته الخاصة فيها، لعلى أحتاج منها إلى ما يعيننى على التدريس والبحث. ولم تكن الكتب المصفوفة على الأرفف التى تشغل الغرفة (المطلة على بحيرة ميندوتا الجميلة) تتصل بدراسة الأدب العربى إلا فى جزء قليل منها. كان أغلبها ترجمات إنجليزية لكتابات ليفى شتراوس ورولان بارت وتودوروف وچيرار چينيت وميشيل فوكو وغيرهم، إلى جانب بعض مجموعات النصوص والدراسات البنيوية، والكتابات الأمريكية عنها، بادئة بكتاب فريدريك جيمسون عن «سجن اللغة» ومنتية بكتاب جوناثان كولر الشهير عن «شعرية البنيوية». ولم يخل الجزء القليل الخاص بالأدب

العربى من إثارة، فقد كان يشمل أعداد الدوريات التى نشرت قراءات بنيوية بالإنجليزية عن الشعر العربى القديم، خاصة بعد أن نشرت مارى كاثرين بيتسون دراستها عن الاستمرار البنىوى فى خمس من معلقات الشعر الجاهلى (سنة ١٩٧٠) قبل أن تظهر ثمار تطبيق «النظرية الشفاهية» للشعر فى دراسة توماس مونرو عن «النظم الشفاهى للشعر الجاهلى» (سنة ١٩٧٢). وكانت هذه الدراسة التمهيد المنهجى لأطروحة تلميذه ميشيل زفينر عن «التقاليد الشفاهية للشعر العربى القديم» التى صدرت سنة ١٩٧٨، وذلك فى السياق الذى بدأ من قبل أن تظهر ثمار تطبيق البنيوية فى دراسة الأدب العربى فى الولايات المتحدة.

وكانت أولى محاولات هذا التطبيق محاولة الصديق كمال أبوديب الرائدة التى نشر قسمها الأول سنة ١٩٧٥ فى الدورية العالمية لدراسات الشرق الأوسط عن معلقة لبيد، تحت عنوان «نحو تحليل بنىوى للشعر الجاهلى». ونشر قسمها الثانى سنة ١٩٧٦ فى دورية «أدبيات» عن «الرؤية الشهوية» فى معلقة امرئ القيس. وهى الدورية نفسها التى نشرت فى العامين اللاحقين (٧٧، ٧٨) دراسة عدنان حيدر الطويلة عن معلقة امرئ القيس «بنيتها ومعناها». وكانت هذه الدراسات بداية التحول الجذرى فى دراسة الأدب العربى القديم فى الولايات المتحدة، والانتقال بها من الفيلولوجيا التاريخية التقليدية للمؤسسات الاستشرافية (التي فجرها إدوارد سعيد بكتابه عن «الاستشراق» ١٩٧٨) إلى القراءة النقدية المعاصرة التى فتحت الباب على مصراعيه لدراسة

الأدب العربي الحديث والمعاصر.

كانت مكتبة داستن كاول هذه ذخيرتى الأولى للتزود بما ساعدنى على أن أسبّكمل ما لم أكن أعرفه عن البنيوية فى القاهرة، وأن أسهم فى النقاش الحماسى للحلقات البحثية، ومشكلات أعلامها وأساليبهم الخاصة فى الكتابة، والاتساع المتزايد لآفاقها التى شملت دراسة الأدب العربى القديم قبل الحديث. وكان لابد أن أقرأ ما لم أجده فى مكتبة الصديق داستن كاول، وأبحث لنفسى عن ما يمكن أن أكتشفه فى مكتبات مدينة ماديسون. وشيئاً فشيئاً، أصبحت غارقاً فى المشكلات التى أثارها البنيوية، والوعود التى تعد بها، والتى صرت أختبرها مع زملائى الجدد، المتحمسين للبنيوية والمتحمسين ضدها، أولئك الذين كانوا مصدر ثراء لأسئلتى التى لم تكف عن التخلق والتولد.

وكان عام ١٩٧٧ هو ذروة صعود البنيوية الفرنسية وهيمنتها على المشهد الثقافى الأمريكى، إذ بعد سنوات من المواجهات الحادة فى فرنسا، انتقلت البنيوية من العاصمة الفرنسية إلى المراكز الثقافية للولايات المتحدة، وبدأت دورة جديدة عاصفة من دورات التأويل والتفسير، التأثير والإلهام، المواجهة والدفاع. ولم تكن البنيوية قبل السبعينيات قد وصلت إلى ما وصلت إليه من هيمنة على المشهد الثقافى الأمريكى. كانت موضع اهتمام محدود فى المؤسسات الجامعية التى تابع بعضها بشغف موجات الصعود البنيوى فى فرنسا، منذ أن نشر

ليثى شتراوس كتابه «المدارات الشاجية» (١٩٥٥) الذى لم يمر فى هدوء مثل كتابه الأول الذى نشره قبل ست سنوات (١٩٤٩) عن «الأبنية الأولى للقرابة». والمؤكد أن كتابه الجديد الذى يمزج الذكرى بالملاحظة العلمية والتأصيل النظرى أثار نوعاً من الترابط المستفز، على مستوى الجدة، بينه وكتاب رولان بارت الذى صدر قبله بعامين (١٩٥٣) عن «درجة صفر الكتابة» وكتابات چاك لاكان عن «الذات فى نظرية فرويد» (٥٣-١٩٥٤). وكان ذلك على نحو أكد الحضور الصاعد لحركة جديدة فى الحياة الفكرية الفرنسية، ومن ثم تشكل مجموعة متميزة من الكتابات والكتاب الذين تجمعهم مطامح واحدة ورؤية منهجية جديدة. وشيئاً فشيئاً تواصل الحضور الصاعد للبنىوية، خصوصاً مع تتابع صدور كتب ليثى شتراوس («الأنثروبولوجيا البنيوية» ١٩٥٨، «مجال الأنثروبولوجيا» ١٩٦٠، «الطوطمية اليوم»، «العقل الوحشى» ١٩٦٢، «المطهو والنبي» ٦٤) وذلك فى موازاة كتب چاك لاكان («المفاهيم الأساسية فى التحليل النفسى» ٦٤، «كتابات» ٦٦) إلى جانب كتب ميشيل فوكو فى حفريات المعرفة، وأولها كتابه «الجنون والحضارة» ١٩٦١ الذى ظهر بعد سنوات من تتابع نتاج رولان بارت فى النقد الأدبى بكتب مثل «ميشليه» سنة ١٩٥٤، «أسطوريات» ١٩٥٧.

وقد أثار كتاب رولان بارت «عن راسين» (١٩٦٣) من ردود الفعل ما وصل بالمد البنىوى إلى ذروته خلال المعركة الحاسمة التى أشعلها الكتيب الذى أصدره ريمون بيكار ممثل

التقاليد اللانسونية فى السوربون بعنوان «نقد جديد أم دجل جديد»، وذلك على نحو دفع إلى ترجمة كتاب بارت «عن راسين» فى العام اللاحق مباشرة (١٩٦٤). وكان ذلك قبل أن يستحضر بارت نفسه قواه، ويستخلص من حصاد المعركة كتابه التأصيلي «النقد والحقيقة» (١٩٦٦) الذى أراده بياناً حاسماً للنقد الفرنسى الجديد: البنيوية.

ولا شك أن ترجمة كتاب بارت إلى الإنجليزية، بعد عام واحد، من صدوره وفى ذروة المعركة الفرنسية حول البنيوية بوجه عام، إنما هو أمر يكشف عن الأصداء التى كان يحدثها الجدل البنيوى الفرنسى على المستوى العالمى بعامه، والأمريكى بخاصة. ولم تكن مصادفة أن تصدر مجلة الدراسات الفرنسية فى جامعة ييل عدداً خاصاً عن البنيوية للمرة الأولى، من تحرير چاك إهرمان، فى السنة نفسها التى صدر فيها كتاب بارت «النقد والحقيقة». ويتضمن العدد تقديم چاك لاكان وترجمة دراسة له للمرة الأولى إلى الإنجليزية فى أمريكا، مع نصوص أخرى ودراسات، بالإضافة إلى قوائم ببليوجرافية وافية عن الإنجاز البنيوى فى علوم اللغة والأنثروبولوجيا والنفس والنقد الأدبى. وقام تودوروف بإعداد الببليوجرافيا الخاصة بالنقد الأدبى فى هذا العدد الذى أعيد طبعه كتاباً مستقلاً سنة ١٩٧٠. وكان ذلك فى سياق يؤكد تصاعد إيقاع ترجمة كتب ليفى شتراوس إلى اللغة الإنجليزية، وفى داخل أمريكا بوجه خاص، إذ لم ينته عقد الستينيات إلا وكانت أهم كتابات ليفى شتراوس متاحة للقارئ

الأمريكي. وأولها في الترجمة كتابه التأسيسي عن «الأنثروبولوجيا البنيوية» (١٩٦٣) وبعده «المطهو والنبي» (١٩٦٩) و«الأبنية الأولية للقراءة» (١٩٦٩). وكانت ترجمته بعد ظهور الترجمة البريطانية لكتاب «العقل الوحشي» (١٩٦٦). وقد أدى ذلك إلى تصاعد ترجمة بقية الكتابات البنيوية بوجه عام. وبعد ترجمة كتاب بارت «عن راسين» ترجم له كتاب «مبادئ السميولوجيا» (١٩٦٨)، كما ترجم ميشيل فوكو «الجنون والحضارة» (١٩٦٥).

وما إن نصل إلى السبعينيات حتى يتسارع الإيقاع، وتترجم أهم أعمال بارت («درجة صفر الكتابة»، «أسطوريات» ٧٢، «إس. زد» ٧٥، «لذة النص» ٧٦، «مقدمة إلى التحليل البنيوي للسرد»، «بارت بقلم بارت» ٧٧) وأعمال فوكو («نظام الأشياء» ٧٠، «حفريات المعرفة» ٧٢، «ميلاد العيادة» ٧٣، «والانضباط والعقاب» ٧٧، «تاريخ الجنس» ٧٨) وألتوسير («قراءة رأس المال» ٧٠، «لينين والفلسفة» ٧١، «السياسة والتاريخ» ٧٢، «ومن أجل ماركس» ٧٧). يضاف إلى ذلك كتب تودوروف («الفانتاستيك» ٧٣، «وشعرية النثر» ٧٧) مع «مختارات من كتابات لاكان» ٧٧، ومفاهيمه الأساسية للتحليل النفسي ٧٨. ولا يمر النصف الأول من السبعينيات إلا وقد أتيح للقارئ الأمريكي مطالعة كتاب كونراد كورنر ببلجيوجرافيا كتابات دى سوسير وما كتب حولها ١٨٧٠-١٩٧٠، ودراسته عن أصل نظرية دى سوسير وتطورها في الدراسات الغربية للغة (٧٣).

وكان كتاب دى سوسير العمدة «دروس فى علم اللغة العام» قد ترجم عام ١٩٥٩، وأعيد طبعه عام ١٩٦٦، قبل أربع سنوات من ترجمة كتاب إميل بنفينيست «مشكلات علم اللغة العام» وكتاب جان بياجيه عن «البنىوية» (١٩٧١).

ولكن لم تكن حركة التأثر والتأثير فى المد البنىوى، حركة وحيدة الاتجاه فى انتقالها من فرنسا إلى أمريكا، فهناك تقاطعات وتفاعلات وتبادل مواقع بين الأطراف. وإذا كانت البنىوية الفرنسية تنتسب إلى ليفى شتراوس الذى نظر إليه الجميع بوصفه الأب الروحى للحركة فى فرنسا، وأول من سبق إلى تطبيق النموذج المنهجى لعلم اللغة عند دى سوسير على البحث الأنثروبولوجى، والمناداة بتعميم ذلك فى مختلف مجالات العلوم الإنسانية، فإن ليفى شتراوس نفسه تلقى التلقين الأول لأصول البنىوية فى الولايات المتحدة، وكان ذلك حين لجأ إليها بعد الغزو النازى لفرنسا، حيث استقر فى نيويورك، وعمل فى المدرسة الحرة للدراسات العالية التى أسسها العلماء اللاجئون من الفرنسيين والبلجيك، وطوال السنوات الأربع التى شغل فيها رومان ياكوبسون منصب الأستاذية فى هذه المدرسة (٤٢-١٩٤٦) حضر ليفى شتراوس دروسه، وأفاد منها، ووجد فيها ما سبق أن وجده ياكوبسون فى «دروس» دى سوسير فى «علم اللغة» أعنى المنهج البنىوى الجديد الذى عاد به ليفى شتراوس إلى فرنسا، بعد انتهاء سنوات الحرب، وأخذ يؤصله فى ميدان الأنثروبولوجيا ضمن إنجازاته العلمية المختلفة. وهى

الإنجازات التي أضاف إليها إنشاءه مجلة «الإنسان» للعلوم الاجتماعية عام ١٩٦٠ مع حصوله على كرسي الأنثروبولوجيا في الكوليج دي فرانس. وقد شهدت تلك المجلة مشاركته أستاذه القديم (رومان ياكوبسون) في تقديم تحليل بنيوي لقصيدة بودلير «القطط» حين تصاعد الجدل البنيوي، بوصفه تحليلًا نموذجيًا للتناول البنيوي للنص الأدبي. وكان ذلك (عام ١٩٦٢) قبل أحد عشر عامًا من انتخاب ليقي شتراوس عضواً في الأكاديمية الفرنسية (١٩٧٣) وعام واحد من إصدار رولان بارت كتابه عن راسين الذي أقام المؤسسة الجامعية الفرنسية ولم يقعدها.

وقبل أن يشترك ياكوبسون وليقي شتراوس في قراءة قصيدة «القطط» بأربع سنوات، كان ياكوبسون يعلن (عام ١٩٥٨) ميلاد البنيوية في الولايات المتحدة، في العام نفسه الذي صدر كتاب «الأنثروبولوجيا البنيوية» في فرنسا. وكان ذلك في مؤتمر عن «الأسلوب في اللغة» انعقد في جامعة إنديانا، واشترك فيه مجموعة من علماء اللغة والنفس والأدب والأنثروبولوجيا في أمريكا. وكان نظام المؤتمر يقوم على الاستماع إلى بيان (تعقيب) ختامي بعد تقديم الأبحاث ومناقشتها، يليه أهم ممثلي علم اللغة وأكثرهم خبرة مقابل أهم ممثلي علم الأدب. وكان رينيه ويليك ابن الخامسة والخمسين من العمر في ذلك الوقت، وعميد الدراسات الأدبية الأمريكية، هو صاحب البيان الختامي عن الأدب. يقابله رومان ياكوبسون، ابن الثانية والستين من العمر، ممثل علم اللغة الصاعد (في معهد ماساشوستس للتكنولوجيا مع نوام

تشومسكى) الذى استطاع أن يسحب البساط من تحت أقدام دارسى الأدب، ويلقى بيانه الختامى الذى كان تأصيلاً جديداً، قلب الاتجاهات السائدة فى دراسة الأدب رأساً على عقب. وذلك هو بيان «الشعرية وعلم اللغة» الذى سرعان ما تحول إلى بيان استهلالى للحركة البنيوية فى أمريكا، بالقدر الذى أصبح إطاراً مرجعياً فى المناقشات البنيوية فى فرنسا نفسها، بعد ترجمته إلى الفرنسية.

وتتوالى الإنجازات البنيوية الأمريكية منذ ذلك العام إلى أن تؤكد حضورها الصاعد، وتفرض طرح السؤال اللافت الذى استهل به العدد الخاص بالبنيوية فى مجلة الدراسات الفرنسية فى جامعة ييل (تحرير چاك إهرمان ١٩٦٦) وهو: إلى أى مدى يمكن أن نعد البنيوية ظاهرة ثقافية فرنسية؟ وتبدأ الإجابة بأن نظرة سريعة إلى القوائم الببليوجرافية التى تختتم العدد تؤكد أن العالم لم ينتظر الفرنسيين ليكتشفوا البنيوية، وأنها جهد عالمى شاركت فيه العواصم المختلفة: جنيف، كوينهاجن، نيويورك، كمبردج -ماساشوستس. وإذا اقتصر الأمر على أمريكا فإن لها إسهاماتها البارزة فى علوم اللغة والأنثروبولوجيا، حتى من قبل أن تصبح البنيوية موضحة فى فرنسا. وهى إسهامات تشكلت داخل تقاليد أنجلو أمريكية طويلة، تؤكد خطأ القول بأن الفرنسيين هم الرواد فى مجال البنيوية. وتكتمل دلالة السؤال والإجابة بالدراسة المطولة التى تستهل الدراسات الأدبية فى العدد. أعنى دراسة جيفرى هارتمان عن «البنيوية: المغامرة

الأنجلو - الأمريكية» التي أخذ يعدد فيها أصول البنيوية فى التقاليد الأنجلو أمريكية على نحو يبدو معه الهدف من الدراسة قول شئ من قبيل: هذه بضاعتنا ردت إلينا، وإننا الأصل فى تلك البنيوية التى نقلها الفرنسيون، والتى تنبأ لها هارتمان بأنها ستكون حركة العهد الآتى الذى يخلف تأثيراً أصيلاً دائماً.

ولا تخلو دلالة دراسة هارتمان من إشارة إلى نزعة أمريكية لافتة، ذات علاقة متوترة بنزعة فرنسية مضادة، يشعر بها من يعرف المؤسسة الجامعية الأمريكية من داخلها. وأحسب أن هذا التوتر هو الذى دفع تودوروف (الذى اشترك بإعداد بيلوجرافيا النقد الأدبى فى العدد الخاص الذى أصدرته جامعة ييل عن البنيوية) إلى رد دعوى النزعة الأمريكية بطريقة بنيوية فرنسية، فقد توقف عند أهم الأسماء التى ذكرها هارتمان فى مجال نقد الأسطورة، وهو عماد دراسته، وكان نورثروب فراى، واختاره ليبدأ من إنجازه تأصيل شعرية الفانتاستيك فى كتابه الذى صدر فى العام نفسه والذى تحول فيه العدد الخاص عن البنيوية إلى كتاب (عام ١٩٧٠). ويشير تودوروف إلى كتاب نورثروب فراى (الذى توفى عام ١٩٩٠) "تشريح النقد" (١٩٥٧)، ويعدّه أكثر الأعمال النقدية المنشورة لفتاً للانتباه منذ الحرب العالمية الثانية، وذلك من حيث تأكيد ضرورة تناول الأدب استناداً إلى إطار تصوورى نابع من مسح استدلالى للحقل الأدبى، ودعوته إلى وجود عنصر علمى يميز به النقد الأدبى عن الطفيلية الأدبية وفرض الاتجاهات غير الأدبية على الأعمال

الأدبية، فضلا عن إيمانه أن العمل الأدبي - كالأعمال الفنية عموما - يشكل فيها نسقا متجانسا متلاحما، وأن هذا النسق لابد من دراسته دراسة آنية. ويضيف تودوروف إلى ذلك ما دعا إليه نورثروب فراى من أن الأعمال الأدبية تشير إلى ذاتها من حيث هى نسق لغوى خاص، وأن الأدب يخلقه الأدب وليس الواقع، كما أن الشعر لا تصنعه سوى القصائد. ويعد أن ينتهى تودوروف من تعداد الأفكار التى تميز بها كتاب فراى، يقول بأنه ما من واحدة من هذه الأفكار أصيلة فى اجتهاد فراى، وأنها موجودة من قبل عند مالارميه وفاليري، كما هى موجودة فى النقد الفرنسى المعاصر الذى يمثله بلانشو ورولان بارت وچيرار جينيت. ويضيف الشكليين الروس وإليوت ليكمل القائمة التى أغلبها فرنسى على نحو فاقع، ومن القارة الأوروبية ليكمل التعارض ما بين «القارة» و«أمريكا». والنتيجة المضمّنة متروكة لذكاء القارئ الذى عليها استنباط ما يريد أن يوصله تودوروف من أن أفضل أفكار فراى، فى كتابه الأكثر أهمية، منذ الحرب العالمية الثانية، هى من صنع النقد الفرنسى تخصيصا والقارة الأوروبية تعميما. وحين ينتقل تودوروف إلى دعوى العلمية التى نادى بها فراى، يقلبها عليه، وينتهى إلى أنها ظلت دعوى بلا تطبيق فعلى، لأن صاحبها دعا إلى علم لم يستطع أن يحققه أو يتوصل إليه. وذلك هو، تحديدا، ما حاول تودوروف القيام به، تأصيلا لما أسماه «علم النقد» أو «الشعرية».

الطريف حقا أن جفرى هارتمان الذى تحدث عن البنيوية،

من حيث هى مغامرة أنجلو - أمريكية، وتنبأ لها (عام ١٩٦٨) بأنها وعد العهد الآتى، سرعان ما انتقل منها إلى غيرها بعد أقل من عشر سنوات، وأصبح واحدا من حلقة جامعة ييل التى تحلقت حول «تفكيك» چاك ديريدا الذى نقض البنيوية من جذورها الديسوسيرية، وانتزع منها چاك لاكان ورولان بارت وچوليا كرستيفا، واستبدل بها فى الجامعات الأمريكية نقائضها، ابتداءً بجامعة ييل التى أصدرت أول عدد عن البنيوية، والتى كانت - فى الوقت نفسه - أول جامعة أمريكية تحتضن فلسفة «التفكيك»، وتتكون فيها النواة الأولى لممارساته وتنظيراته منذ أن أصدر بول دى مان كتابه «العمى والبصيرة» (١٩٧١). وهى النواة التى تحولت إلى حلقة فاعلة، مع الحضور المتصل لچاك ديريدا الذى تولى إدارة حلقة بحثية (سيمنار) فى هذه الجامعة لمدة خمسة أعوام (٧٥-١٩٨٠). وهى الفترة التى شهدت ترجمة كتابه «عن الكتابة» عام ١٩٧٤، بعد سنوات معدودة من صدره بالفرنسية داخل سياق أمريكى متغير، انتقل من مركزية البنيوية إلى التعددية الثقافية (غير المتكافئة) لخطابات المابعد: مابعد البنيوية ومابعد الحداثة ومابعد الاستعمار. والمابعد الأخير هو الذى انتهى إليه تودوروف، ووجد فيه ملاذه الواعد، بعد انزياح المد البنيوى حين انتقل من الكتابة عن «المبدأ الحوارى» إلى الكتابة عن «غزو أمريكا» (وقد ترجم بشير السباعى الكتاب الأخير ترجمة عربية متميزة فى القاهرة)، وأخيرا «عن التنوع الإنسانى» وهو كتاب عن النزعات الوطنية والعرقية والغربية فى الفكر

الفرنسي. وقد صدرت الطبعة الثانية لترجمته الإنجليزية سنة
١٩٩٣، ضمن سلسلة يشرف عليها إدوارد سعيد -أبرز الناطقين
في خطاب ما بعد الاستعمار.

فئة البنيوية

كانت البنيوية مبعوث العناية اللغوية الذي حمل بشارة العهد الآتى إلى العلوم الإنسانية ومنها النقد الأدبى، دالاً إياها على طريق الهداية المنهجية والجنة الموعودة للدراسة العلمية التى تؤسس النقد الأدبى بوصفه علماً من العلوم الإنسانية المنضبطة. وسواء تحدثنا عن البنيوية بوصفها حركة اجتماعية سياسية، أو بوصفها نشاطاً إيديولوجياً، فإنها تظل مشروعاً منهجياً بالدرجة الأولى، من حيث هى دعوة إلى تطبيق النموذج المنهجى الذى انبنى به علم اللغة عند دى سوسير (١٨٥٧-١٩١٣) سواء ما خلفه فى كتابه «دروس فى علم اللغة العام» الذى نشره تلامذته (عام ١٩١٦) بعد وفاته بثلاثة أعوام، أو فى الإضافات اللاحقة التى أبرزت من دروس دى سوسير وكتابات ما أشار إليه إشارة موجزة أو على سبيل التضمن واللتزم، وبخاصة إضافات المدرسة الشكلية الروسية التى بدأت نشاطها فى موسكو منذ النصف الثانى من العقد الأول من هذا القرن، فى موازاة عمل دى سوسير نفسه، ولم تتوقف بعد وفاته حيث واصلت العمل والإنجاز. وكان عملها وإنجازها مرحلة من مراحل التطور التى تصاعدت مع جهود حلقة براج (براغ) اللغوية فى تشيكوسلوفاكيا، تلك الحلقة التى انتقل إليها مركز البحث اللغوى الجديد الذى وصل إلى ازدهاره فى الثلاثينيات، وتحول من نزعة شكلية إلى نظرية بنيوية. ولم يتوقف هذا البحث إلا عندما

اجتاحت ألمانيا النازية تشيكوسلوفاكيا. ولكن بعد أن كان النموذج المنهجي الذي انطوت عليه النظرية قد وصل إلى طبيعته المتكاملة في شمولها الذي ينتظر شروق شمس على العلوم الإنسانية كلها.

وبدأت اللوامع الواعدة لهذا العهد من محاضرات ياكوبسون (١٨٩٦-١٩٨٢) التي كان يلقيها في المدرسة الحرة للدراسات العالمية في نيويورك (١٩٤٢-١٩٤٦) عن علم اللغة بوجه عام وعلم الأصوات بوجه خاص. وهي المحاضرات التي استمع إليها كلود ليفي شتراوس دارس الأنثروبولوجيا الشاب الذي اضطره الاحتلال النازي إلى الفرار من وطنه فرنسا إلى الولايات المتحدة، والعمل في المدرسة نفسها التي كان يعمل فيها ياكوبسون، حيث وجد في دروسه النموذج المنهجي الذي كان يبحث عنه منذ سنوات دون أن يعثر عليه. ويصف ليفي شتراوس هذه السنوات بقوله:

مرّ على وقت كنت فيه بنيويا دون أن أعرف ذلك، كأنتى السيد چوردان الذي ظل يتحدث النثر دون أن يعرف (في مسرحية مولير). وكانت محاضرات ياكوبسون هي التي كشفت لي أن ما كنت أحاول القيام به موجود بالفعل في الحقل المعرفي لعلم اللغة بوصفه مدرسة فكرية.

وفي الوقت الذي كان ليفي شتراوس يحاول الاستقرار في فرنسا، بعد عودته إليها مع انتهاء الحرب، ارتحل ناقد شاب كان

لا يزال واقعا تحت تأثير الفلسفة الوجودية، هو رولان بارت (١٩١٥-١٩٨٠) إلى الإسكندرية على الضفة الأخرى من البحر المتوسط، ليعمل مدرسا للغة الفرنسية فى جامعة الإسكندرية، بعيدا عن آثار الحرب فى فرنسا، ويبحثا عن مناخ طبيعى صحى يفيد صدره العليل. وهناك فى جامعة الإسكندرية، وجد ما وجده ليثى شتراوس فى المدرسة الحرة للدراسات العالية فى نيويورك، وتعرف على عالم لغة يقاربه فى العمر من أصل ليتوانى، يعمل مثله فى جامعة الإسكندرية، ويقوم بتدريس تاريخ اللغة الفرنسية فى إطار تقاليد نظرية دى سوسير وإنجازاتها، هو أوجريداس جوليان جريماس (١٩١٧-١٩٩٢) الذى كان قد حصل على درجة الدكتوراه من فرنسا (سنة ١٩٤٨) برسالة أولى عن «موضة الأزياء» (الموضوع نفسه الذى سوف ينشغل به بارت ويصدر عنه كتابه الشهير عن «نسق الموضة» عام ١٩٦٧) وهو دراسة معجمية لمفردات الثياب حسب جرائد عام ١٩٣٠ فى فرنسا، العام نفسه الذى كان موضوع أطروحته الثانوية التى قامت على توظيف البعد الأنى (السينكرونى) للتحليل اللغوى لدراسة مجموعة من مظاهر الحياة الاجتماعية الفرنسية عام ١٨٣٠ (وهى البداية التى حفرت فى ذهن رولان بارت إمكان دراسة جوانب اجتماعية أخرى مثل الإعلانات بالمنهج نفسه بعد تطويره).

وكما عاد ليثى شتراوس من نيويورك إلى باريس (١٩٤٧) ممتلئ الوعى بالمنهج البنيوى الذى تعلمه من ياكوبسون، والذي

كان عدته فى الفراغ من أطروحة الدكتوراه التى حصل عليها من جامعة باريس (سنة ١٩٤٨) فى العام نفسه الذى حصل فيه جريماس على درجة الدكتوراه، وقبل عام واحد من إصدار كتابه الأول «الأبنية الأولية للقرابة» (١٩٤٩)، وفى الوقت الذى بدأ يبشر فيه بأهمية توظيف النموذج المنهجى لعلم اللغة البنىوى فى العلوم الإنسانية، عاد رولان بارت إلى باريس، بعد سنوات عديدة من الرحيل، ممثلاً الوعى بالمنهج نفسه الذى كان عدته التى زاحمت الوجودية فى كتابه الأول «درجة صفر الكتابة» (١٩٥٣)، وانتزعت منه فى كتبه اللاحقة التى تتابعت مع تصاعد المد البنىوى الذى وجد فى باريس «فترينة الدنيا» التى تعرضه على العالم كله، خصوصاً بعد أن نشر ليفى شتراوس كتابه «المدارات الشاجية» عام ١٩٥٥، وهو العام الذى أخذ يشهد بداية تحول المشروع المنهجى إلى «موضة» وحركة سياسية اجتماعية ونشاط إيديولوجى فى الوقت نفسه.

وكانت بداية هذا التحول من داخل حقل علم الإنسان (الأنثروبولوجيا) حيث انطلق المسعى الذى قاده ليفى شتراوس (الأب الروحى للبنىوية الفرنسية) لاكتشاف القوانين الشاملة التى تكمن وراء الظواهر النسقية التى تجاوز الزمان والعرق، ولا تعترف بالمفاهيم التقليدية للتطور، أو تأبه بالفوارق المزعومة بين متقدم أو متخلف، مركز أو هامش. وكانت هذه الوحدة النسقية هى غاية العلم الجديد الذى خايلت به كتابات ليفى شتراوس الأذهان، ووعدت الذين استجابوا إلى غوايته بفهم جديد للإنسان

والعقل الإنسانى كلى الوجود والحضور. وكان هذا الفهم الجديد يعنى التخلّى عن النزعات التاريخية السابقة، ويقترن بنفور غريزى من فكرة وجود نمط شامل من التاريخ الصاعد، فقد كان العلم البنيوى يستبدل بذلك إيماننا بالحضور الآنى المحايث لقوانين العقل الإنسانى، الكامنة وراء التجليات المتغيرة التى لا تؤثر على الأبنية الثابتة القارة، وذلك على نحو يخيل الأذهان بإنسانية براءة كلية الحضور، خارج التصنيفات التطورية للتاريخ. ورغم عبارة ليفى شتراوس الشهيرة التى أطلقها على الإنسان «طفل الفلسفة الذى أفسده التدليل»، وما ذهب إليه من أن الهدف النهائى من العلوم الإنسانية ليس «تأسيس الإنسان» وإنما نقضه، على نحو أصبح معه «موت الإنسان» شعارا دالا على البنيوية، فقد وجد الكثيرون فى نقد ليفى شتراوس لنزعة جان بول سارتر (١٩٠٥-١٩٨٠) التاريخية دعما للحضور الإنسانى المحايث، خصوصا حين يهاجم ليفى شتراوس، فى كتابه «العقل الوحشى» (١٩٦٢) مفهوم المادية التاريخية عند سارتر، محاولا دحض افتراضه أن مجتمع اليوم أرقى من ثقافات الماضى، وذلك على نحو ما فعل فى كتابه «نقد العقل الجدلى» (١٩٦٠). وحين استبدل ليفى شتراوس بالنظرة التطورية (الدياكرونية) نظرة أنية (سينكرونية) إلى التاريخ، لاتقوم على التمييز بين الثقافات على أساس من نظريات التطور أو نظريات التفوق العرقى، بدأ لهؤلاء الكثيرون أنه يتحدث عن معنى إنسانى حافل بالوعد لثقافات العالم الثالث التى اعتاد

الجميع النظر إليها على أنها ثقافات متخلفة بالقياس إلى ثقافة العالم الأول المتقدمة.

وأخذ البعض من مثقفي العالم الثالث، نتيجة لذلك، يتحدث عن إنسانية مغايرة تنطوى عليها البنيوية رغم إعلانها موت الإنسان، ويقرن ذلك بما يعد به بحثها عن القوانين المحايثة المجاوزة للتاريخ من انزياح التمييز العرقي بين الشمال والجنوب، والتراتب القمعي بين المتقدم والمتخلف، والفصل في القيمة بين الآداب الشفاهية والكتابة، ومراجعة مفاهيم التقدم والتخلف، ورد الاعتبار إلى ما أطلق عليه الأنثروبولوجيون التقليديون اسم «العقل البدائي»، والنظر إليه في ضوء جديد، يتخلص من وصمة التدنى التي تخلعها عليه التسمية، ويرقى به إلى ما يستحقه إنجازُه بوصفه صانع ثقافة لا تختلف، على مستوى البنية العميقة، عن غيرها من الثقافات اللاحقة التي تتشدد بالتقدم والتفوق.

وكان الكثيرون يتحدثون، في موازاة هذه النزعة الإنسانية الجديدة، عن البشارة المنهجية التي تنتقل بالعلوم الإنسانية إلى عهد جديد يوازى تقدم العلوم الطبيعية، ويؤسس أجرومية شاملة لبحث الظواهر البشرية، ومن ثم إدراك المبادئ الكلية المنظمة لها. وكلمة السر في ذلك هي المنهج البنيوي الذي دفع جيلا كاملا من الباحثين إلى حفظ عبارات رومان ياكوبسون التي تقول إننا إذا صغنا صيغة رائدة عن العالم اليوم، في أكثر تجلياته وضوحا، فلن نجد أكثر دلالة عليه من صيغة البنيوية، فالعلم الحديث لا

يعالج أية مجموعة من الظواهر بوصفها تجمعاً آلياً بل بوصفها كلا بنيوياً. هذا الكلُّ هو النسق الذى تتحدد مهمة العلم الأساسية فى الكشف عن القوانين الداخلية المكونة له، خاصة بعد أن لم تعد بؤرة الاهتمام العلمى منصبّة على الباعث الخارجى وإنما على المبادئ الداخلية للتطور، وبعد أن تخلى المفهوم الآلى للعمليات عن موضعه التقليدى إلى السؤال عن الوظائف النسقية لهذه العمليات.

وكانت الترجمة العملية لمثل هذه العبارات تعنى، عند ليثى شتراوس، أن العلوم الإنسانية أصبحت قادرة، للمرة الأولى، على صياغة أبعاد العلاقة الضرورية للبحث المنهجى، وأن هذه الأبعاد تتأسس بأربعة مبادئ منهجية: أولها التركيز على البنية التحتية اللاواعية لكل ظاهرة من الظواهر فى مستواها العلائقى المحيث. وثانيها أنه لا معنى لأى عنصر من العناصر فى الظاهرة بوصفه كيانه مستقلاً، وإنما بوصفه عنصراً لا دلالة له إلا فى علاقته بغيره، سواء على مستوى التراصف أو الترابط، علاقات الحضور أو علاقات الغياب، حيث تبرز العلائقية قيمة الاختلاف وأهمية الثنائية المتعارضة. وإذا كان دى سوسير أكد فى دروسه أن كل دال من دوال اللغة يكتسب قيمته الدلالية بواسطة وضعه الخلفى داخل بنية اللغة فإن ذلك يعنى، خارج اللغة، ومن منظور التطبيق على الظواهر الإنسانية، أن كل عنصر من عناصرها لا يكتسب قيمته الدلالية فى البنية إلا بوضعه الخلفى داخل علاقات النسق. وتقودنا هذه العلاقات إلى المبدأ المنهجى الثالث، وهو المبدأ الذى

يتحدد به مفهوم النسق، ومن ثم مفهوم البنية من حيث هو المجموع المتفاعل من العلاقات وليس حاصل جمع الأجزاء المتجاورة. هذا النسق هو الهدف الذى يسعى البحث المنهجى إلى اكتشافه فى شموله الكلى الذى يغير مجموع عناصره. أعنى الشمول الذى يقضى إلى المبدأ الأخير الذى يقرن غاية البحث المنهجى باكتشاف القوانين الكلية التى تنطوى عليها الظواهر، سواء بالاستنباط أو الاستدلال، وذلك على نحو يؤكد وحدة العقل الإنسانى ووحدة القوانين التى يعمل على أساسها فى مختلف تجلياتها.

وتؤسس هذه المبادئ، فى النهاية، حالة وعى يطلق عليها رولان بارت اسم النشاط البنىوى، من حيث هى نشاط يقوم على تتابع منظم لعدد من العمليات العقلية. هذه العمليات تبدأ بتفكيك الموضوع لاكتشاف عناصره التكوينية من ناحية، والعلاقات التى تصل بين هذه العناصر من ناحية ثانية. وتنتهى بإعادة تركيب الموضوع، لكن على النحو الذى يكشف عن الدلالة العلائقية للعناصر وأبعادها الوظيفية. والمسافة بين الموضوعات، قبل هذا التفكيك - التركيب وبعده، هى المسافة بين العالم حيث لا يبدو معناه والعالم نفسه بعد أن تتكشف معانى ووظائف موضوعاته، فالنشاط البنىوى هو النشاط الذى تتشكل به دلالة صور الموضوعات فى الذهن بعد أن يعيد العقل تركيبها على أنها أبنية مقعمة بالدلالة.

وإذا كان هذا النشاط يقوم على بناء الموضوع بعد

تفكيكه، بطريقة تكشف عن قواعده الوظيفية، فإن لازم هذا النشاط هو اكتشاف البنية التي هي العلة الصورية للموضوع بمعنى من المعانى. ولكنها العلة التي تقترن بصورة الموضوع فى العقل، حين يجرد العقل من الموضوع نموذجاً عقلياً هو صورته التى توازيه. وإذا قلنا إن النموذج ليس البنية، لأن البنية فى الموضوع دائماً، كامنة، مستترة، وليست إسقاطاً من الذات على الموضوع، فإن النموذج هو التمثيل العقلى للبنية فيما يقول إندريه مارتينييه، أى هو الصورة التى يدركها بها العقل. هذه الصورة أو النموذج هى العقل مضافاً إلى الموضوع. وتعنى هذه الإضافة قيمة إنسانية أساسية عند رولان بارت، من حيث هى الإنسان نفسه: تاريخه، مواقفه، حريته، معركته ضد المصادفة، والمقاومة التى تقاوم بها الطبيعة عقله حين يكتشف معناها، وحين يعيد صنعها فى صور أو نماذج تماثل أبنيتها، ليس على سبيل النسخ وإنما على سبيل التعقل، فالنشاط البنىوى هو الفعل المعرفى الذى يعيد به الإنسان اكتشاف الأنساق الوظيفية، لكن من حيث هى أنساق تظل، دائماً، فى حاجة إلى إعادة الاكتشاف.

ويعنى ذلك، فى النهاية، أن الإدراك البنىوى للعالم هو الإدراك الذى يرد التكثر إلى وحدة، والتشتت إلى قواعد منظمة، والتجزؤ إلى عناصر علائقية، فهو إدراك ينطوى على نوع من الاسطيقا العقلانية التى ترى الجمال فى النظام، وتبحث عن النظام فى القوضى، لتتحول بها إلى جمال النظام، أو نظام الجمال بلا فارق. فالجمال هو النظام، والنظام هو الجمال، فى

الإدراك البنيوي للعالم. أما العالم نفسه فهو مجموعة من الأنساق التي تشكل الإنسان، أبنية مجاوزة للفرد، لا تنطوى على مركزية الذات الفاعلة، فمركز البنية هو تعامد علاقاتها الرأسية على الأفقية في غيبة من الفاعل، ودون تدخل من الذات. فالذات نفسها، في التحليل البنيوي الأخير، ليست سوى مفعول البنية التي تنطق الإنسان الذي يحسب نفسه ينطقها.

هذا الجانب القدرى من البنيوية يجتذب إليه العقول التي تستريح إلى الأنظمة التي تحتويها وتشعرها بالأمان داخل النسق، فتحميمها من الوجود الخطر القلق الذي تتداعى فيه الأشياء بما يشعر الإنسان أنه وحيد في مواجهة العدم. هذا العدم نفسه، خاصة في دلالاته الوجودية، هو ما تنفيه البنيوية، حين ترد المعنى إلى العالم، وتفهم العالم بوصفه أنساقاً وراء أنساق من الأبنية الدالة التي تنتظر الكشف عن مغزاها ووظائفها، فالعالم بنية كبرى دالة، لها وجودها الآنى الذي يجاوز التاريخ المتعاقب. والإنسان هو ناطق الدلالة الذي يعيد اكتشاف نفسه حين يؤكد بنية العالم، وحين يجعل من نفسه عنصراً من العناصر التي تتناغم بها علاقات الوجود الكلى لهذه البنية. والبصيرة البنيوية لهذا الإنسان، ناطق الدلالة، هي البصيرة التي تنفذ إلى النظام الكامن وراء الظواهر، وخلف المظاهر، فترى جمال الوحدة النسقية وراء التكرار والتشتت والتجزؤ والتبعثر والتقلب والتحول والفوضى، فتكشف عن النسق الذي تترابط به العلاقات التكوينية للأبنية. ولا مغايرة في فعل هذه البصيرة، من

حيث علاقتها بما نطلق عليه صفة الجمالى أو علاقتها بما ننفى عنه هذه الصفة، فالنظام الذى هو الجمال موجود وراء سطح الأشياء والظواهر فى أبنيتها الكامنة أو الشاملة. والشكل النهائى للبنية، والبنية تجريد صورى شكلى فى التحليل الأخير، هو المظهر العلائقى لجمال النظام أو نظام الجمال الذى يقتنصه العقل، أو يكشف عن وجوده الكامن الشامل، وراء الظواهر المتغيرة المتكثرة للعالم أو الكون الذى يتحول إلى أنساق من الأبنية الكلية التى تصنع الإنسان وتنطقه من قبل ومن بعد.

عن الشعرية

كانت "الشعرية" بشارة الوعد البنيوي في النقد الأدبي، وعلامة "العلم" الذي يحقق الأحلام المنهجية التي خايلت نقاد الأدب ومفكره، منذ أن أطلق أرسطو على كتابه الذي يحدد الأنواع الأدبية، ويصنّفها، ويردها إلى عناصرها المكونة، اسم الشعرية (البويطيقا). وظلت هذه الشعرية، منذ أن وضعها أرسطو عنوانا على كتابه وهدفا لمسعا في القرن الرابع قبل الميلاد، قرينة اللغة الشارحة، وعلامة البحث عن قواعد الأدب وأصوله، إلى أن عمّدتها البنيوية بوصفها العلم الجديد الذي يكشف عن القوانين العامة للأدب، من حيث هي قوانين محايدة تنتج عنها الأعمال الأدبية وتجليها في آن. وكانت دلالة الشعرية، في هذا السياق البنيوي، قريبة من الدلالة التي نبّه إليها بول فاليري (١٨٧١-١٩٤٥) عندما أكد أن اسم الشعرية يبدو مناسبا للدراسة العامة التي تهتم بالقوانين المحايثة، الصورية، خصوصا إذا وضعنا المعنى الاشتقاقي للكلمة في الاعتبار، من حيث هي اسم لكل ما يتصل بخلق وإنشاء الأعمال التي تتخذ من اللغة جوهرها وأداة لها، وليس بالمعنى الضيق المقصور على مجموعة من القواعد الجمالية أو المعايير المتعلقة بالشعر.

وكما كانت الشعرية المصطلح المناسب للعلم الجديد، من حيث استقلاله بمنهجه الذي ينبع من التميز الوظيفي لمادته، كانت تسمية المصطلح دالة على الخاصية النوعية لمادة العلم، وذلك في

إشارتها إلى "الأدبية" بوصفها المجال النوعي المتميز للعلم
الصورى الذى لا يهتم بالنصوص الأدبية المفردة وإنما بالخطاب
الأدبى المجرد، من حيث هو المبدأ المولّد لعدد غير محدود من
النصوص. هكذا، أصبحت الشعرية العلم الكلى البنية العامة
(الأدبية) التى ليست حاصل جمع الظواهر التجريبية للأعمال
الأدبية، وإنما النسق الكلى الذى يتجاوز هذه الأعمال ويحتويها.
وليس معنى ذلك أن الشعرية لا تهتم بالأعمال الأدبية المفردة أو
تسقطها من الاعتبار. إنها لا تهتم بها فى ذاتها من حيث هى
مجلّى لحدوس فريدة غير قابلة للتكرار، ولكنها تهتم بها من حيث
هى مجال للنسق الكلى، أو مظاهر للقوانين المحايثة التى ينطوى
عليها كل عمل أدبى، وذلك فى صلته النوعية بغيره من الأعمال
التى تتولد مثله عن القانون الكلى أو نسق البنية (الأدبية)
الشاملة.

وقد تم تحديد مجال الشعرية، من هذا المنظور، فى
تعارضها مع اتجاهين: الأول هو النقد الذى يتناول الأعمال
الأدبية، ولكنه لا يسعى إلى تأسيس علم وإنما إلى شرح الحضور
المتفرد لكل عمل على حدة. والثانى العلوم الإنسانية التى تتناول
الأدب بوصفه موضوعا لمعرفتها، أو مجالا لتجلّى قوانينها
التاريخية أو الاجتماعية أو النفسية أو الأنثروبولوجية.. إلخ.
ويطلق تودوروف اسم "التفسير" على الاتجاه الأول، مقابل الاتجاه
الثانى الذى يقترن بالعلوم التى ترى فى الأدب مجلى لبنية مجردة
غير أدبية تنتمى إلى مجالها المعرفى. أما اتجاه التفسير فهو

الاتجاه الذى اتخذ أسماء متعددة (التأويل، التعليق، شرح النصوص، القراءة الفاحصة، التحليل، أو حتى النقد الأدبى) يجمع بينها النظر إلى العمل الأدبى بوصفه موضوعا معرفيا فريدا قائما بذاته، مكتفيا بنفسه. وإذا كان هدف التفسير المعلن، عادة، هو تسمية معنى العمل أو إنطاق ما هو كامن فيه، ومن ثم إخلاص الذات لموضوعها أو الفناء فى الآخر (العمل) الذى يمحو الذات، فإن هذا الهدف لا يتحقق فعليا، ويظل أقرب إلى التخيل منه إلى الواقع فيما يرى تودوروف، ذلك لأن التفسير لا يسمى المعنى فى العمل وإنما يسمى أخذ المعانى الممكنة. أحد المعانى الذى هو مجلى للذات القارئة قبل أن يكون مجلى للعمل نفسه، فكل تفسير قراءة، وليست هناك قراءة محايدة ما ظل هناك قارئ. وما تفعله القراءة، والأمر كذلك، هو إضافة ما تريد إلى النص، وقمع ما لا ترغب فيه.

ولم تكن محاولات الوصول إلى "نقد علمى" طوال القرن التاسع عشر، حيث النقد الذى ارتبط بأحلام النزعة الوضعية فى العلوم الإنسانية، سوى مجلى جديد للنزعة التى انطوى عليها التفسير، فى بحثه عن كيفية الوصول إلى وصف محايد للعمل الأدبى. هذه النزعة لا تختلف، فى التحليل الأخير، عن النزعة التى تنطوى عليها العلوم الإنسانية، حيث النظر إلى العمل بوصفه صدى لحضور آخر، مجلى لقانون غير أدبى، وحيث الهدف من تناول الأعمال الأدبية هو تأسيس القواعد العامة التى

تنتج العمل الأدبي على المستوى الاجتماعى أو النفسى أو التاريخى أو الأنثروبولوجى.

وسواء كنا نتحدث عن هذه النزعة أو تلك فإن القاسم المشترك بينهما هو إنكار الخصائص المحايثة فى الأعمال الأدبية، وتحويل مقاربتها إلى نوع من الترجمة أو فك الشفرة نتيجة افتراض أن هذه الأعمال "تعبير" عن شئ خارجها. وسواء كانت طبيعة هذا الشئ نفسية أو اجتماعية أو تاريخية فإنها تظل طبيعة منتسبة إلى العلم الذى يبحث عن القانون (النفسى، الاجتماعى، التاريخى) الذى يفسرها وليس إلى علم خاص بالأدب نفسه.

وكان وعد الشعرية، فى هذا السياق، هو القضاء على اغتراب الأدب، ما بين اتجاه التفسير- النقد الذى يسقط على الأعمال الأدبية ذات قارئه، واتجاه العلوم الإنسانية التى تسقط همومها غير الأدبية على الأدب. ولذلك مايزت الشعرية حدودها، على سبيل التضاد، فى مواجهة التفسير- النقد بعدم السعى إلى تسمية معنى للعمل الأدبى، والتركيز على معرفة القوانين العامة التى تتحكم فى إنتاجه. ومايزت نفسها مقابل العلوم الإنسانية الأخرى، بأنها تبحث عن هذه القوانين داخل الأدب وليس خارجه، فهى علم أدبى يتميز بالتجريد الذى يقترب بالبحث الصورى عن القوانين العامة، ويتميز بالمحايثة لأنه يحصر بحثه داخل الأعمال الأدبية من حيث هى مجلى لقوانين داخلية.

وقد وجدت الشعرية فى الفكر البنىوى أقوى دافع على تأسيسها، خصوصا أن النموذج اللغوى لهذا الفكر خايل

الأذهان بإمكان الكشف عن القوانين الحايشة لكل أشكال الممارسات اللغوية. ووجد الفكر البنيوي في الشعرية المجال الأمثل لممارسته الأدبية. وحدد بؤرة اهتمامها، كما في كل الممارسات البنيوية، بالتوظيف النسقي للوحدات الأساسية والعلاقات التي تحدد إنتاج الرسالة اللغوية، وهي الشعرية في حالة الأدب، حيث الأولوية للكشف عن مجموعة القواعد والعمليات التي تغدو بها النصوص الأدبية ممكنة من ناحية، ومنتجة للدلالة الأدبية من ناحية ثانية. ولذلك يقول تودوروف إنه لا يمكن للشعرية إلا أن تكون بنيوية وإن كل الشعرية تظل بنيوية ما ظل موضوعها ليس حاصل جمع الظواهر التجريبية (الأعمال الأدبية) وإنما البنية المجردة نفسها، وهي الأدب، فضلا عن أن محاولة تقديم أية وجهة نظر علمية في أى مجال كانت دائما، وبالفعل، بنيوية.

وطبيعى، والأمـر كذلك، أن تكون إنجازات علم اللغة الحديث. (دى سوسير وأتباعه) حاسمة في تشكيل أهداف الشعرية وتحديد مجالها الوظيفى. فعلم اللغة هو الذى بدأ التحول الحاسم فى دراسة الظواهر اللغوية ومن ثم الإنسانية، والانتقال بمحور الاهتمام من تفسير التلفظ الفردى إلى القوانين التي تسمح لهذا التلفظ أن يتموضع فى نسق يجعله قابلاً للفهم. وقد تحولت مبادئ التمييز الأساسية التي صاغها دى سوسير وطورها أتباعه، إلى مبادئ تمييز أساسية فى الشعرية. وأولها التمييز بين دراسة التعاقب (الدياكرونية) والدراسة الآنية

(السينكرونية). وثانيها التمييز بين التحقق الفردي للحدث اللغوى (الكلام) والنسق (اللغة) الذى تتحرك الأحداث الفردية فى إطاره وحسب قوانينه. وإذا رددنا الاهتمام بالنسق الثابت، من حيث اكتشافه الثابت وراء المتغير من الأحداث الفردية، على الاهتمام بالدراسة الآنية التى تسعى إلى اكتشاف هذا النسق فى حضوره العلائقى المحيطة لحظة المقاربة المنهجية، كنا إزاء المبدأ المنهجى المهيمن على الشعرية من حيث هى اكتشاف الأنساق الآنية.

ويعنى ذلك أن الأولوية فى الشعرية هى للحضور العلائقى للنسق فى لحظة اكتشافه، تلك اللحظة التى هى فعل معرفى، تقارب فيها الذات العارفة موضوعها بطريقة تؤدى إلى تثبيت عناصر هذا الموضوع فى زمن الحضور الآنى الذى هو زمن المقاربة المنهجية. وهو الزمن الذى يضع كل الاعتبارات الأخرى ما بين قوسين، ويرجئ الحكم عليها، ليصفو الحدس المنهجى، ويكتمل تركيزه على الحضور العلائقى للنسق الذى يسعى المنهج إلى اكتشافه وحده، وراء الركام المتعدد من الأعمال والمتغير المتنافر من الظواهر.

ولا تتناقض هذه الأولوية للبعد الآنى (السينكرونى) فى الشعرية مع البعد الخاص بالتعاقب (الدياكرونى) وهو البعد المتصل بالتطور والتغير. وقد أكد الشكليون الروس، الآباء الأول للشعرية، أن تاريخ الأدب والفن يتميز بشبكة من القوانين البنوية، شأنه شأن السلاسل التاريخية الموازية له. هذه القوانين هى وسيلتنا لكى نؤسس بطريقة علمية العلاقة المتبادلة بين

سلسلة التاريخ الأدبي وغيرها من السلاسل التاريخية. ويعنى ذلك أن تاريخ النسق نسق بدوره ما ظل محافظا على طبيعته العلائقية بوصفه بنية، وأن النزعة الآتية (السينكرونية) الخالصة ليست سوى وهم خالص، فكل نسق أنى له ماضيه ومستقبله، من حيث كون الماضى والمستقبل عنصريين بنائيين لا يمكن فصلهما عن النسق. والواقع أن التعارض بين الآتى والمتعاقب يكتسب معنى جديدا، لو فهمناه على أنه تعارض بين حالين من النظر إلى النسق نفسه من حيث علاقته بالزمن، وليس تعارضا بين مفهوم النسق ومفهوم التغير فى الزمن، فكل نسق يوجد بوصفه لحظة من لحظات تغير، والتغير له طبيعة نسقية بالضرورة.

هكذا، انتهى تودوروف، فى آخر صياغات كتابه الشعرية، إلى أن دراسة التغير جزء متكامل من الشعرية، ما ظلت هذه الدراسة تهتم بالمقولات المجردة للخطاب الأدبي وليس الأعمال الفردية. وكان ذلك يعنى الحديث عن "الشعرية العامة" التى تركز على المحايثة الآتية للأدب، مقابل الحديث عن "شعرية التعاقب" التى هى التاريخ الأدبي فى ثوبه البنيوى وطموحه المنهجى فى أن يكون تاريخا للأنساق. ولكن إذا كانت مهمة التاريخ الأدبي هى دراسة التغير فى كل نوع أدبي، فإن هذه الدراسة لا تكتمل إلا بدراسة مستويين فى الوقت نفسه: مستوى النظر إلى التعاقب (دياكرونيا) كما فعل باختين الذى درس متغيرات النوع فى نمط بعينه. ومستوى النظر الآتى إلى علاقات الأنواع بعضها ببعض. ويفضى هذا التجاوب إلى مهمة أخرى للتاريخ الأدبي (شعرية

التعاقب) وهى مهمة تحديد قوانين التغير التى تتصل بتحول الحقبة الأدبية إلى أخرى، ذلك التحول الذى يوازى الانتقال من "النموذج العضوى" للتاريخ الأدبى (حيث النظر إلى تحولات النوع بوصفها تحولات الكائن الحى: ولادة، نضج، ذبول، موت) إلى "النموذج الجدلى" (الذى يواجه فيه التصور نقيضه لينحل التعارض بينهما فى مركب جديد).

وإذا كان مفهوم النسق، من منظور هذه المهمة، لا يتطابق مع المفهوم التقليدى للحقبة الزمنية، فإن مفهوم الحقبة النسقى يشمل أعمال الأدب والفن وثيقة الصلة، كما يشمل الأعمال التى تدخل فى دائرة النسق نفسه للحقبة سواء أكانت من الآداب الأجنبية أم من الحقب السابقة. وحين يتجاوز هذا المفهوم مع غيره فى علاقات التعاقب، تظهر قوانين التغير فى طابعها النسقى، وتتيح لنا تفسير آليات التغير نفسها. ولكن نلزم ملاحظة أن القوانين الحاثة لتاريخ الأدب، وإن ساعدتنا على تحديد خاصية كل تغير نوعى فى الأنساق الأدبية، فإنها لا تسمح بتفسير سرعة التغير، أو اختيار سبيل دون غيره عندما توجد سبل مختلفة أو اختيارات متعددة نظريا، فالقوانين الحاثة للتطور (التغير) الأدبى تشكل معادلة غير حتمية تسمح بعدد ممكن من الحلول، ولكنها لا تحتم حلاً بعينه، فذلك أمر يعتمد بالدرجة الأولى على تحليل العلاقة المتبادلة بين السلسلة (الأنساق) الأدبية وغيرها من السلاسل (الأنساق) التاريخية. هذه العلاقة المتبادلة، بدورها، تنطوى على قوانينها البنيوية

الخاصة التي يجب أن تخضع للبحث، خصوصاً في حركة التحليل المركبة التي لا تفصل الاهتمام بالقوانين الحاثة لكل نسق عن الاهتمام بالعلاقة المتبادلة بين الأنساق.

وإذا وضعنا هذا الفهم لمهام شعرية التعاقب في علاقة إكمالية مع الشعرية العامة، من حيث التجاوب المفترض في الوظائف النسقية، أمكن أن نلاحظ أن التعارض بين الآن (السينكروني) والمتعاقب (الدياكروني)، من منظور الشعرية، على الأقل في مراحل نضجها، ليس تعاقباً بين قطبين متعادين ينفي وجود أحدهما الآخر، وإنما تعارض بين قطبين يكمل كل منهما وظيفة الآخر في البنية النظرية الشاملة للعلم. وإذا كانت الشعرية استبدلت بفكرة الحشد الآلي للمواد مفهوم النسق، أو البنية، في هذا السياق الإكمالي، فإنها فهمت النسق، ومن ثم البنية، بوصفهما تجريداً، يمكن النظر إليه، أنياً، من حيث تعاقبه أو من حيث تزامنه، فالزمن الحاضر أو الزمن المتعاقب ليس العلة الحاسمة في الشعرية، وإنما علائقية الإدراك الآن لهذا أو ذاك هي العامل الحاسم.

ولكن، للأسف، فإن الإمكانيات الإيجابية للتجاوب بين البعد الآن (السينكروني) والبعد المتعاقب (الدياكروني) لم تتحقق إلا في الصياغة التصورية للعلم وليس الممارسة العملية في الشعرية، وذلك على نحو حال دون الوصول إلى جعل شعرية التعاقب الوجه الآخر الذي يظل فاعلاً في الشعرية العامة. والعكس صحيح بالقدر نفسه، فكل إدراك أني للزمن الحاضر من البنية هو إدراك

لحيثها النسقى الذى يحده الماضى من ناحية والمستقبل من ناحية أخرى. وبدل هذا التصور الإكمالى، حيث كان يمكن للأطراف أن تتفاعل، استقر الأمر على صياغة تصويرية تفصل بين البعد الآنى والبعد المتعاقب، والمضى فى ممارسة تحدد العلاقة بينهما فى نوع من التراتب القمعى الذى تعلو فيه مرتبة الآنى (السينكرونى) بالقياس إلى المتعاقب (الدياكرونى) على نحو يؤدى إلى هيمنة الأول المطلقة على الثانى.

ورغم محاولة تودوروف صياغة شعرية التعاقب، والاستدراك بها على النظرة غير التاريخية التى ظلت تهمة ملصقة بالبنوية، فإن تركيزه الغالب كان على البعد الآنى من الشعرية، وهو البعد الذى ظل بمثابة العنصر المهيمن على كل تحليل بنوي فى مجال الشعرية. وأية ذلك أن تودوروف نفسه، فى أغلب صفحات كتابه عن الشعرية، لا يرى منها سوى بعدها الآنى من حيث هى مقارنة علمية، تهتم بالفعل المضارع للخطاب الأدبى المجرد، واضعة كل ما يجاوز هذا الحضور بين قوسين من الإرجاء، وذلك على نحو لا يمل معه تودوروف من تأكيد أن العمل الأدبى نفسه ليس موضوع الشعرية، وأن أسئلتها تتجه إلى خصائص الخطاب الأدبى فى تجريده، وأنها تنظر إلى كل عمل من أعمال الأدب بوصفه مجلى لبنية عامة مجردة. ويعنى ذلك أن هذا العمل أو ذاك ليسا الهدف النهائى للشعرية وإنما هو وسيلة من وسائل مسعاها إلى اكتشاف قوانين عامة فى واحد من تحققاتها أو تجلياتها الآنية. بعبارة أخرى، الهدف من الشعرية

ليس تقديم نص شارح أو التعليق على الأعمال الأدبية، وإنما تقديم نظرية عامة تحدد قائمة الممكنات التي تبدو الأعمال الأدبية نماذج فعلية على تحققها.

قد يكون فى هيمنة البعد الأنى (السينكرونى) على خطاب الشعرية، وإزاحته كل ما يخالفه، رد فعل للدراسات التاريخية وتعبيراً عن النفور المكبوت الذى انطوت عليه بنىوية ليفى شتراوس بالذات من أية نظرة تطويرية إلى التاريخ. لكن هذه الهيمنة، من منظور آخر، كانت تقضى إلى مخيلة براقة المظهر، ذات صلة بإحدى إيديولوجيات الإحساس بوطأة التاريخ. فهى فى إرجائها مفاهيم التطور والتعاقب أبرزت الحضور الأنى المحايث للأدبية، ورفعت قدره إلى أعلى درجة من التراتب، بوصفه نسقا مجاوزا لأى زمان ومكان رغم تجليه فى كل زمان ومكان. وقد أصبح هذا الحضور الوجه الآخر من بنية العقل الإنسانى - كلية الوجود، منذ أن أعلن ليفى شتراوس هذه البنية علامة على إنسانية متحدة، وآية من آيات وجود وعى إنسانى كلى شامل يجاوز الزمان والمكان ويتجلى فى كل زمان ومكان. وكان ليفى شتراوس يؤكد بذلك القيمة النسقية لنزعة واحدة لا تمايز بين قديم وجديد، أو تفضّل غربا على شرق أو شمالا على جنوب، وتسوى بين تجليات الإبداع فى كل زمان ومكان، محررة الأبنية الأدبية والفكرية من التصنيفات القمعية للأعلى والأدنى.

من هذا المنظور، يمكن أن نفهم بعض الحماسة التى لقيتها الشعرية، والنظر إليها بوصفها مفهوما تحريرا، يؤكد نوعا

من المساواة التي نفتها النظرة التطورية إلى التاريخ، ولذلك كان أنصار الشعرية في الولايات المتحدة في مطالع السبعينيات، من أمثال روبرت شولتز، يؤكدون الطابع التحرري التحريري للشعرية، ويتحدثون عن انفتاح أفقها العقلي الذي لا يعرف التحيز أو التعصب. وكانوا يرون فيها المجال المعرفي الواعد الذي يسعى إلى خلق إمكانات جديدة لا محدودة للقراء والكتاب، إمكانات تسهم في تحريرهم من المعايير الخائفة في الحاضر والماضي، وتسعى إلى إنقاذهم من سطوة العقول الجامدة التي تختزل النصوص في مقولات تاريخية ثابتة تعصر الحياة بما يعوق إدراكنا للقديم المتجدد أو الجديد المتحرر.

وبدا الأمر، مع هذه الحماسة، كما لو كان الهدف المنهجي للشعرية، في موازاة الكشف عن الأبنية التحتية اللاواعية، تحطيم الحدود الموروثة بين الذرى المقدسة للآداب (الجميلة) الراقية والمواطن الخشنة للآداب والثقافات الشعبية (غير الجميلة). وكان المظهر العملي لهذا الهدف محاولة الكشف عن الأدبية في كل مظاهرها وتجلياتها. وفي الوقت نفسه، الكشف عن إمكان غيابها عن بعض مستويات النصوص التي استقر الرأي على أدبيتها. وذلك ما فعله ليفي شتراوس حين كشف شعرية الأسطورة، وتودوروف حين كشف عن قواعد "النوع" لأدب العجائب، ورولان بارت عندما قام بتحليل أنساق الأزياء والأنساق المضمنة في الإعلانات بطريقة غير بعيدة عن تحليل قصص بلزاك. وأكد ياكوبسون الرائد الذي علم الجميع تعدد وظائف الحدث الكلامي،

وضرورة الفصل بين الوظيفة الشعرية للغة والشعر، فالوظيفة الشعرية غير مقصورة على الشعر، وتوجد فى غيره، والشعر يستوعب وظائف لغوية مغايرة للوظيفة الشعرية ومناقضة لها فى الهدف.

وكانت الإشارة إلى مجلة "الشعرية" Poetique التى أنشأها فى فرنسا تودوروف وجيرار جينيت وهيلين سيكسوس عام ١٩٧٠ (وهى المجلة التى وازتها وأعقبها مجلات متعددة بالعنوان نفسه فى هولندا، وألمانيا الشرقية، والولايات المتحدة، وإسرائيل) إشارة إلى ما يؤكد هذا الطابع التحررى للشعرية، خصوصا ما تضمنته المجلة فى افتتاحية عددها الأول التى حددت استراتيجية المجلة، مؤكدة أنها استراتيجية منفتحة، متحررة، لا تسعى إلى تثبيت فكرة بعينها عن الأدب، نغلقها على أنفسنا داخل جدران تعريف معيارى، فالأدبية تجاوز الأدب، والوظيفة الشعرية تمتد إلى ما وراء حقل الشعر. إن كل لعب اللغة والكتابة، كل البلاغة فى فعلها، كل طمس لشفافية اللغة، سواء فى الفنون الشعبية، أو الاتصالات الإعلامية، فى خطاب الأحلام أو الجنون، فى أكثر النصوص تواضعا فى التركيب، أو أشد مناوشات الكلام عشوائية، كل ذلك، فيما تقول الافتتاحية، يتمتع بالحق الكامل فى مجال الشعرية الحديثة التى لا بد من أن تكون شعرية مفتوحة قبل كل شئ. ويعنى ذلك أن ممارسة النظرية الأدبية، أو تحليل النصوص، لا بد أن يحذر من الانتهاء إلى دعم التقاليد القائمة بوصفها المعيار الأمثل، أو تقنين ما

أصبح مقبولا بوصفه المثال الأنموذج، فالغاية من الشعرية هي إبراز الهامشي، وتأكيد الطرق الخطرة للإمكان، وتخفيف وطأة القيود على مسار الأعمال الآتية.

نقض الشعرية

حين سعى تودوروف إلى تحديد المجال المعرفى للشعرية، من حيث هو مجال له استقلاله النوعى ووظائفه النسقية، وضع هذا المجال فى علاقة تعارض مع الاتجاه التفسيري للنقد الأدبى من ناحية، والمجال التفسيري للعلوم الإنسانية التى تجد فى العمل الأدبى موضوعا لمعرفتها من ناحية ثانية. وكان هدف تودوروف من وضع الشعرية هذا الموضع تأكيد علاقتها بالخصائص الأدبية المحايثة فى داخل الأعمال الأدبية، وحرصها على أن تستبدل بالتجزؤ العينى للنص التجريد الصورى للقانون الذى يشمل كل النصوص. وكان ذلك نتيجة تحول الشعرية عن دائرة الوصف لعمل بعينه إلى دائرة اكتشاف القوانين الكلية التى تصدر عنها كل الأعمال الأدبية وتشير إليها على جهتي التضمن واللزوم. هذه القوانين الكلية هى أدبية الأدب التى بدت كأنها بنية كبرى، شاملة، تقع وراء الأعمال الأدبية المفردة وتتحكم فيها، وتتجلى من خلالها، تماما كما تقع «اللغة» وراء الممارسات الفردية لأحداث «الكلام» المتغيرة، وتضبط حركتها داخل قواعدها الثابتة، أو كما يقع «النسق» وراء التشتت الظاهرى للوقائع الجزئية المتراكمة التى يردّ تكررها إلى وحدته المنتظمة.

ويترتب على ذلك أن الشعرية، حين تقارب هذا العمل الأدبى أو ذاك، فإنها لا تبحث عن وجوده الفردى، أو حال حضوره الفريد، أو حتى ما يعبر عنه شعوريا أو يعكسه من

موقف اجتماعي، وإنما تبحث فيه عن المظهر الذي يفضى إلى الحقيقة الأدبية التي هو معلول لها، وسبيلها في ذلك أن تبحث في «الكلام» الذي يقود إلى «اللغة». وتتقصى العناصر المتكررة الدالة التي تفضى إلى «النسق». بعبارة أخرى، تبحث الشعرية في العمل عن بنيته التي تفسر حضوره الوظيفي بإحالاته إلى بنية أخرى، كبرى، شاملة، هي بنية الأدبية التي تقع وراء الأعمال الأدبية وتتجلى فيها. وقد أكد تودوروف، في مدخل كتابه عن أدب العجائب، أن كل نص أدبي يلفت الانتباه إلى طبيعته العلائقية النسقية على مستويين متزامنين: أولهما المستوى الخاص بنسقه المتميز، وثانيهما المستوى الذي يتصل فيه نسقيا بغيره من النصوص، داخل بنية كبرى تتجلى فيه وبه في آن.

هذا الفهم لأدبية الأدب، من حيث هي موضوع الشعرية، انقلب بها إلى نوع من الميتافيزيقا المتعالية، وأحالتها إلى ما يشبه العلة الأولى، مركز الوجود والحضور الذي يقع خارج مظاهره وظواهره، ولا يتجلى إلا بمظاهره وظواهره، فهو الحضور الغياب والغياب الحضور، الخارج والداخل، الجمع في صيغ الأفراد والأفراد المختزلة في الجمع. وقد ساعد على هذا الفهم أن الأدبية تجلت في الأذهان، على هيئة البنية الكبرى للقوانين التي تجتلى حضورها الكلي في الأبنية الصغرى للأعمال الأدبية، سواء في مستويات الدلالة أو التركيب أو الإيقاع، وذلك على نحو تبادلي، تشير فيه الأبنية الصغرى إلى البنية الكبرى إشارة المعلول إلى العلة أو المظهر إلى الجوهر أو المجلى إلى الأصل. وتنعكس به

البنية الكبرى على الصغرى كما تنعكس العلة الأولى فى معلولاتها المتكثرة، أو ينعكس الأصل الضوئى على مرايا متعددة تكرر حضوره الواحد حسب زواياها المختلفة. هكذا، غدت أدبية الأدب صورة أخرى من الكل الذى لا نراه إلا فى تجلياته، والتجليات التى لا نرى منها سوى الكل الذى ليس هو إياها.

وحين أسقطت الأدبية، من حيث هى موضوع للعلم، صورتها على العلم بها أى الشعرية، انتقلت مركزية اللوجوس، المحايثة فى مفهوم الأدبية، إلى العلم الذى يبنى على البحث عنها واكتشاف خصائصها العامة، فغدا علما منظويا على مفارقة جذرية، خصوصا حين يلح على الاقتران بالأعمال الأدبية التى لا يفارقتها، ولكن ليرى فى داخلها ما هو وراءها. ويعلن البحث المحايث فى تعين النصوص، لكن بهدف الوصول إلى المبدأ التجريدى الكامن خارجها. ويقارب المعطى الأدبى، من حيث هو مفعول لفعل العلم، أى الشعرية، ولكن على أساس أن فعل العلم يتعدى إلى مفعولين على الأقل، أولهما ليس سوى دليل على ثانيهما.

ومعنى ذلك أن الوجود الأدبى المحايث للأعمال الأدبية، وهو الهدف الأساسى الذى سعت الشعرية إلى تأكيده، لم يعد محايثا بالفعل. وتحول عمليا إلى مظهر لوجود آخر، هو هذه البنية الكلية المفارقة. وسواء أطلقنا على هذه البنية اسم أدبية الأدب، مسترجعين ميراث الشكلية الروسية، أو اسم المقدرة الأدبية، مفيدتين من إنجازات النحو التوليدي ولغويات نوام

تشومسكى، فإن الحضور المفارق لهذه البنية الكبرى يظل قائماً، فأدبية الأدب هى الحضور المجرد المنفصل عن تجلياته المتعينة، والمقدرة الأدبية هى قوانين التعرف المغايرة لموضوعات التعرف. ونحن حين ندرس الأعمال الأدبية، لا ندرسها فى ذاتها، وإنما ندرسها لكى نخرج منها إلى قوانينها الكلية، فنكشف عن البنية الشاملة التى تصدر عنها الأبنية الصغرى، صدور التولد أو صدور الفيض أو صدور المعلولات عن العلة الأولى. وفى كل الأحوال، فنحن لا نرى من داخل الأعمال إلا ما يفضى إلى خارجها الذى لا نراه، ولا نلامس من محايثتها إلا ما يشير إلى ما لا نلامسه من قوانين لن تكون محايثة إلا بالمعنى الذى ينقلب بالتجريب إلى تعطيل للصفات.

والفارق بين علم الشعرية فى هذه الحالة، من حيث العلم بموضوعه، على مستوى التأصيل النظرى، والعلوم الأخرى التى اتخذت من الأعمال الأدبية موضوعاً لها، ليس سوى فارق كمى، يدنو بالأطراف المتناقضة المتعارضة ظاهرياً إلى حال من الاتحاد. فالشعرية، من حيث هى علم، تبحث فى مفردات موضوعها عن ما يقع خارجها، والعلوم الأخرى (النفسية والاجتماعية والتاريخية وغيرها) تضع الأعمال الأدبية ضمن مفردات موضوعها، لكى ترى فى المفردات الأدبية ما هو مجلى لغيرها. والبحث فى الحالىين، عن حضور خارج النصوص، دلالة خارج المفردات، قوانين شاملة وراء المعطيات، أبنية كلية خلف الظواهر المتكثرة. ولو قلنا إن طبيعة القوانين أو الأبنية مختلفة

فى علم الشعرى عنها فى العلوم الأخرى، وأنها أدبية فى حالة العلم بالشعرى وغير أدبية فى حالة العلوم المغايرة، فإن الوضع المحدد لموضوع العلم يظل إياه فى كل الأحوال، من حيث مفارقة البنية الشاملة للمفردات التى تدل عليها، ومن حيث النظر إلى الأعمال الأدبية بوصفها تحقيقات لقوانين أو قواعد مفارقة، هى بنية سابقة فى الوجود منفصلة فى الحضور. يضاف إلى ذلك أن هذه البنية الشاملة تتحول إلى تجريد محض فى حالة الشعرى، وذلك بسبب أن تصورهما، كالتنظير لها، ينتهى بها إلى مفارقة التعطيل التى تعزلها عن أى فاعل من حيث هى مفعول، وتتفصل بها عن الزمان بعد أن جاوزت تعين فضاء الأعمال المفردة إلى اللا تعين الخالص.

وأحسب أن هذه النتيجة تفرض التوقف عند معنى البنية، على نحو ما تم تصورهما به فى تنظيرات الشعرى، وقبلها فى تنظيرات البنىوية بوجه عام. البنية كامنة فى الموضوع، حالة فيه حلول العلة الصورية التى تحفظ عليه وجوده النسقى. ووجودها فى موضوعها وجود الفعل اللازم الذى لا يتعدى إلى أى مفعول، ويفترض أن لا يشير إلى أى فاعل سابق عليه فى الوجود أو الرتبة. فالبنية تصور مجرد أو تجريد خالص، لا علاقة له بفاعل أو فاعلين، وتشير إلى نفسها فى حال من الاكتفاء الذاتى الذى لا يعكس إلا ما تنطوى عليه من قانون عام. وفى الوقت نفسه، تستقل كل الاستقلال، أو تنفصل كل الانفصال عن الذات المدركة لها، وعن النموذج الذى تصوغه هذه الذات فى إدراكها البنىوى

للموضوعات، خصوصا حين تكشف هذه الذات عن مركز البنية،
يكون هو المبدأ الفاعل فى بناء النموذج.

هذا الفهم للبنية ينطوى على مشكلات لم تستطع الشعرية
أن تجد حولا حاسمة لها، فتداعت من داخلها حين لم تجد فى
سندها النظرى ما يجيب عن الأسئلة الحاسمة التى واجهتها،
خصوصا عندما وضعها الفحص النقضى موضع المسألة.
وتتصل أولى هذه المشكلات بانغلاق البنية على نفسها بما يجعل
منها سجنا لحضورها، وكيانا ميتافيزيقيا مفارقا لعلاقة له
بالزمان، والمكان. وتلك مشكلة فجّرتها مسالة لغويات دى
سوسير نفسها. لقد تحددت البنية، حسب أصول علم اللغة عند
دى سوسير، فى أنها نسق لغوى، يتشكل نتيجة تقاطع علاقات
الغياب والحضور. العلاقات الأولى تقوم على اختيار عناصر
بعينها من مخزون اللغة، وترك غيرها الذى يظل فى علاقة معها،
ورصف المختار فى علاقات حضور. هذه الأخيرة هى التجاور
الفعلى لعناصر اللغة الموجودة، نظم الكلمات والجمل وال فقرات
الحاضرة التى نقرأها بالعين، أو نسمعها بالأذن، أو نلمسها
بالأصابع، فى امتدادها الأفقى الخطى الذى لا تفارقه البنية. هذه
البنية لها مركزها الذى تتقاطع فيه علاقات الحضور والغياب.
وكما أنه لا وجود لهذه العلاقات دون مركز متصور تتقاطع عنده،
ويكون بؤرة للبنية، فلا وجود للبنية نفسها دون ثنائية العلاقات
التى تتجاوب ما بين الغياب والحضور، حيث كل حاضر محكوم
بما هو غائب، ومرتبط به فى علاقة مشابهة أو مخالفة على نحو لا

سبيل معه إلى تصور البنية، ومن ثم فهمها، دون رد الحاضر منها على الغائب، أو العكس، وفهم علاقات العناصر الموجودة (الحضور) في ارتباطها بعلاقات العناصر غير الموجودة (الغياب) والعكس.

هذا المبدأ الفاعل في تكوين كل بنية يترتب عليه أن البنية لا يمكن أن تنغلق على نفسها، لو عدنا إلى صياغتها التصورية التي لابد أن تنطوي على الجدل اللازم لعلاقات الحضور والغياب. ولكن هذا المبدأ الفاعل اختل نتيجة التركيز على علاقات الحضور، بالقياس إلى علاقات الغياب التي ظلت غائبة عن الفاعلية، شأنها في ذلك شأن البعد الخاص بالتعاقب، عندما تم التركيز على البعد الآن بوصفه البعد المهيمن في تصور الشعرية والبنوية على حد سواء. ولورفعنا العنصر الغائب (علاقات الغياب) إلى مرتبة الفعل المؤثر في علاقته بالعنصر الحاضر (علاقات الحضور)، وفهمنا العلاقة بين العنصرين على أنها علاقة متبادلة الأثر، انفتحت أبواب البنية المغلقة على خارجها، وحملت هذا الخارج بوصفه أحد مكوناتها الأساسية ما ظل كل حاضر في البنية يشير إلى ما هو غائب، وما ظلت علاقات الحضور غير قابلة للفهم دون علاقات الغياب. إن كل بنية حضور ممتد إلى الخارج من هذا المنظور، لا معنى له بمعزل عن علاقات غيابه. كما لا معنى لأي عنصر من عناصره دون علاقته ببقية العناصر، فالبنية أصل متناص بحكم مبدئه الفاعل، شبكة من العلاقات الداخلية والخارجية، سواء من حيث تشكلها أو استقبالها. ولكن

تغيب علاقات الغياب عن تصور البنية، والتركيز على ميتافيزياء الحضور، ساعد على تقبل مخيلة البنية المكتفية بنفسها، وهى مخيلة ساعد عليها تأويل البنيوية بمفردات «النقد الجديد» الأمريكى ومفاهيمه عن العمل الأدبى المستقل بذاته والمكتفى بنفسه.

وقد تكشف زيف هذه المخيلة فى الممارسة الفعلية للتعامل مع النصوص والأعمال الأدبية، حيث كانت الممارسة الحقّة تُظهر خلل التنظير الذى يركز على بعد علائقى واحد، وتفرض على داعية الشعرية النظر إلى خارج البنية على نحو واعٍ أو غير واعٍ، إذ لا يمكن لأحد أن يمضى إلى النهاية فى فحص البنية دون أن يجد نفسه خارجها بأكثر من معنى، وذلك من حيث هى نسق يفضى حضوره إلى غيابه، بالقدر الذى تفضى دواله إلى مدلولات واقعة فى العالم، وبالقدر الذى تتكشف به البنية عن نص متناص ينطوى فى داخله على ما يشير إلى خارجه. هذا الخارج هو التاريخ الذى حاولت البنيوية أن تفر منه، والذى يعنى، على مستوى شعرية البنية، دوافع التشكل وتقاليد النوع وتناص الوقائع والأحداث والمعطيات، فضلا عن آفاق التوقع والاستجابة وشروط التلقى والاستقبال.

ويقود التاريخ إلى المشكلة الثانية التى ترتبت على التركيز على عنصر مهيمن بما أفضى إلى تجاهل نظيره أو تأجيل مواجهته. لقد فهم الشكليون الروس، فى إضافتهم إلى دى سوسير، أن تاريخ النسق نسق بدوره، وأن كل نسق أنى يسبقه

ماضٍ ويعقبه مستقبل، كلاهما عنصر بنائى فى تكوين النسق لا يمكن فصله عنه. وأضاف الشكليون أن التعارض بين الاثنين كان تعارضا بين مفهوم النسق ومفهوم التطور، وأن هذا التعارض الخطر يفقد أهميته من حيث المبدأ، ويتحول إلى تعارض آخر إيجابى، حين نعرف أن كل نسق يوجد بوصفه تطورا بالضرورة، فى الوقت الذى يحتفظ التطور بطبيعته النسقية. هذه الإضافة إلى دى سوسير كانت خطوة نظرية حاسمة (فى اتجاه شعرية دياكرونية وموقف تركيبى من تاريخ الأدب) دعمتها الممارسة التطبيقية للشكليين الروس، خصوصا فى تناولهم الأعمال والظواهر الأدبية الملموسة، وذلك على نحو دفع بعضهم إلى التنبيه على أن البنية ونشوءها جزء لا ينفصل عن البنية، وأنه من المستحيل تقديم تعريف غير تاريخى أو غير زمنى للحقيقة الأدبية، وأن النصوص غير الأدبية يمكن أن تلعب دورا حاسما فى تكوين النصوص الأدبية ونشوءها. ولكن هذه الخطوة ظلت يتيمة، لم تعقبها خطوات تنظيرية أكثر تقدما، فى جدل الممارسة والتنظير، فأنتهى الأمر إلى نسيان ما يحيط بوجود النسق (البنية) من زمن المضى إلى زمن المستقبل، وتغلب التركيز على الزمن الآنى وحده، بوصفه الزمن المهيمن على حضور البنية فى تجليها لعيان دارس الشعرية، خصوصا حين يقوم بتثبيتها فى لحظة زمنية دون سواها، هى لحظة الرؤية المنهجية التى تسقط حضورها الآنى على موضوعها.

وكانت نتيجة ذلك الهجوم على التاريخ الأدبي (وعلى كل دراسة تاريخية) منذ فترة باكرة ترجع إلى الشكليين الروس أنفسهم. وقيل إن بحث نشأة الظواهر الأدبية أو تشكلها إنما هو بحث خارج الأدب، يستحق اهتمام علماء النفس والاجتماع والتاريخ وليس نقاد الأدب، وإن بحث تطور النظام الأدبي وقضية التغير الأدبي ينبغي تأجيلهما إلى حين استجلاء العلاقة بين السلسلة الأدبية وغيرها من السلاسل غير الأدبية. هذا الموقف نفسه هو الذى بدأ منه تودوروف حين ناقش علاقة الشعرية بالتاريخ الأدبي، مؤكداً أن دراسة التغير جزء متكامل من الشعرية، ما ظلت هذه الدراسة منصبة على الأصناف (المقولات) المجردة من الخطاب الأدبي وليس الأعمال الفردية. وذلك تأكيد أفضى به إلى التمييز بين ما أسماه «الشعرية العامة» فى مقابل «شعرية التعاقب» التى تركز على التغير التاريخي. ولكن هذا التمييز ظل على مستوى النوايا التى يرجى تحقيقها فى المستقبل والتى لم تتحقق إلى الآن، والنتيجة الملموسة لخلل الأصل النظرى هى التى ظلت تتكرر أصداؤها فى كلمات تودوروف الذى راوغ المشكلة بتأجيلها، أو إحالتها إلى مجهول بظهر الغيب. ومن ثم ظلت «شعرية التعاقب» عنصراً منفصلاً عن نظيره «الشعرية العامة» انفصال البعد الآتى عن الدياكرونى. وبقيت الشعرية منطوية على حلمها الأول بما يحقق تمام عزلها عن كل ما يشترك معها فى درس الظاهرة الأدبية، أو يصون السلسلة الأدبية من مخاطرة العلاقة مع السلاسل غير الأدبية، فانتهى بها الحلم إلى

تعطيل المبدأ المحايث الذى اثبتت عليه وتعريضه إلى ما ينقضه من الداخل.

والواقع أن تأجيل مواجهة «الشعرية التاريخية» يشبه تأجيل مواجهة مشكلة القيمة الجمالية فى كتاب تودوروف عن الشعرية، وهى مشكلة لا يمكن أن يتجاهلها أى دارس للشعرية ما ظلت الشعرية بحثاً عن خطاب أدبى، يتميز بخصائصه النوعية المائزة التى هى موضوع العلم به وموضوع القيمة الجمالية على السواء. ويبدأ تودوروف مواجهة المشكلة بتأكيد أن القيمة مصاحبة للبنية، داخلية فيها، وأن الحكم بوجودها يعتمد على البنية الكامنة فى العمل. ولكن هذه القيمة لا تظهر إلا فى اللحظة التى يسائل فيها القارئ العمل. فقراءة العمل ليست فعلاً من أفعال الكشف عن بنية فحسب، وإنما هى فضلاً عن ذلك عملية تثبيت للقيمة. ولكن ما أبعاد العلاقة بين القيمة والبنية؟ هل هى علاقة تضمن أم علاقة تضافى؟ هل هى علاقة الجزء بالكل أم علاقة اللازم بالملزوم أم السبب بالنتيجة؟ وهل يمكن اختزال القيمة فى معادلة لغوية خالصة، شبيهة بتلك المعادلة التى صاغها ياكوبسون، عندما تحدث عن إسقاط مبدأ التكافؤ من محور الاختيار على محور التضام؟ ولو صحت مثيلات هذه المعادلة، وهى مسألة فيها نظر، فهل يمكن القول إن القيمة الجمالية هى الوجه الآخر للبنية الأدبية، تلازمها وجوداً وعدماً (ودع عنك الدور المنطوقى الذى يمكن أن نقع فيه) أم أن البنية عموماً (والأدبية

خصوصاً) مستقلة عن القيمة الجمالية، تتصف بها أو لا تتصف، حسب سياقات إنتاجها أو سياقات استقبالها؟

ولكننا حين نتحدث عن هذه السياقات ندخل الفاعل فى الحساب، وهو ليس عنصراً محسوباً فى تصور البنية. ومع ذلك فإن تودوروف يقول إن القيمة لا تظهر إلا فى اللحظة التى يضع فيها القارئ العمل موضع المسألة، وإن القراءة عملية تحديد أو تثبيت للقيمة. ولو أخذنا هذا القول الأخير مأخذ التصديق، وتقبلنا نتائجه، فإنه يتحرك بنا فى النظر إلى وجود البنية، هوناً، وينقلنا من رؤيتها بوصفها حال وجود مكتف بنفسه إلى حال يتوسط ما بين العمل والقارئ وجودياً (أنطولوجياً) ومعرفياً على السواء. أعنى التوسط الذى يصل البنية بالعمل من حيث هو فضاءها الخاص، ويصلها بالقارئ من حيث هو الفاعل الذى يحدد قيمة هذه البنية. وإذا كان هذا التحريك للبنية، أو إزاحتها عن فضاءها التقليدى، المكتفى بنفسه، يعنى أن جمال البنية (القيمة) ليس أمراً يحدده القارئ وحده، فإنه يفرض التسليم بنوع من التلازم بين حضور القارئ والخصائص المحايئة فى البنية، على أساس أن القارئ طرف فى الوحدة الفاعلة التى تتشكل به والعمل، وطرف فاعل فى تحديد قيمة العمل التى لا تبين إلا به.

ولكن يلزم عن هذا الوضع الجديد إدخال عملية «استقبال» البنية الأدبية للعمل طرفاً فاعلاً فى تحديد مفهوم البنية نفسها، وذلك فى صياغة تصويرية لا تفصل البنية عن القارئ الذى يحكم أو لقراء الذين يستقبلون، أعنى هؤلاء الذين يسهمون فى

الحضور الأدائي للبنية، ومن ثم يمكن أن ينفوا عنها القيمة الجمالية في عصر، أو يثبتوها في عصر آخر، أو تختلف مجموعاتهم في العصر نفسه، من حيث الأداء الذي يثبت القيمة أو ينفيها. ومعنى ذلك أنه لا يمكن تصور البنية الأدبية بعيدا عن الذي يستقبلها ويصدر عليها الحكم بالقيمة، فهو بعض حضورها، وهى امتداد لوجوده الذي يفرض تغييره عليها، وذلك بالقدر نفسه الذي لا يمكن فصل البنية عن دوافع تكونها. فماضى البنية على مستوى التولد كمستقبلها على مستوى الاستقبال، كلاهما عنصر تكويني من عناصرها. ولن يفرض مأرق الفعل اللازم للبنية أن نقول، مع تودوروف، إن البنية ليست العامل الوحيد في الحكم الجمالي، ما ظلت هذه البنية منفصلة عن الذي يستقبلها انفصالها عن دوافع تشكيلها.

والواقع أن هذا التصور الأخير ينقض ما سبق أن أداّن به تودوروف فعل القراءة في الاتجاه التفسيري للنقد الأدبي، حين قال إننا نتقصى أثر كتابة سلبية في القراءة، ونضيف إلى النص المقروء، ما نريد أن نجده ونقمع ما لا نريده، فالقراءة لا يمكن أن تكون محايثة ما ظل هناك قارئ. هذه الملاحظة نفسها يمكن توجيهها إلى بنية النص، فكل قراءة للنص كتابة له بمعنى أو آخر، وذلك على نحو يؤكد أنه لا يمكن أن تكون هناك بنية نص محايثة ما ظل هناك قارئ، ولا يمكن أن تعنى القيمة الجمالية لهذه البنية شيئا في غياب هذا القارئ. وقد انتهى تودوروف نفسه إلى هذه النتيجة في خاتمة الصياغة الأخيرة لكتابه عن

الشعرية، وفي تقديمه الترجمة الإنجليزية. وكان ذلك بعد أن تعلمت الشعرية نفسها فضيلة التواضع من خلال الممارسة التي تتابع ما يربو على عقدين من الزمان. وتخلت عن الدعاوى الحماسية الصاخبة التي بدأت بها. وعاد تودوروف نفسه إلى تأكيد معنى القراءة، وتأكيد حضور النص الأدبي من حيث هو فعل متعد إلى قارئه وليس فعلا لازما كما كان رولان بارت يقول في منتصف الستينيات وعندما دخل القارئ حرم الشعرية المغلق من قبل أصبح عنصرًا مضافًا إلى البنية، أو عنصرًا من عناصرها التكوينية التي لا بد من وضعها في الحسبان. وقال تودوروف بصريح العبارة: إن كل عمل أدبي يعاد كتابته بواسطة قارئه الذي يضعه في شبكة علائقية جديدة من التفسير الذي ليس هذا القارئ وحده مسؤولاً عنه؛ لأنه يكتسبه من ثقافته وزمنه، أي يكتسبه من خطاب آخر غير الذي ينتمي إليه العمل الأدبي. ولذلك فإن كل قراءة للأعمال الأدبية هي مواجهة بين خطابين: حوار.

وفارق كبير بين هذه النتيجة التي انتهت إليها تودوروف والبداية التي بدأت منها الشعرية، أو التي بدأ منها هو تنظيره للشعرية. هذا الفارق هو الفارق بين تودوروف الستينيات الذي كان يحلم بتأسيس أجرومية عامة للأدب وتودوروف الثمانينيات والتسعينيات الذي هجر حلمه القديم، وأذاب الأدبي الخالص في التاريخ والثقافة، وأخذ يكتب عن «غزو أمريكا» (١٩٨٢) و«التنوع الإنساني» (١٩٨٩) و«أخلاق التاريخ» (١٩٩١). والمسافة بين

البداية والنهاية هي مسافة الممارسة الفعلية التي تصاعدت بحضور التاريخ في الوعي، وأوصلت القارئ إلى حيث أصبح عنصرا حاسما من عناصر البنية المفتوحة على أزمنة التاريخ الثلاثة.

وإذا كانت بنية العمل الأدبي، في هذا الوضع الأخير، ومن حيث علاقتها بالقارئ، ليست إسقاطا من القارئ على النص، وإنما أداء للنص، فإنها تحمل معنى من معاني الكتابة بالفعل. هذا المعنى نفسه ينأى بها عن أن تكون مجلى لبنية أخرى، كلية متعالية سرمدية مفارقة، هي أدبية الأدب التي تجتلى صورتها في الأعمال الأدبية التي تعكسها، كما تجتلى الحقيقة الأفلاطونية شمسها المنعكسة على مرايا المحاكاة. إن الحضور الأدائي لبنية النص، من حيث علاقته بالقارئ الذي يؤدي، أو القارئ الذي يعيد كتابة النص، يعنى أفلو شمس البنية الكلية المهيمنة على النصوص المفردة، كما يعنى تدمير هذه البنية بواسطة عملية نقض تستبدل بميتافيزياء البنية الكلية فيزياء الفعل الأدائي للقراءة بوصفه فعلا متعديا، فعلا يستمد تعدياً من أبنية النصوص المقرؤة التي تحطم سجن الفعل اللازم، كما يستمد الصفة نفسها من مواقف قارئه الذي لا يعرف عمليا سوى معنى التعدي الذي يفتح أبواب النص على التاريخ.

مصير الشعرية

يبدو أن علينا التمييز بين الشعرية من حيث هي اسم والشعرية من حيث هي صفة. الشعرية الأولى هي اسم العلم الأدبي الذي حاول أن يستقل بمنهجه استقلاله بموضوعه، وأعلن قدرته على اكتشاف القوانين الكلية لظواهر الأدب، من خلال دراسة موضوعه الذي لم يكن الأعمال الفردية وإنما «الأدبية» التي تتولد عنها هذه الأعمال وتحققها. والشعرية الثانية هي صفة المبادئ الفاعلة في صنع ظاهرة من الظواهر أدبية أو غير أدبية. وسواء لعبت الكلمة، في هذه الدلالة الثانية، دور المضاف في صيغة التضاييف النحوية الواصفة لعنصرها الثاني، وهو الدور الغالب، أو دور الواصف المباشر لمجالها النوعي، فإنها تظل قرينة الأصل اليوناني القديم، من حيث الدلالة على الصنع، ومن ثم الإشارة إلى كيفيات التشكل، وذلك بمعنى لا يختلف كثيرا عن ما قصد إليه الموسيقار الروسى إيجور سترافنسكى (١٨٤٩-١٩١٢) عندما تحدث عن «شعرية الموسيقى» فى كتاب بهذا العنوان، كاشفا عن الجماليات الخاصة بتشكلات الإنشاء الموسيقى، أو عن ما قصد إليه ريتشارد كيرنى عندما ناقش «شعرية التخيل» فى كتابه الذى سعى إلى تقديم صياغة فينومينولوجية ما بعد حدثية للقوى الإنسانية التى يصنع (Poiesis) بها الخيال عالما يمكن أن يكون فضاء لمسرحنا الإبداعى، وأخيرا ما فعل ديفيد بریت فى كتابه «شعرية الصنعة»

الذى سعى إلى اكتشاف الخصائص الحداثية لإنجاز الفنان المعماري الاسكتلندي شارلز ماكنثوش (١٨٦٨-١٩٢٨). وليست هذه الدلالة الواصفة لمبادئ الصنع غريبة عن مقصد كتاب ميخائيل باختين (١٨٩٥-١٩٧٥) الذى درس «مشكلات شعرية دوستوفسكى» مبرزاً الخصائص التى يتميز بها فن القص عنده، من منظور علاقته بالنوع الذى ينتمى إليه والعصر الذى تولد فيه، وأخيراً عن مقصد كل من بيتر ستاليبراس وألون وايت فى كتابهما عن «شعرية الانتهاك» الذى يبدأ من حيث انتهى باختين عن الكرنفال، ويجاوزه إلى الكشف عن التشكلات المدمرة للتراتب الاجتماعى السياسى الثقافى.

وأقرب إلى الدلالة الثانية الخاصة بالشعرية، من حيث هى صفة، ومن حيث هى مبادئ الصنعة النوعية، الاستخدام الذى يشير إلى القواعد والمعايير المتعلقة بفن الشعر وحده، كأن يتحدث ابن رشد أو السابقين عليه من شراح أرسطو العرب عن الشعرية، من حيث هى المعيار الجمالى الذى ترتد إليه أبيات الشعر المتميز، أو يتحدث أدونيس (على أحمد سعيد) عن «الشعرية العربية» بوصفها مجموعة التصورات الموروثة عن فن الشعر، أو تضيف موسوعة جامعة برنستون الأمريكية عن الشعر إلى عنوانها «الشعرية» إشارة إلى تركيزها على نظريات الشعر وتياراته المختلفة.

والعلاقة بين الدلالة الأولى (للشعرية من حيث هى اسم) والدلالة الثانية (للشعرية من حيث هى صفة) علاقة موازاة،

جئنا إلى الاستبدال في السنوات الأخيرة. أعنى أنها أصبحت علاقة كاشفة عن التحولات المتتابة التي مر بها تاريخ الشعرية (الاسم) منذ أن وعدت بتأسيس العلم الأدبي المستقل بموضوعه ومنهجه، إلى أن تخلت عن وعدها الأول عبر الممارسات الفعلية والمواجهات الفكرية، واضطرت إلى أن تستبدل بالمطلق من دعوى العلم النسبى من محاولة المنهج، وبالثابت من صياغة القانون الأدبي المتغير في أداء الفعل الإبداعي، فعادت التسمية (الشعرية) إلى أصلها اليوناني القديم الدال على كيفية الصنع والتشكيل، وجذرها العربي الدال على المعرفة والفطنة، ووصلت بين دائرة الخطاب الأدبي والدوائر المتباينة لكل ألوان الخطاب الإنسانى التى تبدأ بالأدب ولا تنتهى بالفلسفة. وتلك هى ألوان الخطاب التى تسعى إلى تعرف موضوعاتها بالتفطن إلى العناصر الفاعلة فى صنعها أو تشكيلها، سواء كان مجال هذه العناصر الموسيقى أو العمارة أو القص أو الخطاب الفلسفى الاجتماعى.

وإذا ركزنا على الدلالة الأولى، من حيث ما انطوت عليه من دعوى العلم المستقل بمنهجه وموضوعه، وجدنا فى أساس الدعوى وكيفية صياغتها ما أدى إلى النهاية التى انداحت بها الشعرية فى نظرية الخطاب المعاصر، متخيلة عن أحلامها الأولى، ذائبة فى الدوائر المتجاوية من الدلالة الثانية. وكانت بداية السقطة المنهجية هى الوعد بتحويل الدراسة الأدبية إلى علم أدبى خالص، يحقق الأحلام المتعاقبة التى بدأت بالشكليين الروس فى

العشرينيات وانتهت بما طالب به الناقد الأمريكي نورثروب فراى (١٩١٢-١٩٩١) فى الخمسينيات من ضرورة استنباط نموذج علمى لدراسة الأدب من داخل المجال الأدبى نفسه، ليتمتع هذا النموذج بصفتى المحايثة والانضباط المنهجى (صدر كتاب فراى العمدة «تشریح النقد» سنة ١٩٥٧ وله ترجمة تستحق التقدير نشرها محمد عصفور فى مطبوعات الجامعة الأردنية سنة ١٩٩١).

وبدأ العمل على تحقيق هذا النموذج، منذ العشرينيات، بواسطة عمليات من التجريد الصورى الذى اقترن بالصياغة الشكلية لموضوع العلم الذى لم يعد معنيا بالكشف عن الأعمال الأدبية المفردة وإنما الكشف عن القوانين التى تشمل هذه الأعمال وتجاوزها. وكان ذلك يعنى أن موضوع العلم بلغة الفلسفة الأرسطية هو «العلة الصورية» التى تجعل من مجموع الأعمال الأدبية أدباً بالقياس إلى غيرها، وذلك على نحو يمكن أن يترادف فيه المصطلح الأرسطى -العلة الصورية- مع مصطلح الشكلية الروسية -أدبية الأدب- الذى هو إياه فى الدلالة، من زاوية استقلال موضوع العلم بقوانينه المحايثة التى تؤكد خصوصيته وتميزه عن غيره من موضوعات العلوم الأخرى. وكانت الخطوة اللازمة عن تأسيس استقلال موضوع العلم، والموازية له، هى تأسيس استقلال المنهج، واستنباط نمودجه من داخل الموضوع نفسه، على نحو يؤكد محايثة المنهج فى علاقته

بخصوصية موضوعه من ناحية، واستقلاله فى علاقة علمه بغيره من العلوم من ناحية ثانية.

وكان النموذج اللغوى الذى انبنى عليه علم اللغة عند دى سوسير حلا موفقا لهذا المسعى لأكثر من اعتبار. أولها أنه نموذج وصل بعلم اللغة إلى مكانة أنزلته فى الصدارة من علوم الإنسان، على أساس قدرته على تنظيم معارفه وتطوير أدواته بما حقق طفرة واعدة فى فهم الظواهر اللغوية على مستوى العموم. وثانيها أنه نموذج يتحدث عن اللغة التى هى مادة الأدب بالقدر الذى هو مستنبط منها. وثالثها أنه انطوى على قدر من الشمول الواعد وتطلع إلى أن يحقق فى المجال الأدبى ما لم يحققه نموذج منهجى آخر.

ولم يكن من قبيل المصادفة أن يؤسس رومان ياكوبسون (١٨٩٦-١٩٨٢) نظريته عن «الحدث الكلامى» كما لو كان يؤسس نظرية تفسر كل وظائف اللغة فى مختلف جوانب المعرفة وأبعادها، وذلك على نحو بدت معه العلوم الإنسانية المختلفة كأنها مجالات متعددة للبحث اللغوى، أو كأنها فروع مستقبلية لما يمكن أن تغدو عليه اللغة حين تتحقق نبوءة دى سوسير، وتتحول إلى علم العلامات العام الذى يستوعب كل أنظمة الدلالة. وقد فهم ياكوبسون الشعرية، فى هذا السياق، بوصفها جانباً لا ينفصل عن علم اللغة، ووصل بين تصوراتها النظرية ووظيفة اللغة الشارحة التى تصف بها اللغة نفسها حين تجتلى حضورها فى

مرآة وعيها الذاتى، وتقوم بالصياغة التصويرية لأنساقها الوظيفية وعلاقاتها الشكلية. وفى الوقت نفسه، وصل ياكوبسون بين التحقيقات النصية للشعرية وتركيز الانتباه على الرسالة اللغوية فى الحدث الكلامى، فكانت الشعرية الوظيفية الإبداعية التى تحققها اللغة، حين تسقط مبدأ التكافؤ من محور الاختيار على محور التضام. هذه الثنائية الياكوبسونية فى فهم الشعرية هى بعينها ثنائية الموضوع والمنهج، فالوظيفة الشعرية للغة هى موضوع علم الشعرية. والمقولات اللغوية الشارحة لهذه الوظيفة، حين يجتلى إبداع اللغة نفسه فى مرآة العقل الصورى، هى منهج العلم الذى يتحقق حين يصل العقل الذى يؤسس موضوعه إلى نموذجه الخاص.

ويكشف التأسيس الصورى لنموذج العلم، على مستوى اللغة الشارحة، عن أهم الأدوار التى قام النموذج اللغوى بأدائها فى تأسيس الشعرية، من حيث هى علم، حتى لدى أولئك الذين حاولوا، مثل تودوروف، الاستقلال بها عن علم اللغة الذى أذابها ياكوبسون فيه. وأعنى بهذا الدور الإمكان الذى حققه الخيال الصورى، من حيث ما أتاحه النموذج اللغوى من عون للقدرة العقلية على الصياغة الشكلية المجردة، تلك التى كانت وراء الإنجاز التحليلى الذى تحقق على كل المستويات فى حقل الدراسة الأدبية، بواسطة عمليات الصياغة التصويرية التى تكشف عن حزم العلاقات وتقوم بتصنيفه، وإذا كان بول فاليرى (١٨٧١-١٩٤٥) قال ذات مرة: «إن ما هو شكل عند الآخرين هو موضوع

عندى» فقد كان يشير إلى أفق الخيال الصورى الذى يبدأ من محاولة اكتشاف العلة الصورية للمعطيات الحسية المفردة، وينتهى بتحويل التعيين الملموس إلى قوانين شكلية ترد التكرار إلى وحدة، والمفردات المتناثرة إلى مبدأ واحد. وكما كان هذا الأفق يتحول بالشكل إلى موضوع للدرس، مؤكدا شكلية مناه، فإنه كان يعطى الأولوية للنظر الآتى الذى يستبدل بأسئلة التعاقب أسئلة المحضور فى الآن، ويستبدل بأسئلة الملفوظات الفردية أسئلة العلاقات الشكلية للقانون العام.

ولعلى فى حاجة إلى تأكيد أن النموذج المنهجى للبحث اللغوى، منذ أن أرسى قواعده دى سوسير، يبنى على مسلمة أساسية مؤداها أن اللغة شكل أكثر منها جوهر، وأنها مجموعة نسقية من العلاقات، وأن المهم فيها ليس العناصر الفردية وإنما العلاقات القائمة بينها. وإذا كانت اللغة لا تعرف المفردات الإيجابية بقدر ما تعرف الاختلافات، فذلك لأنها ليست لوائح تسمية لمعطيات العالم، وليس فيها شئ يدل بذاته، وإنما يدل بتعارضه المائز مع شئ آخر، داخل نسق الاختلافات الذى هو اللغة من حيث هى كل متكامل. هذا النسق الخلاقى يعمل على كل المستويات، من التعارض الأولى لأصغر العناصر (الفونيمات والمورفيمات) إلى مستويات الخلاف الدلالية لأكبر العناصر، حيث المخالفة هى السبيل الوحيد لتنظيم الحقول. ويوازى هذا المبدأ الخلاقى، ويرتبط به فى آن، المبدأ الآخر الذى يحكم علاقات الترابط والتراصف بين الوحدات اللغوية، تلك التى أطلق عليها

دى سوسير علاقات الغياب (البارادجمية) والحضور (السانتاجمية). والأولى محددة بواسطة التشابه والاختلاف الذى يتم على أساسه اختيار العناصر من المخزون اللغوى، وضمها فى نسق حاضر من الكلام المتراصف الذى نقرأه أو نسمعه أو نلمسه. وهنا، وهناك، مجموعة محددة من المبادئ الشكلية (الصورية) التى تنتقل بالتحليل من أكثر المستويات أولوية إلى أكثرها تعقيدا، والعكس صحيح فى الوقت نفسه، مع الرغبة فى عدم مفارقة الطابع المحايث للتحليل الذى حاول أن يظل وثيق الصلة بموضوعه، ضابطا له فى علاقات صورية، تؤسس علمية الموضوع التى تتحول إلى وجه آخر لعلمية النموذج المنهجى الذى انبنى، استدلاليا، بواسطة الصياغة الصورية لعلاقات الموضوع الشكلية.

هذا الوضع المعرفى الذى تأسست به الشعرية، من حيث هى علم، انطوى على إشكالين. يرتبط أولهما باستقلال موضوع العلم وثانيهما باستقلال المنهج وحدود النموذج اللغوى الذى يبنى به. أما موضوع العلم، فمن الواضح أن الموقف النظرى الذى استند إليه تأسيس الشعرية بوصفها مجالا علميا مستقلا، موضوعه الأدب من حيث هو أدب، كان يعنى التسليم باستقلال الموضوع، ويقرن هذا الاستقلال بتأسيس خصوصية العلم الجديد التى لم يكن لها معنى بعيد عن استقلال موضوع العلم. ولذلك صاغ رومان ياكوبسون المبدأ النظرى الشهير (عام ١٩٢١) الذى يقول: «ليس الأدب موضوع العلم وإنما الأدبية، أى ما يجعل من

عمل من الأعمال عملاً أدبياً». ومنذ ذلك الوقت، وهذا المبدأ النظرى له سلطة المسلمة المقبولة التى دفعت الكثيرين من الحالمين باستقلال العلم الأدبى إلى الإقبال على الشعرية بوصفها بشارة العهد الجديد للدرس الأدبى، وتبرير حماسهم لها بأن الأبعاد النوعية للأدب، تلك الأبعاد التى لا يشاركه فيها خطاب آخر هى التى تشكل موضوع الشعرية وهى التى تؤسس استقلالها عن غيرها من العلوم الإنسانية التى ظلت تنتهك استقلال الدرس الأدبى.

ولكن المشكلة أن خصوصية الأدبية التى تبرر استقلال الشعرية تتطوى على ما يشكك فى إمكان تقبلها. فضلاً عن أن دعوى الاستقلال هذه تتحطم عند أى فحص مدقق لمكونات الخطاب الأدبى نفسه وعلاقته بغيره. والمفارقة التاريخية الطريفة أن الذين سعوا إلى تأكيد استقلال علم الأدب بموضوعه، ومن ثم استقلال الأدبية عن غيرها، هم أنفسهم الذين اكتشفوا أن حدود هذا الاستقلال دائرة تتداخل معها دوائر أخرى، وأن الأدبى الخالص لا وجود له إلا فى الوهم.

وقد تنبه تودوروف نفسه إلى هذه الحقيقة، خاصة فى المراحل المتأخرة من فكره البنىوى، حين تباعد عن النزعة النسقية المجردة التى ورثها عن الشكليين الروس، وتخلص من عدائهم المتأصل للنزعات التاريخية التى كانت مصدر الهجوم الدائم عليهم، وزادته ممارساته الأدبية يقيناً بأهمية الصلة بين السلسلة الأدبية والسلاسل غير الأدبية. فأخذ يؤكد أن التجربة الیووبية فى

تناول الأدب تتناقض والاستقلال المحض للأدبية، فهناك المبدأ الوظيفي الذي يشكلها في وضع تاريخي، وفي علاقة بغيرها من ألوان الخطاب. ولو تمعنا في علاقة الأدب بغيره من هذا المنظور، سهل علينا إدراك الخصائص المشتركة التي تصل الأدب بالأنشطة الموازية في كل مستوى من المستويات التي يمكن تخيلها، ابتداء من جمل النص الأدبي التي تشارك أغلب الجمل التي تتميز بها ألوان الخطاب الأخرى غير الأدبية، مروراً بما نطلق عليه اسم الملامح الأدبية النوعية، وانتهاءً بالوان التمثيل الإيمائي والتصويري. ويضيف تودوروف إلى ذلك اشتراك القصيدة الغنائية والملفوظات الفلسفية في بعض الخصائص، واشتراكها مع ملفوظات المواعظ والصلوات على مستوى تنظيم الخطاب. وإذا كان السرد الأدبي يظل وثيق الصلة بالسرد التاريخي، أو الصحفي، أو شهادات الأفراد، فإن المنظور الأنثروبولوجي يؤكد صلات أخرى تربط الأدبي من الخطاب بغيره على مستوى الوظائف الرمزية.

وحين نسقط المنظور الآتي على مستويات التعاقب يمكن أن ندرك المبدأ الوظيفي للأدبية في ضوء أسطح، ونراها بمثابة مجموعة من الوظائف أو الأوضاع المتغيرة مع الأزمنة والمجتمعات، على نحو لا يمكن معه أن تتخذ الأنساق الأدبية صفة الدوام الثابت من عصر إلى عصر، كما تصورت الشعرية في بداية أمرها، أو يتخذ الأدب طابع الثبات، من مجتمع إلى آخر، حسب التصور البنيوي التقليدي، وإنما تتحول الأدبية إلى تقاطع

مستويات متغيرة، تتداخل مع غيرها من المستويات، على نحو يصعب معه تخيل خاصية بعينها تنتمي إلى النصوص الأدبية وحدها، أو تظل ثابتة دون تغير.

ويعنى ذلك أن الأدبية التي هي موضوع الشعرية نسبية، ومتغيرة، سواء من المنظور الآنئ أو المتعاقب، وأننا إذا تحدثنا، فى مستوى، عن ما يميز الاستخدام الأدبى للغة بالقياس إلى غيره من ألوان الاستخدام غير الأدبى، ففي مستوى آخر نحتاج إلى أن ننظر إلى كلا الاستخدامين بوصفهما متصلا واحدا. فالحدود بين الاستخدامات ليست مطلقة بل نسبية متغيرة، وما يعده عصر من العصور متصفا بالأدبية، ومن ثم يدخل فى موضوع الشعرية، يخرج عصر آخر منها. ولم يعد هناك مبرر، فيما يضيف تودوروف إلى ذلك، لأن نقصر الأدب على نمط الدراسات التي تتجمع تحت مسمى الشعرية. فالمسمى لا يقتصر على النصوص الأدبية وإنما يجاوزها إلى غيرها من النصوص، ولا يقتصر على رمزية الإنتاج اللغوى بل يجاوزها إلى غيرها من ألوان الرمزية. وإذا كنا لا نزال نمنح الأدب منزلة متميزة، على حساب كل أنواع الخطاب، فقد أن الأوان لنذكر أن هذا التمييز ينطوى على موقف إيديولوجى، وليس له ما يبرره فى الظواهر نفسها، فالأدب لا يمكن التفكير فيه خارج العملية الشاملة التي تتشكل بها كل أنماط الخطاب.

ولكن ما الذى يتبقى من الشعرية، والأمر كذلك، على مستوى استقلال الموضوع؟

لقد ظل منظرو الشعرية - العلم، ومنهم تودوروف، يضيفون إليها احتراساً بعد احتراس، وتعديلاً إثر تعديل، نتيجة الممارسة الذاتية من ناحية ومحاورة النقد الموجّه إليها من ناحية ثانية، إلى أن تباعدت عن البداية التي استهلّت بها وعودها الحماسية الأولى. ولذلك اختلف الحديث عن قدرتها على الكشف عن القوانين الأدبية الشاملة أو الأبنية الكلية المولدة للأعمال الأدبية شيئاً فشيئاً. وحين انتهت الدعاوى العلمية الكبرى المصاحبة للبداية، تعلمت الشعرية فضيلة التواضع العملي، وأصبحت قادرة على تمييز ما هو في مقدورها، انطلاقاً من مبدأ الواقع لا مبدأ الرغبة، فاستبدلت بالمطلق من دعاها النسبي من إمكاناتها، وبالثبات المجاوز للزمن في صفات موضوعها التغير الواقع في الزمان والمكان المتعينين، فأصبحت بعض التاريخ الذي ابتدأت بالتنكر له.

وأول ما ترتب على هذا الوضع المعرفي الجديد أن استقلال العلم (الشعرية) بموضوعه (الأدبية) أخذ ينداح في سياق أوسع، هو سياق العلم الأشمل لتحليل أنواع الخطاب، فتحققت فيها نبوءة شبيهة بنبوءة دى سوسير الذي توقع أن يغدو علم اللغة مجالاً من مجالات العلم العام للعلامات. وقد حدث ذلك، على مستوى الشعرية، حين قنع منظرها البارز تودوروف بأن تقوم بدور متواضع، هو دور المؤشر الذي يمكن أن ينتهي به الأمر إلى أن يذوب في علم أوسع تغدو الشعرية بعض مجالاته، هو «علم الخطابات» الذي تعنى بدايته نهاية الشعرية. ويعلن

تودوروف هذه النهاية فى عبارات ميلودرامية يختتم بها كتابه عن الشعرية، كما لو كان يختتم حياتها، قائلاً إن الشعرية تدعوها القوة التى أنتجتها إلى أن تضحى بنفسها على مذبح المعرفة العامة. وليس من المتيقن أن يكون هذا المصير مأسوفا عليه.

ولست على يقين تام من مقصد تودوروف من هذه العبارات (الشعرية) على وجه التحديد. ولكنها تعنى، عموماً، أن علم اللغة الذى أوجد الشعرية، بوصفها وعده المنهجى لدراسة الأدبية، هو نفسه الذى أوجد مصطلح «الخطاب» الذى استوعبها وقضى على تميزها ودعاوها المنهجية. ولذلك يعود تودوروف، بعد ثمانى سنوات، فى مقدمة الترجمة الإنجليزية لكتابه، ليقول إن الشعرية أصبحت نظرية الخطاب الأدبى التى تتكامل داخل النظرية العسة للخطابات. ويرجع ذلك إلى أسباب تتصل، أساساً، بحقيقة أن الخصوصية الأدبية ليست ذات طبيعة لغوية أو عامة أو كونية، وإنما ذات طبيعة تاريخية ثقافية. وما يلفت الانتباه، فضلاً عن هذا التأكيد، أن تودوروف يستبدل بمسمى «العلم» القديم مسمى «النظرية». وهو استبدال يدل على التحول الذى تم فى تصوراتهِ هو عن الشعرية من ناحية، وعلى تبدل الأحلام التى خايل بها النموذج اللغوى للبنوية الأذهان من ناحية ثانية. وذلك هو السبب الذى تصاعد بوعى «التاريخ» فى كتابات تودوروف، منذ أن أعلن رفض الطبيعة اللغوية الخالصة للخصوصية الأدبية لتجاهلها الطبيعة التاريخية الثقافية للأدب، ومنذ أن ألح على تاريخية القراءة، وعلى ضرورة الوقوف فى

موقع يتوسط ما بين نزعة التعميم فى نظرية الخطاب ونزعة التخصيص فى تأويل النصوص (وللتأويل جناحان لايطير إلا بهما مجتمعين: اللغة والتاريخ) وذلك على نحو أدى به إلى وضع الإيديولوجيا فى الاعتبار، وفهم الأنواع الأدبية فهما يربطها بالتاريخ الذى صارت اللغة بعض حضوره.

وليس من المصادفة أن يتحدث تودوروف عن نظرية الخطاب بوصفها الوعد الأجد، وأن يلج على مسمى الخطاب نفسه كلما تجاوز الوضع التقليدى للبنىوية، وكلما استبطن ثغرات الشعرية، واستبدل بالنظرية العامة فى البنية نقيضها فى النظرية العامة للخطاب. وتلك هى المجاوزة التى دفعته إلى تأكيد حضور الفاعل الإنسانى فى التاريخ، من حيث هو عنصر تكوينى فى بناء النظرية التى لا تؤمن بالدعوى المطلقة للعلم السرمدى بالأدبية أو غيرها. إنه التجاوز الذى اقترن بالمجالات الجديدة لنظرية الخطاب التى تعد بكشوف أبعد، خصوصاً بعد أن أسهمت فيها أقطار متعددة تحت مسميات مختلفة، تتميز كلها عن علم اللغة فى أنها لا تنحصر فى الوصف اللغوى، وعن الشعرية فى أنها لا تقتصر على الخطاب الأدبى. وسواء أشارت هذه المسميات إلى التداولية، أو اللغويات الشارحة، أو اللغويات الأدائية، أو البلاغة الجديدة، أو النزعة التاريخية الجديدة، أو ما بعد البنىوية، أو حتى ما بعد الاستعمار، فإن ما يجمع بينها هو البدء من رفض ما ينطوى عليه النموذج المنهجى فى لغويات دى سوسير من انكفاء على موضوعه، واختزال معنى الأدبية فى الخصوصية

اللغوية وحدها. يضاف إلى ذلك نقض ما يترتب على هذا النموذج، أو يلزم عنه منطقيا، من تغييب لدور الفاعل الإنسانى للخطاب، وتحويل مفهوم البنية إلى نسق مطلق السكون.

وقد أثبت هذا النقض أن النموذج المنهجى فى لغويات دى سوسير، على نحو ما هى عليه، لم يحل مشكلات دارس الشعرية، وعجز عن الوفاء بما تحتاج إليه دراسة الخطاب، وذلك بسبب ما فرضه النموذج من سكون على حقل تحليله، وما تأسس به من تجاهل لفاعل الخطاب ومستقبله، وأخيرا عدم قدرته على تفسير الكثير من الأدوار التحويلية للخطاب الإنسانى، حيث اللغة المقموعة تعنى أكثر مما تبديه الأبنية الخادعة لها، وحيث التلازم الدائم بين المعرفة والقوة، والحوار المتواصل بين الذاتى والموضوعى، والتوتر الذى لا ينقطع بين العلم والإيديولوجيا.

هكذا، انتهت الشعرية الاسم بعد أن عجزت عن تحقيق ما وعدت به فى بدايتها، وبعد أن قنعت بدور انتقالى فى ختامها، فغادرت مواقع الاهتمام والتأثير، وانتقلت كتبها من واجهات عروض الكتب إلى أرفف المكتبات الأكاديمية، ومن المناظرات الحماسية للنقاد إلى كتابات المؤرخين، شأنها شأن الأم الكبرى -البنوية التى غربت شمسها، وفقدت ما كان لها من جاذبية وجمهور، بعد أن عجزت عن الوفاء بما تعهدت به من اكتشاف الأبنية الكلية للعقل الإنسانى. وعاقبها التاريخ الذى لم تؤمن بتقدمه الصاعد، وفرض عليها أن تترك موقع الصدارة لنظرية الخطاب، ولكل ما ينطوى عليه فعل الخطاب نفسه من دلالات

المابعد: ما بعد البنيوية وما بعد الحداثة وما بعد الكولونيالية.. إلخ. وهى الدلالات التى تبرز صعود نظريات تحليل الخطاب التى لا تكف عن مخايلة العقول هذه السنوات، والتى إن دلت على شئ فإنما تدل على سرعة إيقاع التغير، ولهفة اكتشاف الآتى، والبحث عن ملامح زمن لا يكف عن التحول، وغلبة التعددية التى فرضت نفسها على دراسة الخطاب فتحوّلت إلى نظريات متباينة.

ولكن علينا أن لا ننسى أن انتهاء الشعرية الاسم كان يعنى بقاء الشعرية الصفة، فعندما تراجعت الأولى الدالة على العلم الأدبى الثابت، تقدمت الثانية الدالة على مبادئ الصنع المتغير، وغدت قرينة التعدد والتنوع والمغايرة حسب المجال الذى يمكن أن يتصف بها، وحيث الفعل الإنسانى الذى يواجه ما يظل فى حاجة إلى الكشف، بحثًا عن أسرار الصنعة التى لا تنفصل عن الفاعل الذى ينتج خطابها أو المتلقى الذى يستقبل هذا الخطاب.

وعى النظرية

وعى النقد الأدبي بنفسه

لعل أول ما يلحظه المتتبع للنقد الأدبي الحديث، على مستوى الحضور الذاتى لهذا النقد، أنه ينطوى على درجة عالية من الوعى بالذات، وأنه فى الوقت الذى يؤكد الحضور المستقل للأعمال الأدبية، فى حال تناوله لها، يؤكد الحضور المستقل لنفسه بوصفه مؤسسة، أو بنية علائقية من الممارسات الخاصة، أو مجالا معرفيا متميزا بذاته وفى ذاته. هذا الوعى الذاتى يتجلى فى مظاهر كثيرة، أولها الكتابات الوفيرة التى تتناول تاريخ النقد الأدبي بوصفه نشاطا متميزا. وثانيها الكتابات التى تحاول تصنيف حاضر النقد الأدبي، من حيث مذاهبه ومدارسه وتياراته المختلفة، فى عمليات تأصيل وتفسير لا تخلو من معنى القراءة بكل لوازمها. وثالثها الموسوعات النقدية التى تحاول ملاحقة المداخل والمناهج والمصطلحات المتدافعة فى إيقاعها الذى لا يكف عن التغير والتحول. ورابعها ذلك الكم الوفير من الكتابات المتتابعة التى اعتدنا تصنيفها فى باب نقد النقد، وهى الكتابات التى تراجع النشاط النقدي فى فعل الممارسة من منظور الوصف والتفسير والتقييم.

وأخيرا، هناك الوفرة اللافتة من كتب النظرية النقدية، أو كتب "النظرية" على سبيل التحديد، تلك التى أخذت تفرض نفسها إلى درجة دفعت واحدا من أبرز دعاة الفلسفة التحليلية، إن لم يكن أبرزهم، فى الولايات المتحدة، وهو ريتشارد رورتى إلى أن

يؤكد، فى كتابه الشهير عن "الفلسفة ومرآة الطبيعة" الصادر عام ١٩٧٩، أن النقد الأدبى حلّ بالفعل محل الفلسفة فى الولايات المتحدة الأمريكية وانجلترا فى وظيفتها الثقافية الأساسية، من حيث هى مصدر للتمييز الذاتى لدى الشباب فى تحديد اختلافهم عن الماضى. ويرجع السبب فى ذلك إلى الإطار الكانطى (نسبة إلى الفيلسوف عمانوئيل كانط ١٧٢٤-١٨٠٤) المأدبى للتاريخ فى الفلسفة الأنجلو سكسونية، وذلك على نحو أصبحت معه الوظيفة الثقافية لمعلمى الفلسفة فى البلاد التى يتأكد فيها الحضور الهيجلى (نسبة إلى الفيلسوف الألمانى فردريك هيجل ١٧٧٠-١٨٣١) مختلفة تماما، وأقرب إلى وضع نقاد الأدب فى الولايات المتحدة.

هذه الدرجة العالية من الوعى بالذات مجلى من مجالى، أو علامة من علامات، حداثة النقد الأدبى فى عصرنا الراهن، ذلك لأن الحداثة تنطوى على وعى ضدى ينقسم على نفسه باستمرار، ويضع نفسه موضع المساءلة على نحو يضمن للأنا اليقظة التامة التى لا توقعها فى شراك ماضئها التقليدى، وتدفعها إلى عدم التخلّى عن رغبة المجاوزة المستمرة فى فعل من التوتر الدائم. أعنى فعلا لا يتوقف عن مراجعة الإنجازات، والاندفاع فى أفق من التقدم المتصل الذى يتحول به الحاضر المتغير إلى مستقبل واعد بكل الممكنات.

وحين ينقسم النقد الأدبى على نفسه على هذا النحو، ويصبح وعيه بذاته وعيا مزدوجا، ذاتا وموضوعا فى آن، فإن هذا

الانقسام يغدو علامة على توتر الخطاب النقدي فى علاقته بذاته، وعلاقته بموضوعه، وعلاقته بشبكة الخطابات التى يدخل طرفا فيها، سواء من منظور الماضى- الحاضر، ومستوى الأنا - الآخر. وكلاهما منظور تؤسسه علاقات تنطوى على إشكاليات معرفية متعددة، إشكاليات يبرزها الوعى الذى لا يكف عن وضع نفسه موضع المسألة، متوترا برغبته فى إعادة اكتشاف حضوره، وتأسيس هذا الحضور بوصفه تحولا حاسما فى مجرى المعرفة.

وإذا كان هذا الانقسام يعنى تحول الوعى النقدي إلى وعى ضدى لا يكف عن مساءلة ذاته، ومن ثم دخوله أفق الحداثة، فإنه يعنى إلحاح هذا الوعى على تأمل حضوره العلائقى تأملا متزامنا، لا ينفصل فيه طرف عن غيره، وذلك بطرائق يغدو بها فعل التأمل فعلا متعدد الأبعاد والعلاقات فى أنيته التى لا يغيب فيها حضور طرف من الأطراف. ونتيجة ذلك هى التجاوب الذى يقع على مستويات ثلاثة متفاعلة فى علاقاتها التى تتبادل التأثير والتأثير. ويرتبط أول هذه المستويات بتأمل الوعى النقدي علاقته بموضوعه فى الأدب، من حيث كيفية قراءته أو إعادة بناءه، فى فعل من أفعال المناقلة التى يتكرر بها الموضوع، متقلبا ما بين حال الوجود الأدبى وحال الوجود النقدي. ويرتبط ثانى هذه المستويات بتأمل الوعى النقدي علاقته بترائه الخاص اتصالا أو انفصالا، أو إعادة إنتاج تأويلية تفضى إلى قراءة جديدة هى فى ذاتها مجلى من مجالى الخطاب النقدي المتغير. ويرتبط المستوى الأخير

بحوار الوعي النقدي مع الخطابات الموازية، المشابهة والمناقضة، الفاعلة فيه والمنفعلة به، في صراع الخطابات الذي يدخل خطاب النقد الأدبي طرفا فيه بأكثر من معنى.

ولا يحدث هذا الوضع المتميز إلا في الفترات التاريخية التي تمايزها تحولات كبرى أو انقطاعات معرفية، الفترات التي يتصارع فيه الوعي الضدي مع نفسه ومع غيره من أشكال الوعي المناقض، كي يدفع نفسه بنفسه إلى حال من التقدم الذي ينقطع به عن مساره القديم مؤسسا مسارا واعدا. هذا المسار الواعد لا تقتصر بواذره، في النقد الأدبي، على عمليات المراجعة والمساءلة التي لا تتوقف في مجال نقد النقد، أو مجال النشاط المعجمي للمصطلح النقدي، وإنما تجاوزها إلى تولد خطاب نقدي جديد. هو خطاب "أنا" النقد المُحدَّثِ المنقسمة على نفسها في وعيها بحضورها، وفي ملفوظاتها التي تبين عن ذاتٍ فاعلةٍ، مَوْضُوعُها هو عَيْنُ ذاتِها التي تستهل عهدا جديدا من المعرفة النقدية.

هذه المعرفة الجديدة معرفة بنائية بأكثر من معنى. معرفة لكل فيها الأولوية على الأجزاء، وللحضور العلائقي هوى العقول التي تريد أن ترى النظام في الفوضى والجمال في النظام. وحتى حين ينقلب النزوع البنائي إلى نزوع لنقض البناء، فرارا من طغيان مركزية العلة، ويحثا عن ذات متواضعة لا تحتكر المركز الواحد الأحد، وتعيد الاعتبار لمعنى النسبية، وتفتح أفق الاحتمالات المتكافئة، فإن الطابع البنائي لا يغيب عن آليات المعرفة المتحولة، سواء في إلحاحه على الحضور العلائقي، أو

بحثه عن الأنساق التي تمنح الوجود معناه، والحضور غايته،
والخطاب النقدي وظائفه.

وطبيعي أن يغدو هذا الطابع البنائي بعض مكونات الوعي
النقدي في انقسامه على نفسه، أو تحوله إلى وعي ضدي،
فالسمة المشتركة في كل تجليات هذا الوعي وأشكاله أنه وعي
نسقي في كل أحوال حضوره المزدوج، ذلك الحضور الذي يبحث
عن النسق وينجذب إليه، كما ينجذب حجر المغناطيس إلى
الأشياء المجانسة له في قابليته للتمغنت، سواء على مستوى
خطاب النقد في إشارته المباشرة إلى موضوعه الذي هو غيره، أو
إشارته إلى موضوعه الذي هو إياه. ولذلك تزوج الإشارة
المرجعية في الخطاب النقدي، فيشير إلى الأعمال الأدبية التي
يتناولها بوصفه كلاماً على الكلام الأدبي، كما يشير إلى نفسه
بوصفه كلاماً على الكلام الذي هو، بدوره، كلام على الكلام
الأدبي. في الحالة الأولى، يشير النقد الأدبي إلى مايقع خارجه،
وما هو موضوع لذاته الفاعلة أو مفعول لفعليها. وفي الحالة
الثانية، يشير النقد إلى نفسه من حيث هو ذات فاعلة تجتلي
نفسها بوصفها مفعولاً لفعليها.

هكذا بدأ مصطلح النقد الشارح Metacriticism يظهر في
موازاة مصطلح اللغة الشارحة Metalanguage، ويلجّ كلاماً على
الاستخدام النقدي بوصفهما دالين على الثغرات النقد إلى نفسه،
وعلى وعي لغته بحضورها المائز في إشاراتها الذاتية. ويوازي
مصطلح "اللغة الشارحة" مصطلح "النقد الشارح" في دلالة

الخصوص داخل سياقات النقد الأدبي. أما دلالة العموم التي لا تفارق الخصوص فتراجع إلى تمييز الوضعية المنطقية على يدى رودولف كارناب (١٨٩١-١٩٧٠) بين لغة الموضوع ولغة الشرح، إذ ذهب كارناب فى كتابه "مقدمة إلى علم الدلالة" أننا، إذا كنا نبحث أو نحلل لغة من اللغات (ونرمز لها بالرمز "ل١") نظل بحاجة إلى لغة أخرى (ونرمز لها بالرمز "ل٢") نصوغ فيها نتائج بحثنا فى "ل١"، أو نصوغ فيها قواعد استخدام "ل١". وفى هذه الحالة، نسمى "ل١" لغة الموضوع ونسمى "ل٢" لغة الشرح. فلو كنا نصف باللغة الإنجليزية التركيب النحوى للغة الفرنسية، أو نحلل المؤلفات الأدبية فى اللغة الفرنسية باللغة الإنجليزية، عندئذ تكون الفرنسية لغة الموضوع والإنجليزية لغة الشرح. وكل لغة كائنة ماكانت يمكن اتخاذها لغة موضوع ولغة شارحة فى آن، مثال ذلك حين نتحدث عن النحو الإنجليزى باللغة الإنجليزية، أو نتحدث بالإنجليزية عن الأدب الإنجليزى.

هذه النتيجة التى توصل إليها كارناب نقلها عنه إلى العربية المرحوم زكى نجيب محمود فى كتابه "خرافة الميتافيزيقا" الذى صدر عن مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر فى القاهرة سنة ١٩٥٣، فكان أول تقديم نظرى للوضعية المنطقية فى اللغة العربية، وأول تقديم عربى لمصطلح ما لبث أن شاع فى الدوائر المنهجية للعلوم الإنسانية بوجه عام والنقد الأدبى بوجه خاص. وكان للمفاهيم التى انطوى عليها المصطلح فى هذه الدوائر تأثيرها فى مجال النقد الأدبى، على نحو أدى إلى تأصيل مفهوم

"النقد الشارح" بوصفه مفهوماً يشير إلى نظام لغوى ثان، هو لغة شارحة لنظام لغوى أول هو لغة الموضوع. وكما نُظِرَ إلى "التاريخ الشارح" بوصفه فلسفة التاريخ، وإلى فلسفة العلم بوصفها "العِلْمُ الشارح"، نُظِرَ إلى "النقد الشارح" بوصفه الخطاب النظرى عن طبيعة وأهداف النقد.

ومن اللافت للانتباه المؤسسى أنه بعد تقديم زكى نجيب محمود لأفكار كارناب، فى هذا الجانب، مضى النقد العالمى فى الإفادة من أفكار الوضعية المنطقية، وظل النقد العربى الذى أسهم فيه زكى نجيب محمود منتظرا ثمار هذه الإفادة كى يستعيرها كعادته. ومن المفارقات الدالة أن رومان ياكوبسون (١٨٩٦-١٩٨٢) أصدر دراسته الرائدة عن "الحبسة بوصفها مشكلة لغوية" (سنة ١٩٥٥) بعد عامين فحسب من صدور كتاب زكى نجيب محمود عن "خرافة الميتافيزيقا". وهى الدراسة التى كانت أساسا للدراسة اللاحقة بعنوان "جانبان اللغة ونمطان لأضطراب الحبسة". ونقل ياكوبسون عن كارناب، فى هذه الدراسة، ضرورة التمييز بين اللغة الموضوع واللغة الشارحة، مؤكدا قوله "إننا نحتاج إلى لغة شارحة كى نتحدث عن أية لغة موضوع"، بوصفه أحد الإسهامات المهمة التى أسهم بها المنطق الرمزى فى علم اللغة البنىوى الذى كان أساس البنىوية فى النقد الأدبى. ولم يقتصر هذا الإسهام على علم اللغة البنىوى وحده، حيث نظر ياكوبسون إلى اللغة الشارحة بوصفها وظيفة من وظائف "الحدث الكلامى" تشير فيها اللغة إلى نفسها، وإنما

جاوزه إلى تأسيس "النقد الشارح" من منظور معرفى جديد.

والمسافة بين "اللغة الشارحة" و"النقد الشارح" هى المسافة بين طرفى المتصل نفسه فى النظرية البنيوية التى أشاعها ياكوبسون وتلميذه ليفى شتراوس، بعد أن حمل ياكوبسون ميراث الشكليين الروس لسنوات طويلة. أعنى المتصل الذى يصل بين المصطلحين على أساس من مبدأ كارناب الذى تحول إلى مبدأ من مبادئ فلسفة العلوم وقاعدة من قواعد النظر المنهجى. وقد أكد انتشار هذا المبدأ التسليم المتصاعد بأن تقدم المعرفة، فى أى فرع من فروعها، يرتبط بالدرجة التى ترد بها هذه المعرفة إلى ذاتها، وقدرتها على أن تجتلى نفسها فى مرآة منهجها التى هى إيّاها، والتى تساعد على تأسيس وإعادة تأسيس علاقاتها الذاتية والغيرية. وكان ذلك يعنى اتساع أفق "العلم بالموضوع" ليضم "فلسفة العلم"، والانتقال من الاقتصار على الموضوع التجريبي للتناول العملى إلى إخضاع هذا التناول لتأمل الوعى الذى يصوغ "نظرية" فى تناول الموضوع. هكذا، أصبحت "البنيوية اللغوية" لغة شارحة على مستوى العلم باللغة، فى موازاة "الشعرية" التى هى لغة شارحة موازية على مستوى العلم بالأدب، ولكن من المنظور الذى تنعكس فيه البنيوية على نفسها لتجتلى ذاتها، أو ترد الشعرية على نفسها لتتأمل حضورها الذاتى بوصفها بنية.

ويترتب على ذلك، معرفياً، أننا لا يمكن أن نمضى فى مناقشة لغة الموضوع، ونتقدم فى أفقها المعرفى، لنؤسس إشارتها إلى موضوعها إشارة مباشرة على مستوى التطبيق، أو

إشارة غير مباشرة على مستوى التنظير، إلا إذا أسسنا لغة شارحة تتولى الضبط المنهجي لحركة النقد الأدبي وممارساته، وذلك بكيفية ينعكس بها النقد على نفسه، ويشير إلى ذاته على سبيل الوصف أو التحليل، كما تنعكس اللغة على نفسها، وتصف ذاتها بذاتها قبل أن تصف علاقتها بالعالم، أو حتى أثناء ممارستها فعل الإشارة إلى العالم.

ويدل هذا النوع من الازدواج على درجة عالية من الوعي بالذات، درجة تنطوى على طبيعة نسقية، تؤدى دورا معرفيا ووجوديا، سواء على مستوى اجتلاء الذات الفاعلة مدى فعلها، أو مراجعتها السلامة النظرية التى تنطوى عليها إجراءاتها العملية، أو على المستوى الذى تؤكد به هذه الذات حضورها بالقياس إلى موضوعها، من حيث هو حضور يكافئ حضور الموضوع، ويوازيه موازنة الأكفاء لا موازنة الأتباع. وكما تؤكد موازنة الأكفاء بين النقد والأدب الحضور المستقل لكليهما، من حيث هما مؤسستان متوازيتان، فإن هذه الموازنة، بدورها، تؤكد الوعي النسقى الذى تنطوى عليه كل مؤسسة من المؤسسات، من حيث هى حضور علائقى من القواعد والمبادئ والعناصر التى تلتفت إلى ذاتها فى الوقت الذى تشير إلى غيرها، والتى لا معنى لها خارج النسق الذى هو ناتج تفاعل العلاقات وليس حاصل جمع الأجزاء.

مستويان للغة الشارحة

يتزامن بداية وعى "الأنا المحدثه" فى النقد الأدبى بذاتها وصعود المدرسة الشكلية الروسية، وبخاصة ما صاحب هذا الصعود من توهج الرغبة فى خلق علم أدبى مستقل، انطلاقا من الخصائص المحايثة للمادة الأدبية. هذه الرغبة هى التى دفعت بوريس إخنباوم (١٨٨٦-١٩٥٩) من الشكليين الروس إلى الإلحاح على أن هدفهم الوحيد هو الوعى النظرى والتاريخى بالوقائع التى تميز الأدب من حيث هو أدب، كما دفعت رومان ياكوبسون (١٨٩٦-١٩٨٢) إلى صياغة المبدأ الشكلى الأساسى الذى أكد أن موضوع العلم الأدبى ليس هو الأدب وإنما الأدبية أى ما يجعل من عمل من الأعمال عملا أدبيا.

وكان هذا النوع من الوعى وعيا مزدوجا يعيد صياغة العلاقة بين ذات النقد وموضوعه، فى الوقت الذى يعيد صياغة كل من الطرفين اللذين تقوم عليهما هذه العلاقة، على نحو استبدال بالمفاهيم السائدة المقتربة بكل طرف مفهوما جديدا. ونتج عن ذلك أن حل مفهوم النسق الكلى (الأدبية) الذى تنطوى عليه الأعمال الأدبية ويحتويها محل شتات الأعمال الأدبية التى لم تعد، فى ذاتها ومن حيث هى أعمال مفردة، موضوعا للعلم الأدبى. وحل محل شتات الممارسات النقدية مفهوم نسق مواز، تنطلق منه هذه الممارسات وتجسده فى مستوياتها المتعددة. وكما كان الوعى بالنسق الكلى للأعمال الأدبية وعيا بالخطاب الأدبى، فى حضوره

العلائقي وخصائصه البنيوية المحايثة، كان الوعي بالنسق الموازي (النظرية) وعيا بالخطاب النقدي، من حيث هو حضور علائقي مقابل، تنطبق عليه القوانين البنيوية نفسها. ولذلك أعلن ياكوبسون وتنيانوف، في بيانهما الذي نشراه (عام ١٩٢٢) عن مشكلات الدراسة الأدبية واللغوية، أن تحليل القوانين البنيوية للغة والأدب وتطورها يفضي، حتما، إلى تأسيس سلسلة محدودة من الأنماط البنيوية الموجودة بالفعل (في موازاة أنماط من التطور التاريخي). هذه الأنماط البنيوية تنتسب إلى الخطاب الأدبي من حيث هي وصف له، وتنتسب إلى الخطاب النقدي من حيث هي تجسيد له، فهي حضور مزدوج، يشير إلى نوعين من الخطاب، يوازي كلاهما الآخر، ويخضع معه لقوانين بنيوية متكافئة.

وكانت الترجمة العملية لذلك هي ما أعلنه ياكوبسون وتنيانوف، فيما يتصل بدراسة التاريخ الأدبي، من أن تاريخ النسق نسق بدوره. فكل نسق أنى له ماضيه ومستقبله اللذان هما عنصران بنائيان لا ينفصلان عن النسق، كما أن كل نسق يوجد بوصفه تطورا بالضرورة، في الوقت الذي لا يخلو فيه أى تطور من طبيعة نسقية. ولو نقلنا ما قاله ياكوبسون وتنيانوف عن التاريخ الأدبي إلى النقد الأدبي، أو الخطاب النقدي، كانت النتيجة واحدة، وظل خطاب النسق الأدبي نسقا بدوره، من حيث انطوائه على سلسلة محدودة موازية من الأنماط البنيوية الموجودة بالفعل، ومن حيث تأسس هذه الأنماط بنوع من النسق الذي

يميزها بوصفها خطاباً له وظائفه.

ويلزم عن هذه الخاصية النسقية انتقال الخطاب النقدي من دور التابع السالب إلى دور الفاعل الموجب، من دور المرأة التي تعكس على نحو سلبي المدركات التي تقع عليها إلى دور الذات الفاعلة التي تنظر إلى الأشياء وإلى نفسها في الوقت نفسه، فتعنى نفسها في فعل وعيها بغيرها، وتؤسس لمعنى "الأدبية" في الوقت الذي تؤسس في النقد لمعنى "النظرية". ويفضى ذلك إلى نوع مواز من الكتابة النقدية المستقلة، له حضوره الخاص الذي يستحق التأمل في ذاته ولذاته، من حيث هو نشاط متعدد الوظائف، يشير إلى الكتابة الإبداعية من حيث هو كلام عنها، ويشير إلى نفسه من حيث هو كلام على الكلام، ويشير إلى وعيه بنفسه من حيث هو كلام على كلام الكلام، فهو نشاط يشبه اللغة التي هو منها، سواء في قدرتها على الإشارة إلى ما يقع خارجها، أو الإشارة إلى نفسها في فعل إشارتها إلى العالم، والإشارة إلى ذاتها في فعل تعقلها طبيعة إشاراتها.

بدأ الأمر بما استهله الشكليون من تمييز بين وعى الذات الناقدة بالموضوع ووعى هذه الذات بوعيتها بالموضوع، وذلك من حيث قدرتها على الإشارة المتعددة إلى أنواع من الكلام، لكل نوع حضوره النسقي الذي يمكن اكتشاف طبيعته العلائقية. والواقع أن إنجازات الشكليين الروس في "الأدبية" إنجازات أُكِّدت الحضور المتعدد للوعى بالأدب، فالأدبية هي وعى الأنساق الكبرى التي تنطوي عليها النصوص الأدبية فتجعل منها ما هي عليه حين

ترد تكثرها إلى وحدة بنائية. وهى وعى الوعى بهذه الأنساق، وتحويل هذا الوعى الثانى إلى أنساق موازية، مكوناتها العلائقية هى كلام النظرية على الكلام النقدى الذى يدور حول الكلام الأدبى. ويترتب على ذلك ضرورة التمييز بين ثلاثة مستويات، يلزم الفصل النظرى بينها لإحراز تقدم واعد فى المعرفة النقدية. يرتبط أول هذه المستويات بالكلام الأدبى ذاته. ويرتبط ثانيها بمستوى الكلام النقدى عن الكلام الأدبى. أما ثالثها فهو مستوى الكلام عن الكلام النقدى، سواء فى وعيه بموضوعه أو وعيه بنفسه، من حيث حضوره النسقى الذى ينطوى على إشارات الذاتية التى لا معنى لها خارج علاقاته.

ولقد ظل التركيز على المستوى الثانى فى علاقته بالمستوى الأول نوعاً من الانعكاس الآلى لوقت طويل قبل الشكليين الروس، كما لو كان الكلام النقدى زجاجاً شفافاً لا يعنينا منه إلا صفائه الذى يمكننا من النظر إلى ما وراءه لا النظر إليه فى ذاته. وكما كان الزجاج صافياً فى شفافيته كانت رؤية ما يقع وراءه أوضح، وكان اهتمامنا بالزجاج نفسه أقل، وحضوره الذاتى فى حكم المعلوم. وتلك هى المفارقة التى وضعت النقد الأدبى موضع التابع للنص الأدبى، ونفت عنه حقه فى الحضور الذاتى المستقل الذى لا يتعارض مع الحضور الذاتى المستقل للعمل الأدبى فى الوقت نفسه. ولذلك شاعت المقولات التى تحصر دور الناقد الأدبى فى كونه قارئاً لقارئ، عدسة أكثر شفافية ينظر من خلالها القارئ إلى العمل فيراه بوضوح أكبر، مرآة ناصعة ينعكس عليها العمل

الأدبى من حيث هو كيان مكتمل فى ذاته وبذاته قبل فعل الانعكاس على المرأة.

وربما كان تجاهل الحضور المستقل للنقد الأدبى على هذا النحو، من حيث علاقته بالعمل الأدبى، أو من حيث حضوره النظرى الخاص، راجعا إلى أن الالتفات إليه فى ذاته، يحتاج إلى درجة عالية من الوعى الذى يلتف على نفسه فيغدو ذاتا وموضوعا فى آن. وهى درجة تقترب بصعوبة الكلام على الكلام، كما قال أبو حيان التوحيدي قديما، فالكلام على الأمور الواقعة خارجه فيه متسع، أما الكلام على الكلام فإنه يدور على نفسه، ويلتبس بفضه ببعضه، ولهذا صعب "النحو" وما أشبه النحو من المنطق لأنه كلام على الكلام. ويبدو أن ذلك الذى قاله التوحيدي هو ما دفعه إلى أن يطرح على أبى زكريا الصيمرى، فى المقابسة الثامنة عشرة من مقابساته، السؤال الذى يدور حول الحضور المزدوج للكلام، من حيث هو "بينونة" بين المتكلم ونفسه، أو من حيث هو فعل معرفى يتحول به الوعى إلى ذات وموضوع، كما لو كان الإنسان ونفسه يتجليان، فى هذا النوع من الفعل، بوصفهما جاريين متلاصقين يتلاقيان فيتحدثان، ويجتمعان فيتحاضران.

هذه "البينونة" التى تحدث عنها التوحيدي، فى تساؤلاته التى قامت على حدوس باهرة، هى الوعى المتعدد الذى انطوى عليه النقد الأدبى، منذ أن نبه الشكليون الروس إلى تباين أبعاد ووظائف هذا الوعى، والأدوار التى يؤديها فى صياغة "الأدبية" و"النظرية" التى توازيها. لقد كان هذا الوعى المتصاعد بالكلام

على الكلام اللازمة المنطقية التي لم تفارق حلم الشكليين الروس بتأسيس علم أدبي محايد، ينزل منزلة المعرفة الإنسانية القابلة للضبط والتبرير من ناحية، والمراجعة والتغيير والتطوير من ناحية ثانية.

مؤكد أن التنظير النقدي قديم قدم "بويطيقا" أرسطو، ولكن الوعي المتصاعد بالحضور، والإلحاح المتزايد على كون النقد الأدبي خطابا مستقلا، ينطوى على قوانينه الخاصة، ويستحق التأمل في ذاته بوصفه نسقا مستقلا، موازيا لغيره من الأنساق، ويقع في علاقة ضدية بغيره من الأنساق التي تعوقه عن الحضور، إنما هي علامات على ظاهرة محدثة بدأت في موازاة الوعي باستقلال الكتابة عن أبنية الواقع، وتولدت من رغبة اكتشاف الأنساق العامة التي تجسدها أشكال الكتابة. وإذا كان معنى الكتابة اكتسب دلالة جديدة منذ كشف فردنان دي سوسير (١٨٥٧-١٩١٣) عن اللغة، وهي الكشف التي انطلق منها الشكليون الروس وأضافوا إليها، فإن هذه الكشف أفضت إلى إسقاط معنى اللغة على النقد، والنقد على اللغة، في علاقة التبادل التي أضافت إليها الوضعية المنطقية البعد الوظيفي الذي يلتف فيه الكلام على نفسه، فيغدو لغة شارحة أو نقدا شارحا.

وكانت البداية البنيوية في ذلك ما ذهب إليه رولان بارت (١٩١٥-١٩٨٠) حين عرّف النقد الأدبي بوصفه لغة شارحة، في مقال كتبه (عام ١٩٦٣) عن ماهية النقد الأدبي، مؤكدا أن كل نقد (حتى لو كان في أكثر أساليبه المتخيلة تواضعا وعدم مباشرة)

لابد أن ينطوى خطابه على تأمل ضمنى لذاته، فكل نقد هو نقد للعمل والنقد نفسه. ويمضى بارت موضحا فكرته بقوله إن موضوع النقد صعب للغاية، فهو ليس "العالم" وإنما خطابٌ كائنٍ آخر غير الناقد، فالنقد خطاب على خطاب، لغة ثانية، أو لغة شارحة (كما يقول المناطقية) تعمل على اللغة الأولى (أو لغة الموضوع). ويترتب على ذلك أن اللغة النقدية لابد أن تتعامل مع نوعين من العلاقات على الأقل: علاقة اللغة النقدية بلغة المؤلف المنقود، وعلاقة هذه اللغة الموضوع بالعالم. و"الاحتكاك" بين هاتين اللغتين هو الذى يحدد النقد، ويفرض عليه الانتباه إلى لغته هو، سواء فى جوانبها الذاتية أو جوانبها العلائقية. ولعل ذلك هو السبب فى وجه الشبه الكبير الذى يصل ما بين النقد ونشاط عقلى آخر، هو المنطق الذى يقوم، بدوره، على التمييز بين اللغة الموضوع واللغة الشارحة فى مجالاته النوعية.

وحين يعى النقد نفسه بوصفه لغة من هذا المنظور، أو لغة شارحة بعبارة بارت، فإنه ينطوى على مفارقة تميزه، فيغدو ذاتيا وموضوعيا، تاريخيا ووجوديا، متسلطا ومتحررا فى الوقت نفسه. ويرجع ذلك إلى أن اللغة التى يختارها كل ناقد لكلامه، فى حديثه عن العمل الأدبى الذى يتناوله، هى لغة لا تهبط عليه من الأعلى، وإنما لغة من لغات متعددة يقدمها إليه عصره بوصفها، موضوعيا، نتاجا أخيرا لتقدم تاريخى بعينه فى المعرفة والفكر والمشاعر. إنها لغة ضرورة. ولكن هذه اللغة الضرورية تتضمن معنى الحرية، لأنها لغة يختارها الناقد نتيجة وضع وجودى بعينه

بوصفها ممارسة لوظيفة عقلية تخصه هو، ممارسة يضع فيها عصاره فكره، أى خياراته ومواقفه، هواجسه ونواهيه وآلامه ومباهجه. ولذلك يبدأ، من داخل العمل النقدي، حوار بين تاريخين وذاتيتين وخطابين، تاريخ العمل وتاريخ النقد، ذاتية المؤلف وذاتية الناقد، خطاب العمل وخطاب النقد. وذلك حوار يميل، بطبعه، إلى الحاضر، لأن النقد ليس مبايعة لحقيقة من حقائق الماضى، أو حتى مبايعة لحقيقة من حقائق الآخرين، وإنما هو إنشاء لمعقولية زمننا نحن.

هذا النقد الأدبى الذى وصفه رولان بارت بأنه لغة شارحة، فى مستوى من مستوياته، بالقياس إلى لغة العمل الأدبى، نشاط بنيوى فى آخر الأمر. أعنى أنه سلسلة من العمليات العقلية التى تلتزم التزاما عميقا بالوجود التاريخى والذاتى للإنسان الذى يقوم بهذه العمليات. وهدف كل نشاط بنيوى، سواء كان تأمليا أو إبداعيا، هو إعادة إنشاء "الموضوع" بطريقة تكشف عن القواعد الوظيفية لهذا الموضوع، على نحو تغدو معه البنية صورة دالة من الموضوع، تبرز من أبعاده ما لا يعقله إلا النشاط البنيوى، فالبنية هى العقل مضافا إليه الموضوع فيما يقول بارت.

هذا المعنى للنشاط البنيوى يمنح العقل الذى يقوم بإنشاء الموضوع (أو تشييده فى بنية) دورا لا يقلل من أهمية حضوره الفاعل الحضور المستقل للموضوع. والاحتكاك المتوتر بين الحضورين هو علاقة الوعى النقدي فى انقسامه الذى دفع بارت إلى القول بأن كل نقد تطبيقي هو نقد للعمل الأدبى والنقد نفسه،

وأن كل خطاب نقدي ينطوى على تأمل ضمنى لذاته. وذلك قول يؤكد الوعى الذاتى المتصاعد الذى زوّدت به البنيوية النشاط النقدي، حتى فى أكثر حالاته التطبيقية مباشرة وارتباطا بالعمل الأدبى، وينقل الحضور الذاتى للناقد من مستوى الضرورة، فى علاقته باللغة التى يقدمها إليه عصره، إلى مستوى الحرية الذى يصوغ به الناقد خطابه الخاص، وأغيا كل الوعى بوعيه فى صياغة هذا الخطاب، منتبها كل الانتباه إلى العلائق الذاتية والموضوعية لهذا الوعى، من حيث هو وعى بالموضوع، ووعى بالذات التى تعى الموضوع، ووعى بكيفية الوعى فى صلته بكل الأطراف.

ولكن النقد الأدبى يجاوز معنى اللغة الثانية أو اللغة الشارحة عند هذا المستوى من التأمل، وينقلب إلى لغة أولى تستلزم لغة ثانية، أو لغة موضوع تستلزم لغة شارحة، وذلك على نحو يفرض وجوده المحايث فى علاقات النشاط النقدي، من حيث هو نشاط بنيوى لا يكف عن الوعى بوعيه الذى يعى أبعاد العلاقة بين ذاته وموضوعه، ليحقق أحلامه التى تتصل بالكشف عن القواعد الوظيفية للبنية (أو الأبنية) التى ينطوى عليها الخطاب الأدبى، والبنية (أو الأبنية) التى ينطوى عليها الخطاب النقدي، أملا فى الكشف عن مقولات جديدة تكون بمثابة كشف جديدة فى المعرفة الأدبية والنقدية. وعندما يتحرك النشاط النقدي فى هذا الاتجاه، من حيث هو نشاط بنيوى لأنظمة مزدوجة من الخطاب، فإنه يؤكد حضوره بوصفه شكلا من أشكال المعرفة الإنسانية التى تتغير بتغير علاقات إنتاجها.

النقد الشارح

ينعكس الاهتمام باللغة الشارحة للنقد الأدبي على ما أصبح يطلق عليه النقد الشارح بوصفه الخطاب المعرفي الذي يقوم بأداء دور اللغة الشارحة في مجال النقد الأدبي. والتعريف الدائع للنقد الشارح، على نحو ما نجده في الكتابات والموسوعات المتخصصة، هو أنه "خطاب نقدي نظري عن طبيعة النقد وغاياته". وذلك تعريف يندرج في السياق العام لدلالات اللغة الشارحة من حيث هي نظام ثان عن نظام أول من الخطاب. ويعني ذلك أن النقد الشارح ليس سوى اللغة الشارحة في مجالات النقد الأدبي، وأنه يؤدي دورها في حقله النوعي الخاص، فهو إياها حين يلتفت النقد إلى نفسه فيغدو ضرباً من التأمل الذي يؤسس فلسفة العلم بالموضوع.

وإذا كان النقد الأدبي، في أبسط مفاهيمه بوصفه خطاباً لغوياً، هو كل العبارات الموجودة عن الأعمال الأدبية، في إشاراتها المباشرة أو غير المباشرة إلى هذه الأعمال، فإن النقد الشارح هو الخطاب الذي يُنْزِلُ هذه العبارات مُنْزَلَةً الموضوع، ويضعها موضع المساءلة، مختبراً سلامتها المنطقية واتساقها الفكري، ويصعد منها إلى الأنساق التي تحتويها، محلاً أبعادها الوظيفية ودلالاتها التأويلية، مترجماً الأنساق إلى مقولات أو مبادئ تصورية تؤسس حضور "النظرية". هكذا، يغدو النقد الشارح المجال المعرفي الذي يصل بين حدود النقد التطبيقي

وحدود النظرية، فى متصل يبدأ من تصنيف عبارات النقد التطبيقى وينتهى بتحليل المفاهيم الكلية. والمسافة بين طرفى المتصل المدرج هى المسافة بين مستويات النقد الشارح، فى الآليات المترتبة لإشاراته إلى لغة الموضوع -النقد الأدبى- فى تعدد أبعادها ووظائفها.

المستوى الأول من النقد الشارح، فى هذا المتصل، هو المستوى الأصق بالنقد التطبيقى. ويبدأ من حيث ينتهى ناقد يؤكد، مثلاً، أن شخصية السيد أحمد عبدالجواد، فى ثلاثية نجيب محفوظ، هى مجلى من مجالى الأنماط الرمزية العتيقة، أو النماذج العليا للحضور البطيرىكى للأب، وأن تجسيد الثلاثية لهذا النمط، على نحو يفضى فيه الخاص إلى العام، هو سر قيمتها الجمالية ومكانتها الأدبية. وإزاء هذا النوع من النقد، يبدأ النقد الشارح فى تحويل الخطاب النقدي إلى موضوع لمساءلته، طارحاً أسئلة من قبيل: كيف انتهى الناقد إلى ذلك التفسير لشخصية الأب فى الثلاثية؟ وما علاقته بالحكم على قيمتها الجمالية ومكانتها الأدبية؟ وأى نوع من الدلائل يدعم التفسير والحكم؟ وهل صيغ مفهوم النموذج الأعلى فى هذا النوع من النقد صياغة منهجية (علمية) تجعل منه أداة نقدية فاعلة؟ ولماذا يكون حضور النموذج الأعلى فى العمل الأدبى سبباً للحكم عليه بالقيمة؟ وكيف ترتد قيمة تجسد النموذج إلى علاقة الخاص والعام؟ وما نوع هذه العلاقة التى يراها النقد فى النص أساساً لبناء النموذج الأعلى؟ وما دلالة الإلحاح على هذا النموذج دون

غيره فى فهم الأعمال الأدبية؟ وهل لهذا الإلحاح صلة بعالم النقد وسياقه الثقافى؟ وهل ينبىء عن رؤية خاصة بالنقاد أو عن رؤية نقدية سائدة؟ وما علاقة هذه الرؤية بعلاقات إنتاج المعرفة النقدية المتاحة؟

هذه الأسئلة دالة على غيرها الذى يمكن الإفاضة فيه. لكن ما ذكرته كافٍ فى الإبانة عن أن مجال هذه الأسئلة يختلف عن مجال عمل النقد التطبيقي، ويمضى إلى مدى أبعد من المدى الذى ينتهى عنده الناقد فى علاقته المباشرة بالنص الأدبى، طارحا عليه أسئلة يفترض سلفا أن إجاباتها متضمنة فى هذا النص. وعندما تتحول أسئلة الناقد التطبيقي إلى إجابات كاشفة يصوغها الخطاب النقدى فى إشارته المباشرة إلى نص أدبى بعينه، أو مجموعة نصوص، ينتهى عمل النقد التطبيقي. وفى الوقت نفسه، يتحول إلى موضوع يستهل به الناقد الشارح عمله، فى أسئلته التى تبدأ من حيث ينتهى النقد التطبيقي. هذه الأسئلة، بدورها، تبدأ من كيفية المقاربة المباشرة للنص، فى جزئياتها التفصيلية، لتصعد منها إلى ما هو أشمل منها، حيث الأفق التأويلى (الهرمنيوطيقى) لنظريات التفسير. وهو الأفق المتصل باليات العلاقة بين النص المفسر والقارئ المفسر، ودلالة هذه العلاقة على كل من العالم التاريخى للنص وقارئه، فضلا عن دلالة هذه العلاقة على شروط إنتاج المعرفة فى هذا العالم أو ذاك.

لكن يجب علينا أن نؤكد، قبل الدخول إلى هذا الأفق، أن أسئلة النقد الشارح لكيفية المقاربة المباشرة للنص الأدبى، تبدأ

من العبارات نفسها التى يتكون منها خطاب النقد التطبيقي، وتحاول أن تواجهها بواسطة عملية تصنيفية للمقولات الأساسية التى تتضمنها هذه العبارات وتبنى بها فى الوقت نفسه. هذه المقولات تتضام فى أربع مجموعات على وجه الحصر، وهى: التحليل وما يلزم عنه من وصف، والتفسير وما يتضمنه أو يلزم عنه من تقييم، وإذا كان "التحليل" يعنى اكتشاف العناصر التكوينية للعمل، فى حضورها العلائقى وليس فى تجمعها الرُّكامى، فإن "الوصف" هو تسمية هذه العناصر، ابتداءً من أصغر الوحدات الدالة، وانتهاءً بالمكونات الكبرى التى تدخل فى باب تحديد "الأنواع". والعلاقة بين الوصف والتحليل تبادلية، وتدنى بالطرفين إلى حال من الاتحاد عند البعض، وتفضى إلى أسئلة يتناول بها النقد الشارح آليات المقاربة التطبيقية وعملياتها التصويرية وأدواتها الإجرائية وطرائقها فى التسمية. أما "التفسير" فيشير، فى هذا السياق، إلى الكيفية التى تتصل بها العناصر الصغرى والكبرى فى علاقات دلالية تؤدى معنى النص. وترتبط آلياته بمستويات تبدأ من قراءة تركيب نحوى أو دلالى كاشف، مروراً بشرح الرموز والقيمات ودوافع الشخصيات وعلاقات الأحداث، وانتهاءً بالقضايا الاجتماعية السياسية التى ينطقها النص على جهتي التضمن واللزم، منتجا دلالات توازى الدور الذى يؤديه المؤلف المضمن فى انحيازه النصى المراوغ إلى هذا الطرف أو ذاك. وقد ينطوى التفسير على "تقييم" أو يفضى إليه. وقد يستقل التقييم بنفسه. لكنه يظل، فى الحالين، مثيراً

لأسئلة قيمة (إكسيولوجية) ذات أبعاد جمالية وأخلاقية ومعرفية.

والواقع أن التمييز بين مقولات الوصف والتحليل والتفسير والتقييم لا يقع إلا على مستوى التحليل النظرى فحسب، ومن منطق التصنيف الذى يقوم به النقد الشارح لتنظيم مادته أو تحليل موضوعه. أما المقولات نفسها، على مستوى الممارسة، فمتصلة أوثق الاتصال وتتكامل إلى أبعد حد، وذلك إلى الدرجة التى لا تسمح بأى فصل حاسم بينها. وأية ذلك أن الناقد الذى يحدد نمطا نحويا بعينه فى قصيدة من القصائد، من حيث دلالاته على معنى، إنما يحدد قيمة هذا المعنى بطريقة أو أخرى. وعندما يقرأ العلاقة الدلالية بين العناصر التكوينية فإنه يحدد معنى العمل، وفى الوقت نفسه يحدد قيمة هذا المعنى، ومن ثم قيمة الحضور العلائقى الذى تجسّد نصا. وعمله الإكسيولوجى، من هذا المنظور، يتناول (أو يُفترض أن يتناول) القيمة الأدبية (الجمالية) بوصفها قيمة لا تنفصل عن غيرها من القيم، وتشير إليها على جهة التضمن أو اللزوم.

لكن التمييز بين هذه المقولات على المستوى التحليلى، من منظور النقد الشارح، لا يعنى تفتيتها أو الفصل الحاد بينها، وإنما يعنى تصنيفها بما يساعد على رؤية عناصرها التأسيسية فى ذاتها رؤية منضبطة. لكن شريطة لا ينفى ذلك، أو يناقض، حضورها العلائقى الذى يبنى به خطاب الناقد التطبيقي، ومن ثم الكيفية التى ينظر بها إلى عمل أدبى بعينه أو مجموعة من الأعمال الأدبية، وذلك على نحو يفضى إلى نسق المبادئ النظرية

التي يمكن استنتاجها من هذا الخطاب. وإذا انتقلنا من صيغة الأفراد إلى صيغة الجمع أى من عمل الناقد التطبيقي المفرد إلى أعمال النقد التطبيقي ككل، ظل المبدأ العلائقي ثابتاً في دلالتة على طبيعة عملية الاستنتاج التي يتناول بها النقد الشارح موضوعه: النقد التطبيقي، ويعنى ذلك أن تناول مشكلات الوصف والتحليل، وإن تميز نظرياً وتصنيفياً، لا ينفصل عن تناول مشكلات التفسير والتقييم، وأن معالجة أية مجموعة من المشكلات لا تكتمل بمعزل عن غيرها من المجموعات، فكل مشكلة تنطوى على غيرها، أو تشير إلى غيرها على جهتي التضمن واللزوم بما يؤكد حضورها العلائقي الذي يغدو مفعولاً لفعل الاستنتاج.

هذا الفعل، بدوره، ثلاثي الأبعاد على نحو يكشف عن مهام ثلاثة تنبني عليها الأبعاد الوظيفية للنقد الشارح. ويتصل أول هذه المهام بعمليات المراجعة الفاحصة التي يجريها النقد الشارح على النقد التطبيقي من حيث الوصف والاصطلاح، والتناغم المنطقي بين العمليات الإجرائية، وسلامة الأدوات التصورية القائمة على مبادئ وفرضيات أساسية. ومبدأ الحركة في هذه العمليات مزدوج، ينطلق من واقع خطاب النقد التطبيقي ليعود إليه، بعد أن يقيسه على إطار مرجعي سابق عليه في الوجود وربما الرتبة. الحركة الأولى حركة من خطاب النقد التطبيقي إلى المبادئ والفرضيات القبلية السابقة على وجوده والفاعلة في وجوده. والحركة الثانية حركة من خطاب النقد التطبيقي إلى نسق موازٍ، مشابه أو مخالف، موافق أو مضاد، من

المبادئ والفرضيات التي ينطلق منها الناقد الشارح. والحركتان مترابطتان من حيث هما وجهها عملة واحدة، في عملية واحدة لا تتدابر عناصرها أو تنفصل أبعادها. والقياس فيهما قياس فرع على أصل بما يحدد سلامة الفرع في انتسابه إلى أصله، وبالنظر إلى أصل موازن، هو الإطار المرجعي المعتمد في النقد الشارح. والمعيار منطقي في كل الأحوال، يحدد الصواب مقابل الخطأ، والاتساق مقابل التناقض، ودوران العلة (السبب) مع المعلول (النتيجة) وجودا وعدما مقابل انقطاعهما.

والمهم الثاني من مهام النقد الشارح تفسيري، ذلك لأن فعل الاستنتاج الذي يقوم به هذا النقد فعل تأويلي في جانب منه، فهو قراءة تبحث عن دلالة في قراءة وجدت دلالة (أو يفترض أنها كذلك بالفعل). أعني أنه سلسلة عمليات عقلية تنطوي على محاولة اكتشاف عناصر تكوينية لخطاب نقد تطبيقي بواسطة تفكيك هذا الخطاب إلى عناصر بنائية، على نحو يعيد وصل هذه العناصر في علاقات، تنطق معنى الخطاب ودلالته على العالم التاريخي للناقد (القارئ) في علاقته بالعالم التاريخي للنص (المقروء). وصراع التفسيرات وتضاربها في تأويل الأعمال الأدبية بُعد لافت من مهام النقد الشارح، وذلك من حيث دلالاته على صراع الاتجاهات الثقافية وتضارب التيارات الاجتماعية السياسية. وانفتاح التفسيرات أو انغلاقها أمر لا يقل أهمية، من منظور هذه الدلالة، عن توجه التفسيرات إلى معانٍ دون غيرها، وتجنبها الاقتراب من معنى بعينه أو الإشارة المباشرة إلى معانٍ

محددة، يدخل الحديث عنها فى باب المحذور الدينى أو السياسى الذى يحسن السكوت عنه فى مجتمع الناقد 'أعنى محظورا مثل ذلك الذى دفع بعض النقاد إلى التركيز على الأبعاد الشكلية لشعر أمل دنقل على سبيل المثال، فى مصر السادات، تجنباً لمزالق الكشف عن الدلالة السياسية الهجائية التى تضمنتها أقنعة هذا الشاعر المتمرد، أو مثل المحذور الذى يدفع النقاد المصريين، فى هذه السنوات، إلى الفرار من مناقشة المعنى الدينى لرواية "أولاد حارتنا" لنجيب محفوظ، فرارا من تهمة التكفير ودعاوى الحسبة المسطرة على رقبة نجيب محفوظ ورقاب نقاده المستنيرين على السواء.

ولا يختلف عن هذا الجانب فى الأهمية التنظير الذى يقدمه النقد، تبريرا لعملهم أو تفسيرا لعمل غيرهم، فيما يدخل فى باب البحث عن بويطيقا نقدية لناقد واحد أو مجموعة من النقاد. وكتاب جوناثان كولر الذائع الصيت عن "بويطيقا البنيوية" عمل دال فى هذا المجال، فهو نقد شارح للبنيوية، يكشف عن استعاراتها اللغوية وأدواتها التصورية وعملياتها الإجرائية وحدودها المعرفية، فى منحى بنيوى أكسب الكتاب شهرة عالمية واسعة منذ صدوره (عام ١٩٧٥) وحصوله على جائزة جيمس رسل لويل الأمريكية فى العام التالى. لكن هذا الكتاب الذى دخل فى باب النقد الشارح، من حيث تقديمه البنيوية، سرعان ما تحول إلى موضوع للنقد الشارح نفسه، وخضع إلى مساعاة تأويلية، قامت بالتركيز على المنحى البنيوى للكتاب، فأبرز

فرانك لينترشيا الدور الذى لعبه الكتاب فى المؤسسات الأكاديمية الأنجلو أمريكية (فى كتابه "مابعد النقد الجديد" ١٩٨٠) وأبرز كريستوفر نوريس الدلالة الثقافية لمنحى الكتاب من منظور تفكيكى (فى كتابه "التفكيك: نظرية وممارسة" ١٩٨٢).

وإذا كان كتاب كولر مثالا على تحول النقد الشارح إلى موضوع لنقد شارح لاحق، فى مثال دال على انعكاس النقد الشارح على نفسه فى مستوى أعلى من مستوياته، فإن ماكتبه إدوارد سعيد من "تأملات عن اليسار فى النقد الأدبى الأمريكى" (فى كتابه "العالم والنص والناقد" ١٩٨٣) وماكتبه جاياترى سبيفاك عن "الدراسات الأدبية فى الثمانينيات" (فى كتابها "فى عوالم أخرى" سنة ١٩٨٧) وماكتبه فينسنت ليتش عن "النقد الأدبى الأمريكى من الثلاثينيات إلى الثمانينيات" (سنة ١٩٨٨)، فضلا عن ماكتبه ديفيد لودج عن "النقد الأكاديمى فى أمريكا" (فى كتابه "مابعد باختين" سنة ١٩٩٠)، أمثلة أخرى على هذا المستوى الذى يغدو فيه التنظير النقدى موضوعا للنقد الشارح، أو الذى يراجع فيه النقد الشارح ما سبق أن أنجز بحثا عن دلالة تأويلية من ناحية، وسعيا وراء أفق نقدى أكثر وعدا فى طموحاته المنهجية من ناحية ثانية.

ويشير هذا الأفق الجديد، بدوره، إلى المهم الثالث والأخير من مهام النقد الشارح. وهو المهم الذى يقوم بدور التأصيل على المستوى المنهجى الخالص، فى نوع من المراجعة الكلية التى تتشغل بالمفاهيم والتصورات النقدية الكبرى التى فرغ منها

التنظير النقدي وانطلقت الممارسات النقدية من التسليم بها. ويرتبط هذا الدور بتأمل موضوع النقد الشارح داخل سياق محدد من علاقات إنتاج المعرفة النوعية بالنقد الأدبي، لكن على نحو لا يفصل المعرفة النوعية للنقد عن المعرفة الإنسانية في اللحظة التاريخية لإنتاجه. ويعنى ذلك مجاوزة عتبات العلم النقدي إلى فلسفته، وربط هذه الفلسفة، في تفاعلها مع نظريات المعرفة المتاحة، بالنظريات الاجتماعية للمعرفة والأنثروبولوجيا الثقافية، في بؤرة الاهتمام بعلاقات إنتاج المعرفة النقدية أو الأدبية.

وإما أن تفضى المراجعة التي يقوم عليها هذا المهم التأسيلي إلى الكشف عن المبادئ التصورية الفاعلة في الممارسة النقدية، على نحو يؤدي إلى تعميقها واستكمال لوازمها وتوابعها وإحكام إجراءاتها وأدواتها، أو تفضى المراجعة إلى الكشف عن جمود هذه المبادئ وتخلفها عن اللاحق بالمتغيرات المتسارعة المتلاحقة في الواقع الفعلي لسياقات الممارسة والتنظير. وعندئذ، تغدو المراجعة كاشفة عن ضرورة تأسيس انقطاع معرفي، يفصل بين مرحلة نقدية وأخرى، وبداية تيار واعد بالقياس إلى التيارات السائدة التي أصابها التلكس. والأدوار التي يقوم بها الوعي الضدي، عند هذا المستوى، تبدأ من علاقة النقد الشارح بنفسه، مروراً بعلاقته بغيره، وانتهاء بعلاقته بما يبدو واعد لم يتأصل بعد، وذلك على نحو يغدو معه كل نقد شارح موضوعاً لغيره، في سلسلة متصاعدة من المراجعة التي لا تتوقف قط. هذه المراجعة المتصاعدة، بدورها، علامة وعي نقدي محدث، لا يفارقه حلم

التقدم الذى لا يتوقف عن حد معرفى لأنه ينطوى على إيمان
راسخ بأن العالم الذى يعيش فيه ينبى على التغير والصيرورة
والتطور الذى لا نهاية له.

أهمية النظرية

عندما يجاوز النقد الشارح حدود العلم النقد-أدبي إلى فلسفة العلم، مؤديا دوره فى المراجعة المعرفية التى تتطلع إلى التقدم، فإنه يؤكد أهمية "النظرية" فى علاقتها به، وفى دلالتها على بعد آخر من أبعاد الوعى الذاتى للنقد الأدبى، وذلك على نحو يختصر المسافة بين النقد الشارح والنظرية، ويقيم نوعا من التداخل بينهما. هذا التداخل يزداد وضوحا حين يقوم النقد الشارح بالتركيز على المبادئ التصورية الفاعلة فى الممارسة النقدية، قاصدا الوصول إلى نسق جديد من المعرفة المعقدة التى تفسر الجوانب المختلفة لهذه الممارسة، وتعيد صياغة مبادئها بما يضعها على عتبات جديدة من الوعى بالموضوع.

هذا النسق الجديد هو النظرية، فى صياغتها الدافعية التى تجعل منها علامة على مرحلة بعينها تجاوزها، ومرحلة أخرى تستهلكها. ويعنى ذلك أن النظرية هى ناتج فعل التمثيل الذى يجمع بقدر ما يفصل بين أنساق متباينة من المعرفة، ليؤسس نسقا جديدا بواسطة مراجعة الأنساق القائمة، فى علاقتها بمعطيات جديدة وأوضاع متحولة وصيغ متولدة، يختبرها الوعى الضدى ليعيد تشكيلها فى نسق يعد بأن يفسر ما عجزت الأنساق المتاحة عن تفسيره، وأن يستهل ما لا يستطيع غيره المضى قدما فيه. ولذلك تتصف النظرية بصفة النسبية التى تردها إلى لحظة تاريخية بعينها، تسميها بهواجسها، وتعكس

عليها أسئلتها الأساسية التي كانت النظرية استجابة إليها، وذلك فى عملية الصياغة الصورية التى تحيل المعطى إلى إشكال، وتنتقل من نسبية اللحظة إلى عمومية المبدأ الصورى الذى يشبه القانون.

ولكن بقدر ماتتسم النظرية بالنسبية، من منظور تولدها، فإنها تتضمن الزعم بما هو نقيض النسبية، وذلك فى سعيها إلى أن تفسر كل جانب من جوانب موضوع معرفتها، وإلحاحها على أن تشمل كل بعد من الأبعاد العلائقية لهذا الموضوع دياكرونيا وسينكرونيا، وطموحها إلى أن تمتد بهذا الشمول إلى خارج موضوعها المباشر، حيث يمكن لمبادئها الصورية أن تمارس العمل نفسه، على مستوى علاقات التجاور والتبادل، فى موضوعات تشبه موضوعها المباشر، من حيث قابلية الاستجابة للمبادئ الصورية ذاتها.

وفى هذا الجانب ما ينسرب بشئ من معنى الإيديولوجيا فى النظرية، من حيث ما تتبنى عليه من دعوى الشمول والإطلاق والتعميم، ومن صياغة التجريد الذى يصعد من الخاص إلى العام، ويصوغ المشكل المتعين فى صورة القانون التجريدى الذى يشير إلى كل إشكال فى المجال. هذا المعنى هو مكنى الخطر فى دلالة النظرية لو انغلقت على مدلول الإطلاق الذى يدفع إلى الهجوم عليها، بزعم أنها تتضمن نوعاً من مركزية العلة وانغلاق النسق. والواقع أن هذا المعنى الإيديولوجى لا ينقلب إلى خطر الوعى الزائف إلا فى حال ثبات دعوى الشمول والإطلاق فى

النظرية عند وضع جامد، ثابت، لا يقبل المراجعة ولا يستجيب إلى التغير. عندئذ تتحجر النظرية، وتفقد دافعها الحيوى الأول، وقدراتها المرنة على احتواء الجديد واستيعابه، وتظهر الحاجة ماسة إلى مجاوزتها والبناء على أنقاضها. ولذلك فإن تأكيد الوعى الضدى للنظرية، ليس فى علاقتها بغيرها فحسب بل فى علاقتها بنفسها، من حيث المراجعة الدائمة لمبادئها الصورية والغائية، أمر لا غنى عنه لضمان استمرار سلامة النظرية، والحفاظ على فاعلية الاجتهاد الذى يقوم بالتصحيح الذاتى للمكونات والعلاقات، فضلا عن التطوير المتواصل للأدوات التصورية والعمليات الإجرائية.

وسواء عرفنا النظرية، فى هذا السياق، بأنها الدراسة المنظمة التى تعتمد على الانتقال من التجربة الاستقرائية إلى المبادئ الصورية الاستنباطية، أو بأنها تركيب عقلى مؤلف من تصورات متسقة تهدف إلى ربط النتائج بالمبادئ، أو بأنها تركيب فكرى شامل يهدف إلى تفسير أكبر عدد من الظواهر فى مجال بعينه، أو حتى بأنها نسق من المعرفة المعممة التى تفسر الجوانب المختلفة من الواقع، فإن النظرية تظل، فى هذا السياق نفسه، أعلى مستويات اللغة الشارحة فى علاقتها بلغة الموضوع التى هى، بدورها، لغة شارحة للأدب أو كلام على الكلام.

وقد ذهب رينيه ويليك فى كتابه التأسيسى القديم عن "نظرية الأدب" (الذى صدر عام ١٩٤٩) إلى أن مصطلح "نظرية الأدب" يتضمن كلاما من "نظرية النقد الأدبى" و"نظرية التاريخ

الأدبي" الضروريتين. وربما كان الأقرب إلى النقد الحدائى أن نضيف إلى نظرية النقد والتاريخ الأدبى "الأدبية" بوصفها نظرية أخرى موازية لنظرية النقد الأدبى التى كانت تنطوى على حال وجود الأدبية فى كتابات ويليك، فضلا عن حال وجود النقد الأدبى الذى جعله ويليك الأصل. وسبب ذلك أن للنقد الأدبى حضورا مزدوجاً فى كتاباته، يتضمن الوعى بذاته فى موازاة الوعى المحايث بالأدب. وقد كان ويليك يعرف بواسطة تكوينه الفكرى فى أوساط الشكليين، فى براج العشرينيات، أن تاريخ النسق نسق بدوره، وأن نظرية النقد الأدبى تتضمن نسقا عن حال وجود النقد، ونسقا موازيا عن حال وجود الأدبية، سواء على المستوى المحايث الآنئ أو على المستوى المتعاقب التاريخى. ويعرف كذلك أن كل الأنساق تتجاوب تجاوب الممارسة والتنظير فى التحليل النهائى لمصطلح النظرية، وذلك على نحو يؤكد تجاوب المعرفة الأدبية والنقدية، كما يؤكد أن كل تقدم فى صياغة المبادئ الصورية لما يعرفه النقد باسم "الأدبية" لابد أن يوازيه تقدم ملازم فى صياغة المبادئ الصورية للنقد، ومن ثم الصياغة التى تتشكل بها اللغة الشارحة للأدب أو النقد تشكلا جديدا فى نسق ندعوه: نظرية.

وكما ترتبط النظرية بالممارسة ارتباطا جدليا، فى هذا السياق، فإنها تنير الممارسة وتساعد على تقدمها فى الوقت الذى تستقى منها ما يؤكد سلامتها الذاتية، هادفة إلى إلقاء المزيد من الضوء على موضوعها ووضعه موضع المسألة. وما طرحه

النظرية على موضوعها، من هذا المنظور، ينطوى على معنى التكرار لأفعال الممارسة والتحدى لها فى الوقت نفسه. وإذا كان الهدف من النظرية هو تأسيس بناء أكثر عقلانية ومنهجية، تأكيداً للمكانة المتميزة والمتغيرة للأدب فى موازاة المكانة الملزمة للنقد وحال وجوده المستقل، فإن هذا الهدف يقترن بما يمكن أن تسهم به النظرية فى تيسير فهم الخلافات، ومناقشتها بصورة أقرب ما تكون إلى الموضوعية سواء على مستوى النظر أو التطبيق. ولست فى حاجة إلى الإلحاح المتكرر على عدم وجود موضوعية كاملة فى العلوم الإنسانية، على الأقل بالمعنى المتعارف عليه فى العلوم الطبيعية، خصوصاً بعد أن عرضت فى دراسة سابقة ماسبق أن أكدّه لوسيان جولدمان من أن ذات الباحث تشكّل إلى حد ما، وبيعض الاحتراس، جانباً من موضوع البحث فى العلوم الإنسانية. وذلك وضع معرفى يفرض تصوراً جديداً للموضوعية دون أن ينفىها، ويؤكد أهمية الوصول إلى شروطها النسبية فى ضوء المتغيرات الجديدة فى مجال النقد الأدبى.

وترتبط هذه المتغيرات، فى جانب منها، بالانفجار المعرفى الهائل الذى دفع إلى إعادة النظر فى كل شئ، ووضع كل مبدأ ومعتقد موضع المسائلة، وذلك على نحو أدى إلى عهد جديد من صراع التفسيرات والتأويلات، وتناثر التنظيرات والتأصيلات، والتعدد الاختلافى للالفت للمقاربات النقدية. ويكفى للتدليل على هذا الحال أن نتوقف على ما أشار إليه الناقد الفلسطينى الأمريكى إدوارد سعيد، فى مستهل تأملاته عن اليسار الأمريكى

فى النقد الأدبى، ضمن كتابه "العالم والنص والناقد" (١٩٨٣)، حيث يؤكد أنه لم يحدث من قبل فى تاريخ الثقافة الأدبية الأمريكية مثل هذا النقاش الواسع المتواصل الجاد التقنى لقضايا النقد الأدبى على نحو تأثر به كل ناقد أو دارس للأدب. وذلك تأكيد ينبغى أن نضعه إلى جانب ماسبق أن أشار إليه من رأى الفيلسوف الأمريكى ريتشارد رورتى الذى انتهى (فى كتابه "الفلسفة ومرآة الطبيعة") إلى أن النقد الأدبى حل محل الفلسفة فى الولايات المتحدة الأمريكية وانجلترا، من حيث ما يؤديه فى الوظيفة الثقافية الأساسية التى تتصل بالتميز الذاتى لدى الشباب فى تحديد ما يختلفون به عن الماضى.

والواقع أن اللغة الشارحة التى يستخدمها إدوارد سعيد فى كتاباته، سواء فى مجال النقد الشارح أو النظرية، هى تأكيد لما لاحظته ريتشارد رورتى، فكتابات إدوارد سعيد تؤدى دورا دالا فيما يتصل بالتميز الذاتى لدى مجموعة نقدية محدثة فى علاقتها بالمجموعات القديمة. وهى مجموعة انقطعت عن تقاليد "النقد الجديد" بمنحاهما الليبرالى القديم، وجاوزت حدود البنيوية اللغوية والبنيوية التوليدية بما أسهمت به فى تأسيس لغات شارحة انفتحت بها النظرية النقدية على آفاق ثقافية أكثر رحابة وتعددا. وأية ذلك اتساع حدود القيمة الأدبية لتشمل الكتابات والكتاب الذين نفّثهم اعتباراتُ العرقِ والهوية الجنسية والموطن، فضلا عن دعاوى المركزية الغربية، إلى هوامش الدرس الأدبى المهجورة، وخارج مستويات القيمة الأدبية (الليبرالية!) التى انطوت عليها

كتابات النقد الجدد، والبنويون الشكليون وهو الأمر نفسه الذى تحقق فى النقد الأدبى الذى هجر تحيزاته القديمة ليضع فى الصدارة كتابات نقاد من أمثال إدوارد سعيد الفلسطينى الأصل، وإعجاز أحمد من الهند، وإيهاب حسن المصرى المولد، فى سياقات ما بعد حداثة لا تكف عن الاتساع.

وفى موازاة هذا الاتساع، امتد فضاء اللغات الشارحة للنقد الأدبى لتستوعب كتابات لغويين وفلاسفة ومحلين نفسيين وأنثروبولوجيين ومفكرين اجتماعيين، على نحو وصل بالعلاقات البينية التى أسستها هذه اللغات إلى مدى غير مسبوق. وتساعد الاهتمام بدور النظرية التى لا تترك لغتها الشارحة موضوعا إلا قرعته بالسؤال، فى حال يجاوز ما ذهب إليه دانيال أوهارا، فى كتابه عن "الثقافة الأمريكية والوكالة النقدية بعد فوكو" (١٩٩٢)، حيث أكد أن اللجوء إلى النظرية لإبراز فائدتها فى المعارك المتباعدة جاء، أصلا، من نقاد اليسار الأمريكى الجديد أمثال إدوارد سعيد.

قد يكون فى ملاحظة أوهارا بعض الصحة، ولكن من حيث إشارتها إلى جانب واحد فحسب من الدوافع المتشابكة، فسياق الموقف أكثر شمولاً وتعقداً من أن يُختزل فى تفسير واحد. وهو سياق يفرض المزيد من الاهتمام بملاحظة ريتشارد رورتي الفيلسوف الختمى سبقت، زمنياً، ملاحظة إدوارد سعيد الناقد، خاصة أن صاحبها الفيلسوف يحل الناقد الأدبى محله فى التأثير الثقافى العام، ويعطى دوراً متميزاً للنظرية الأدبية فى نظريات معاصرة. ٣٠٥

عمليات معرفية كانت تقوم بها الفلسفة تقليديا. وذلك أمر قد يعترض عليه البعض من النقاد، وقد يتحمس له البعض الآخر (فمن ذا الذى ينكر تصاعد دوره الثقافى فى الحياة وقيامه بما كانت تقوم به، قديما، الفلسفة: علم العلوم؟!). ولكن تبقى الدلالة التى تؤكد ملاحظة ريتشارد رورتى قرينة نوع متميز من الوعى الجذرى الأجد فى النقد الأدبى، وقرينة الاهتمام المتزايد لهذا الوعى بمكانة النظرية ودورها، وارتباط هذا الاهتمام بنماذج تصويرية مأخوذة من الفلسفة الأوروبية المحدثّة بالدرجة الأولى.

ويلفت الانتباه أن هذه الفلسفة التى تمثلها كتابات هيدجر وقاتلر بنيامين وأدورنو وهابرماس وفوكو وديريدا ولويتار وديلون وغيرهم، أصبحت أساسا لا يستغنى عنه الناقد فى هذه السنوات، سواء بوصفها مكونا رئيسيا من مكونات وعيه النظرى، أو إطارا مرجعيا أساسيا للمقولات المعرفية التى يمايز بها هذا الوعى. وليس من المصادفة أن هذه الكتابات تم استيرادها من مظانها الألمانية والفرنسية إلى إنجلترا وأمريكا بواسطة منظرى الأدب بالدرجة الأولى، ففتحت المجال أمام نوع جديد من المعرفة الفلسفية والنقدية، وأسهمت فى التحرر من سجن النزعة النصية التى تقوقع فيها "النقد الجديد" فى ترابطاته الليبرالية التقليدية أو سجن اللغة الذى انحبست فيه البنيوية الشكلية. لكن الدال، فى هذا السياق، أن الأثر الذى خلفته هذه الكتابات فى النقد الأدبى أكبر بكثير من الأثر الذى خلفته فى الفلسفة بمعناها الكانطى. وفى ذلك ما يفسر ملاحظة ريتشارد رورتى ويؤكدها، من منظور

الوظيفة الثقافية، تلك التي تمايز بين وعى الحاضر المتحول إلى المستقبل ووعى الماضى القريب المتحول إلى ماض أبعد. ويقدر اتساع مدى الأثر الذى خلّفته هذه الكتابات، وفتحها أفق النظر فى النظر، أو وضع الفكر موضع المساءلة، يتسع مدى النقاش حول دور النظرية وأهميتها على نحو لم يحدث من قبل. والدليل المباشر على ذلك ما أخذنا نطالع من كتابات لا تكتفى بتأكيد دلالة النظرية، وإنما تضع "النظرية" نفسها موضع المساءلة. وإذا كنا أخذنا نسمع، فى الولايات المتحدة الأمريكية، عن كتب من مثل "دور النظرية فى دراسة الأدب" (١٩٨٥) لكل من جريجورى جاي وديفيد ميلر، و "فى صحوة النظرية" (١٩٩٢) لبول بوفيه، و "فى النظرية" (١٩٩٢) لإعجاز أحمد، فإننا نسمع عن كتب مماثلة فى إنجلترا، أقربها إلى الخاطر كتاب تيرى إيجلتون "دلالة النظرية" (١٩٩٠).

وسواء وافق نقاد الأدب على ماذهب إليه رورتى أو لم يوافقوا، أو نظر بعضهم إلى الموضوع من منظور مغاير يرتبط بتداخل المجالات المعرفية المعاصرة، فإن ناقدا شارحا مثل جوناثان كولر نظر إلى ما قاله رورتى من زاوية الأهمية المتزايدة للنقد الشارح فى علاقته بالنظرية، وأضاف مجموعة من الأسباب التى تدعم ملاحظة رورتى الدالة. ويتصل أول هذه الأسباب بشمول موضوع الأدب الذى يتناول التجربة الإنسانية فى جوانبها المختلفة، وذلك على نحو يؤدى إلى شمول مجالات لغته الشارحة. وفى الوقت نفسه تيسير انتقال النظريات المؤثرة إلى

فضاء اللغات النقدية الشارحة، بسبب شمول التجربة الإنسانية التي ينطوى عليها الأدب. ويتعلق ثانياً هذه الأسباب بحدود التعقل الذي تنطوى عليه هذه اللغات الشارحة، وما يفتحها الاهتمام بها من آفاق جديدة للتفكير فى التفكير على نحو يضع العقل واللغة موضع المسألة. أما السبب الأخير الذى قدمه كوالر فيرتبط بانفتاح منظرى الأدب بالقياس إلى غيرهم فى استقبال التطورات النظرية الجديدة للمجالات المعرفية الأخرى. ويرجع ذلك إلى أنهم لا يعانون من وطأة الالتزام البحثى الخاص أو ضيق حدوده. إذ على الرغم من تحيزاتهم الخاصة لموضوع عملهم، وحرصهم على الاستقلال عن غيرهم منهجياً، فإن حماسة استجاباتهم لافتة فى علاقتهم بأعمال غيرهم، خاصة النظريات التى تتحدى الفرضيات الجامدة المعاصرة فى علم النفس والأنثروبولوجيا والتحليل النفسى والفلسفة وعلم الاجتماع والتاريخ، ومن ثم تتحدى الصيغ المعرفية الثابتة التى ينفر منها الوعى الضدى.

دلالة النظرية

ما دلالة النشاط المتزايد للنظرية؟ وما معنى الإلحاح عليها وتوتر الوعي بها؟ إن الأمر يبدو كما لو كانت النظرية تستقطب الاهتمام في المشهد النقدي المعاصر منذ أن أصبحت تشغل انتباه المؤسسات الثقافية. أذكر أن العلامة الأولى التي شددت انتباهي إلى بداية السؤال عن دلالة هذا الانتباه كانت كتاب موارى كريجر عن "نظرية النقد: تقاليد ونسق" الذي صدر عن مطبعة جامعة جونز هوبكنز منذ عشرين عاماً (١٩٧٦) وذلك بعد حوالي عشرين عاماً أخرى من صدور أول كتاب عرفته في الموضوع، وهو كتاب "نظرية الأدب" الشهير لكل من رينيه ويليك وأوستن وارين الذي صدر في نهاية الأربعينيات (١٩٤٨). ولفتت انتباهي على نحو خاص إشارة كريجر، في مستهل كتابه، إلى أن أحد أهدافه هو إعادة كتابة "نظرية الأدب" بعد حوالي عشرين عاماً من تغير الوعي بالنظرية.

هذا التغير الذي انطلق منه كريجر يقترب بأمور عدة. أولها وأدناها تأكيد أن المدافع الحقيقي عن أهمية النظرية يجب أن يبدأ من الاعتراف بمحدودية ما يعدُّ به، وأنه ما من نظرية يمكن أن تتسم بالكمال، أو تزعم القدرة على تفسير كل جوانب التباين في التجارب الأدبية. وسبب ذلك في تقديره أن دعوى العمومية التي تتضمنها النظرية تصطدم، عادة، بالوقائع المتمردة العنيدة التي لم تخلق لكي تطيع نسقاً بعينه. يضاف إلى ذلك أنه

ما من نظرية تستطيع أن تستنفذ كل المعانى والقيم الكامنة حتى فى عمل أدبى واحد، فالعمل الأدبى لا يكفّ عن إدهاشنا بما لا نتوقعه منه وإلا كف عن كونه عملاً أدبياً. إن النظرية ليست تركيبية سحرية قادرة على حل كل مشكلات الناقد، وليست وصفة عجائبية تصنع الناقد المتميز، وإنما تركيبة نسبية، ووصفة تستمد قيمتها من فعل ممارساتها. وعلى النقيض مما ذهب إليه ستانلى إدجار هايمن فى كتابه "الرؤية المسلّحة" الذى صدر فى العام نفسه الذى صدر فيه كتاب ويليك ووارين عن نظرية الأدب (ولست أدري لماذا استبدل إحسان عباس ومحمد يوسف نجم بعنوان "الرؤية المسلحة" الدال العنوان العائم: النقد الأدبى ومدارسه الحديثة؟) -أقول على النقيض مما ذهب إليه هايمن، يؤكد كريجر أن المُدافعَ المتواضع عن النظرية هو الذى يقر بأنها تنزع السلاح عن رؤيتنا النقدية لا أن تقوم بتسليحها. ويعنى ذلك أهمية التسليم بوجود صراع دائم بين تلاحم النظرية على مستوى الصياغة الصورية، فى سعيها التجريدى إلى التعميم والإطلاق من ناحية، واستجابة النظرية إلى المتعينات الملموسة فى كيفية التزامها بالوقائع العنيدة المتمردة من ناحية مقابلة. وناتج هذا الصراع هو الذى يحدد عنصر القيمة فى النظرية، ويميز بين نظرية وأخرى من حيث توازن المكونات، أو من حيث درجة التجريد التى لا تتناقض مع حسية المعطيات أو تستبعد الوقائع العينية.

ولم يكن هذا الذى دعا إليه موراي كريجر بعيداً عن

ممارسته النقدية أو التعليمية، فقد شغل منصب مدير مدرسة "النقد والنظرية" منذ (سنة ١٩٧٦) التي صدر فيها كتابه عن "نظرية النقد" إلى سنة ١٩٨١. وكان أحد الذين أسهموا في الاستجابة إلى تصاعد الوعي بالنظرية وتأسيس متغيرات هذا الوعي في الوقت نفسه. وبعد أن أسهم كتابه "المدافعون الجدد عن الشعر" (١٩٥٦) في وضع النظرية الشكلية في خطوط فلسفية محددة، وأعاد قراءة الأدب الحديث من منظور الفلسفة الوجودية في كتابه "الرؤية المأساوية" (١٩٦٠) كان كتابه "نافذة على النقد" (١٩٦٤) تعديلا للنزعة الشكلية بوضعها في إطار أوسع من نزعة سياقية، نزعة تلتفت إلى دلالة السياقات التاريخية للنص الأدبي. وكانت النزعة الأخيرة الأفق المنهجي الذي دارت فيه المقالات التي جمعها في كتابه عن "دور النقد ومكانته" (١٩٦٧) الذي أرهص بكتابه المتأخر "كلمات عن كلمات عن كلمات" (١٩٨٨) ذي العنوان الدال على اللغة الشارحة الذي صدر بعد قرابة عقد من الزمان على صدور كتابه "نظرية النقد" الذي حاول أن يعيد بناء التقاليد النقدية للنظرية بوصفها صراعا متصلا بين المواقف الشكلية ومواقف المحاكاة، وذلك بطريقة لا تُخفي موقف كريجّر المنحاز إلى النزعة الشكلية، والمعادي لتجليات نظرية المحاكاة، ومن منظور يبين عن نزعة محافظة، تجاهلت أهمية إنجازات ماركس ونيتشه وفرويد، واستبدلت بجذرية النزعة التاريخية نسبية الفلسفة الوجودية التي تؤكد المبادرة الفردية داخل سجن النسق.

ويتجلى الأثر الوجودى فى موقف كريجر الفكرى جلياً فى محاولته الإبقاء على معنى النسق فى النظرية، لكن من خلال الإبقاء على معنى تمرد الوقائع الفردية، ومن ثم إبراز التوتر بين النظام العام والمبادرة الفردية المتمردة، وتأكيد أن كل عمل أدبى جديد يتحدى النظرية بالقدر الذى تتحدى به النظرية كل عمل أدبى جديد. وإذا كان على النظرية أن تتسم بالمرونة التى تعينها على استيعاب انتهاكات التجارب الإبداعية الجديدة لحدود النسق، فى تمردها على تقاليد الثبات، فإن على النظرية فى الوقت نفسه أن تكون محكمة، نسقية، تزودنا بالمعايير التى تدعم التجارب الجديدة وتساعدنا على إدراكها. وينطوى هذا الموقف على معنى المفارقة. المفارقة التى تفرض على النظرية تقديم الأسس العامة للتحليل والتفسير والحكم بواسطة تجنب أنواع "الدوجما" التى تستبعد ما يخالفها سلفاً، أو تصدره قبل المعاينة، وكذلك بواسطة احترام حق العمل الأدبى فى انتهاك نسق النظرية. ويعنى ذلك أننا فى الوقت الذى نعى فيه أن النظرية تحدّ من قوتنا على الإدراك، وتوجهنا فى هذا الاتجاه من النظر دون ذاك، نعى أننا لا يمكن أن ندرك دونها، وأننا لا نستطيع الخضوع إليها ولا نستطيع التخلّى عنها فى آن. وإذا كان يلزم عن هذا المعنى للمفارقة ضرورة وضع النظرية موضع المساءلة الدائمة، والاستمرارية المتصلة فى ديموى التعميم التى تنطوى عليها، فإنه يلزم عنه بالقدر نفسه اختزال العنصر العبثى الذى يظل موجوداً فى كل مسعى إنسانى نقوم به. فالنظرية هى

لعنة سيزيف التى علينا أن نواجهها كى ننتصر عليها ونؤكد معنى الحضور فى وجودنا الإنسانى.

هذا المعنى الوجودى للمفارقة بين عنصرى "النسق" و"الاستجابة" لا يبعد كثيرا عن المعنى التفكيكى الذى تضمنه تنظير بول دى مان (١٩١٩-١٩٨٣) عن التوتر القائم بين "العمى" و"البصيرة" فى النظرية، وذلك فى كتابه الشهير "العمى والبصيرة: مقالات فى بلاغة النقد المعاصر" الذى صدر قبل كتاب موراي كريجر بخمس سنوات (تحديدا سنة ١٩٧١) مؤكدا أن العمى هو اللزوم المنطقى لالتزام الناقد بحدود النسق، والبصيرة هى الحدس الذى يتمرد به العنصر الخلاق على سجن النسق. ويدل ذلك على أن قيمة الإنجاز النقدي للناقد ليس فى انصياعه إلى نسق النظرية فذلك هو العمى، وإنما فى استجابته الخلاقة إلى التمرد على ذلك السجن، حيث مراح البصيرة التى تكشف عن صراع الأضداد، وتقوم بتعرية البعد (البلاغى) الإيديولوجى للغة، حتى فى ادعائها مناقضة هذا البعد. وكان العداء للنظرية، عند دى مان، قرين الانحياز للبصيرة التفكيكية، ومن ثم الهجوم الضمنى على تيارات البنيوية، وذلك على نحو ما ظهر جليا فى كتاب "مقاومة النظرية" الذى صدر بعد عشر سنوات من كتاب كريجر "نظرية النقد"، وبعد أربع سنوات من كتاب جوناثان كوللر عن "التفكيك: النظرية والنقد بعد البنيوية"، وثلاث سنوات من كتاب إدوارد سعيد عن "العالم والنص والناقد". وتلك سنوات حاسمة بمتغيراتها التى باعدت ما بين إدوارد سعيد وبول دى

مان على سبيل المثال، وقاربت بينهما فى الوقت نفسه من حيث ضرورة مقاومة النظرية فى دعواها التخيلية التى تنطوى على الإيهام بقدره التعميم والإطلاق. وفى هذا السياق، كان تأكيد إدوارد سعيد أنه ما من نظرية يمكن أن تستوعب الوقائع الفردية لموضوعها، أو تستنفد معطيات الظاهرة كلها، بمثابة بصيرة متفجرة داخل نسق النظرية، للقضاء على العمى الذى يلزم عن هذا النسق، خصوصا حين يتحول إلى نوع من مركزية العلة (أو مركزية اللوجوس). وفى الوقت نفسه، بمثابة وعى تاريخى يتصاعد ليعيد بناء العلاقة بين العالم والنص والناقد، داخل ما أصبح يعرف باسم "صحوة النظرية". وهى صحوة يمكن أن نرى فيها علامة على رحابة أفق ما بعد البنيوية، سواء فى الحرص على تفكيك سجن النسق، أو وصل النسق المفتوح بالواقع الحى وإعادته إلى صراع التاريخ المتوثب بالحركة.

وأحسب أن هذا الوعى التاريخى المتصاعد هو ما دفع تيرى إيجلتون إلى تأكيد دلالة النظرية من زاوية علاقتها بالتاريخ، مؤكدا أن موضوع النظرية هو التاريخ بالمعنى الذى يدل على أن فعل صياغة النظرية (= التنظير) هو فى ذاته حدث تاريخى. يقصد إلى أن هذا الفعل يتخذ من التاريخ هدفا له، غير أنه يجد نفسه بعض هذا الهدف، ما ظل بعض التاريخ الذى يتأمله، وما ظلت الذات المتأمله فى العلوم الإنسانية بعض موضوعها. ففعل النظرية فعل تاريخى يتأمل التاريخ ليغير التاريخ، فى عملية جدلية لا تتوقف أو تنعزل فى الزمان والمكان. وما أسماه تيرى

إيجلتون بالتنظير الشارح في هذا السياق، أى التنظير الذى يراجع علاقة النظرية بالتاريخ كاشفا نسبيتها من ناحية، وارتباطها بعلاقات إنتاج المعرفة وأدواتها فى زمنها الخاص من ناحية ثانية، ليس سوى صياغة أخرى لما أطلق عليه إدوارد سعيد، قبله، اسم الوعى النقدي، وهو الوعى الذى يضع النظرية موضعها العلئقى فى الزمان والمكان اللذين تولدت عنهما لتسهم فى تغييرهما.

ويدل تصاعد هذا الوعى النقدي على تصاعد الوعى بالنظرية نفسه وعلى بعد من أبعاد دلالة الاهتمام بها. وليس من المصادفة أنه بعد سنوات قليلة من صدور كتابات موراي كريجر وبول دى مان عن النظرية تصدر كتابات جوناثان كولر عن النظرية والنقد بعد البنيوية، وإدوارد سعيد عن علاقة النظرية بالعالم والناقد والنص. وبعد هذه الكتابات بسنوات معدودة تتصاعد معدلات الكتب التى تتحدث عن النظرية إلى الدرجة التى دفعت، على سبيل المثال لا الحصر، تيرى إيجلتون فى انجلترا إلى الكتابة عن "دلالة النظرية" وجيرالد جراف فى الولايات المتحدة إلى طرح سؤال "لماذا النظرية؟" فى عام واحد (١٩٩٠). وبعد ذلك بعامين فحسب، صدر كتاب بول بوفيه عن "صحوة النظرية" وكتاب إعجاز أحمد عن الأزمة "فى النظرية". والفارق بينهما أشهر قليلة فى عام واحد (١٩٩٢). والواقع أن عناوين هذه الكتب الدالة على غيرها تتضمن مدلولين وليس مدولا واحدا. الأول يتصل بجذوى النظرية من المنظور الذى يكشف عن

معناها الوظيفي. والثاني يرتبط بدوافع الاهتمام بها، خصوصا حين تتصاعد هذه الدوافع وتتكاثر، متوترة في إلحاحها الذي يغود دالا بدوره. وعندئذ، ينقلب السؤال: "لماذا النظرية؟" إلى سؤال عن معنى "صحوة النظرية".

ونبدأ الإجابة بملاحظة أن مبدأ السببية الذي تنطوى عليه دلالة النظرية لا ينحصر فيما تزودنا به من أدوات فاعلة، منهجيا، في تنظيم المعرفة وتوجيه الوعي وتأسيس الاختلاف ذلك لأن حضور النظرية يعنى حضور العلم بمعناه المتأصل الذي يخبرنا ما الذي يصنع ظواهر مثل التاريخ والثقافة والإنسان والأدب، وما تكون عليه هذه الظواهر حقا وفعلا، وما الذي يجب أن نبحث عنه فيها إذا أردنا الحديث عنها، وكيف نقاربها، ونمارس فعلنا فيها وبها. هذا الحضور للعلم ينقل خصائص الموضوع من العرضي إلى السببي، ومن العشوائي إلى النسقي، ويحمي حمى الموضوع نفسه من أى انتهاك خارجي أو هيمنة أجنبية تدمر استقلاله أو خصوصيته، لكن من غير أن تمنعه من إقامة علاقة متكافئة أو متفاعلة مع غيره بالطبع.

وتتوصل النظرية إلى ذلك بواسطة تأسيس نسق معرفي أكثر عقلانية في وعيه بالذات والموضوع. ولكن هذا النسق لا يستنفد إمكانات موضوعه كلها، حتى لو زعم نقيض ذلك، فعلاقة النسق بالموضوع علاقة الواقعة بنموذجها الصوري الذي ليس هو إياها، والذي ينزل منها منزلة لا تدنى بالطرفين إلى حال من الاتحاد أو التطابق. ومهما حاولت النظرية أن تحيط بكل أبعاد

موضوعها، أو حتى الإيهام بهذه الإحاطة، فإن ثمة جوانب تظل متأبئة عليها، منطقية على ما يمثل تحديا لنسق النظرية الذي يحاول استيعابها أو الالتفاف عليها. ولذلك تظل النظرية مفتوحة، دائما، على إمكان آخر من منظور تقدم المعرفة، ومنطوية على بدائل مغايرة لم تتشكل بعد بوصفها نظرية أو حتى مشروع نظرية. بعبارة أخرى، إن النظرية تظل فاعلة، لا من حيث هي ادعاء مصدق تماما بالكمال الذي يستنفد كل إمكانات الموضوع وأبعاده، وإنما من حيث هي إمكان قائم يستنفد ما لا يستنفده غيره من أنساق، ويساعد على تمكين الذات من الموضوع، وتوجيه مقاربتها له توجيهها لا يماثلها فيه غيره. ونجاح النظرية فى تحقيق ذلك يعتمد على ما تتسم به من عقلانية متعددة الأبعاد. أعنى، أولا، عقلانية تبرير النظرية لنسقتها الذى لا ينغلق، قط، فى حوارها مع التجارب والمعطيات الجديدة. وأعنى، ثانيا، عقلانية تبرير النظرية لانتهاك حدود النسق الذى يتسم بالمرونة والقدرة المتجددة على التكيف مع متغيرات الموضوع. وأعنى، أخيرا، عقلانية تقبل مبدأ المساواة، وذلك فى دلالة لا تبعد كثيرا عن الدلالة التى قصد إليها ألْفَن جولدنر الذى وصف العقلانية، من حيث هى مَنْزَعٌ وليس نَزْعَةً أو مذهباً، بأنها القدرة على أن تجعل إشكاليا ما كان معالجا من قبل بوصفه معطى، وأن تضع موضع المساواة كل ما كان يستخدم فحسب، وأن تختبر كل ما فى الحياة التى تحياها. وذلك وصف يسكن العقلانية فى القلب من القدرة على التفكير فى تفكيرنا، والنظر إلى هذه القدرة من حيث

هى قدرة الكلام على كلامنا والأسس التى يستند إليها.

وحين تُجسّد النظرية المُزَعَّ العقلانى للتفكير على هذا النحو، فى طموح ممارستها الذى يجاوز استبعاد الأخطاء المنهجية للتفسير والنقاش الأدبيين، إذا قصرنا كلامنا على المجال الأدبى، فإن النظرية تتحول إلى نوع من "التأطير" المفتوح، فى معنى له صلة بما قصد إليه فيلسوف الظواهر مارتن هيدجر (١٨٨٩-١٩٧٦) ضمن الدلالة التى حاول أن يعيد صياغتها ديفيد ميلر وزميله جريجورى جاي فى تأصيلهما دور النظرية فى الدرس الأدبى (فى الكتاب الذى حرراه بعنوان "وراء نصوص غريبة" ١٩٨٥). وبعيدا عن هذا التأصيل، أو فى موازاته، فإن التأطير تأسيس لنسق عقلانى يفتح على المراجعة الذاتية، ويمتلى بوعيه النقدى، وينطوى على الاختلاف الذى يؤكد حيويته وقدرته على الجمع بين المتباينات.

ونقطة البداية، فى تشكل هذا النسق، هى ما ينتهى إليه النقد الشارح، حين يؤدى دور النظرية الشارحة، فى ملاحظة التوتر بين البدائل الممكنة (التى لا يستنفدها نسق النظرية) والعناصر الفعلية للنظرية (التى تحاول إجبار كل المعطيات على أن تكون شاهدا على سلامتها) فضلا عن ملاحظة الجمود أو التصلب الذى يصيب العلاقات الواصلة بين هذه العناصر، من حيث اقتقاد المرونة أو القدرة على المراجعة الذاتية أو قابلية المساءلة. أما نقطة النهاية فهى المكان الذى تتحول به البدائل الممكنة إلى مشروع لنسق مغاير، يفتح أفقا جديدا من العقلانية

الواعدة التي تستبدل بما جُمِدَ أو تَصَلَّبَ في النظرية السابقة ما يتوثب بالحوية والقدرة على المراجعة والقابلية للمساءلة في النظرية الآتية.

هذا الأفق الجديد يُشَارِفُهُ النَقْدُ الشارحُ، أو النظريةُ الشارحةُ بلا فارق كبير في دلالة الاصطلاح، نتيجة تناوله غيره من ألوان خطاب النظريات القائمة، مفكِّكا إياها، معيدا صياغتها في علاقات نسقية جديدة، تستبدل بالعناصر الفعلية البدائل الممكنة، وبالنسق المتحجر نسقا يموج بالمرونة. عقلانيته الرحبة استهلال دال على عهد مغاير من التعرف، وعلامة على صحوة النظرية التي تزداد إلحاحا ووعدا وتعبيرا عن أزمة في وقت واحد. وفرسان هذا الأفق الجديد، أو الذوات الفاعلة في فضاء الموضوع، هم المنظِّرون الذين يلتقطون صوت التوتر الدال بين العناصر القائمة والبدايل الممكنة، ويصوغون منه نغمة وأعدة، تساعد على استبدال الممكن بالواقع، والحرية بالضرورة، والتغير بالثبات، والنسق المفتوح بالنسق المغلق، والوعى الضدى المعارض بالوعى السلبى المذعن. وذلك كله في فعل تأسيس الانقطاعات المعرفية في المجالات النوعية التي يعمل فيها هؤلاء المنظِّرون، حين يبدؤون بتفكيك الخطابات السائدة في زمنهم، ومراجعة الممارسات التي تدل عليها، ومساءلة عناصرها وعلاقاتها مساءلة جذرية، نقضية، تفضى، في النهاية، إلى استبدال نظام من الخطاب بنظام أو أنظمة أخرى، ونظرية شارحة بنظرية أو نظريات سابقة. ولكن في مجال الانقطاع الذى ينتقل باللغة الشارحة نفسها من

مستوى المراجعة إلى مستوى التأسيس، ومن منطق المسألة لما
هو قائم إلى منطق الصياغة الصورية الجديدة لما ينبغي أن
يكون.

صحوة النظرية

ولكن متى تصبح صحوة النظرية علامة على انقطاع معرفي، أو علامة على ضرورة هذه الانقطاع وإمكانه؟ الواقع أن النظرية ممارسة اجتماعية، نشاط يعمل أغلب الوقت دون أن ينتبه إليه أحد، كالقاطرة التي تتحرك في اتجاه محطة الوصول من غير أن يشغل الركاب والسائق أنفسهم بكيفية عملها، أو حتى حال وجودها من حيث هي قاطرة، فالتركيز على محطة الوصول أكثر من أداة الوصول. أما أداة الوصول نفسها فهي مجرد وسيلة يتطلع الجميع بواسطتها، ومن خلالها، إلى موضوعها دون انتباه فعلى إليها في ذاتها، ما ظلت تقودهم في سلاسة ويسر إلى الموضوع. ومنزلة النظرية في علاقتها بالموضوع، من هذه الزاوية، وعلى سبيل تأكيد التشبيه، منزلة عدسة المجهر التي لا نراها بقدر ما نرى ما تساعدنا هي على رؤيته من كائنات لا يمكن أن نراها إلا بهذه العدسة التي لا نراها، أو نسلط عليها النظر، في غمرة انغماسنا بالموضوع. هذا الوضع يظل هو الطبيعي في علاقتنا بالقاطرة أو العدسة، إذا مضينا في ترشيح التشبيه، إلى أن يحدث خلل في القاطرة فلا توصلنا إلى الهدف، أو تنكسر العدسة فلا نرى بها الموضوع. عندئذ، ينعكس اهتمامنا على نفسه، أو ينتقل تركيزنا من الهدف إلى الوسيلة، ومن الموضوع إلى الأداة. ونأخذ في تفكيك القاطرة لاكتشاف موطن الخلل، ومراجعة العدسة لمعالجة الكسر. وقد نقوم بتغيير

بعض أجزاء القاطرة لتعود إلى سابق عهدها، أو نستبدل بها قاطرة جديدة تماما ننقلنا إلى الهدف نفسه، أو حتى إلى هدف أبعد منه على نحو أسرع وأكثر كفاءة. والحال هو هو مع العدسة التى قد نفلح فى رآب كسرهما، أو نستبدل بها غيرها الذى يمكننا من رؤية أكثر صفاء، أو نستبدل بالمجهر الذى يحتوى العدسة نفسها مجهرا جديدا فى تركيب آلياته وكيفية عمل عدساته.

ولا يختلف حالنا مع النظرية، فى علاقتنا بها، عن هذا الحال أو ذاك، فى وجه الشبه الذى يصلها بالقاطرة والعدسة على سبيل التمثيل. وهو تمثيل يعنى، ضمنا أو صراحة، أننا لا نلتفت إلى النظرية فى ذاتها إلا إذا كان هناك خلل ما، قصور، عجز فى المسار، أزمة على مستوى العلاقة بالموضوع، وعلى مستوى العلاقة بالذات المتناولة للموضوع. هذه الأزمة هى التى تجعل من صحة النظرية إمكانا وضرورة وعلامة، ذلك لأن صحة النظرية لا تغدو ممكنة إلا مع وجود الأزمة التى تفرضها بوصفها حلاً لها، أو تفرضها بوصفها ضرورة لمواجهة القصور والعجز، كما تفرضها بوصفها علامة على تحول حادث فى النشاط: معدلات الإيقاع، قدرة الاندفاع إلى الأمام، المدى المسموح به من الرؤية، العلاقات التكوينية بين آليات الأداء.

بعبارة أخرى نستعيرها من تيرى إيجلتون، فيما كتبه عن "دلالة النظرية" (١٩٩٠)، فإنه عندما يحدث تفجر فى نشاط النظرية التى تعمل أغلب الوقت دون أن يلاحظها أحد، وعندما تقع طفرة لافتة فى هذا النشاط، فى تصاعد وبائى، كما يحدث

فى المؤسسات الأدبية منذ حوالى عشرين عاما، فإن هذا التفجر وهذه الطفرة يدلان على أن هناك شيئا ما خطأ. ويبسط إيجلتون فكرته بقوله إن النشاط الثقافى يتحرك حركة طبيعية أغلب الوقت كغيره من الأنشطة دون مشكلات مستعصية، وعلى نحو لا تشغل معه الأذهان كثيرا بالنظرية التى لا يفكر فيها أحد ما ظل مجرى النشاط منسابا متدفقا فى اتجاهه إلى الأمام. ولكن حين تأتى نقطة فى مجرى هذه الحركة، أو لحظة، تبدأ فيها الممارسات المأخوذة مأخذ التسليم فى الخلطة، وتدخل فى طريق مسدود محاصر بالمشكلات المستعصية، يغدو الوعى بالنظرية فى ذاتها ممكنا وضروريا، وتغدو صحتها أمرا واقعا يحدث فى موازاة، وفى استجابة إلى، عجز المبررات (التي تستند إليها ممارساتنا اليومية) عن الإقناع بسلامتها أو مصداقيتها. وهو أمر يستلزم المراجعة والتنقيح أو الهجر والاطراح. وقد يكون ذلك لأسباب داخلية كامنة فى هذه الممارسات، أو نتيجة ضغوط خارجية، أو لعوامل تجمع ما بين الأسباب الداخلية والضغوط الخارجية، وهو الأغلب.

وسواء كان الأمر على هذا النحو أو ذاك فإن هذه الممارسات تنعكس على نفسها من حيث هى ممارسات، وتلتف على حضورها الذاتى، كى تلتفت إلى مبادئها الفاعلة وأنساقها المحركة، فتعيد فيها النظر، أو تضعها موضع المساءلة، على نحو يشبه الكيفية التى يتحول بها وعينا عن الهدف إلى الوسيلة فى مثال القاطرة، أو ينتقل من الموضوع إلى الأداة فى مثال العدسة.

ويعنى ذلك أن صحوة النظرية نوع من الممارسة المدفوعة دفعا إلى شكل جديد من الانعكاس الذاتى، بسبب المشكلات المستعصية التى تواجهها الممارسة وعجزها عن إيجاد حلول لها. إنها، بعبارة أخرى، نشاط إنسانى يلتف على نفسه، مقيدا بنوع جديد من انعكاس الذات، أو انقسامها على نفسها، كى تغدو الوعى الموضوع والوعى الذات التى تُسائلُ الموضوع الذى هو إياها، والهدف من هذه الممارسة الملتفة على نفسها هو الدخول بالذات إلى إدراك معرفى جديد، يتيح لها مجاوزة ما عليه علاقتها بنفسها وموضوعها من قصور، والتقدم إلى أفق أكثر وعدا من المعرفة التى تحرر كُلاً من الذات والموضوع.

هذا الوضع المتحول هو السياق الذى يصنع دلالة النظرية، ويسهم فى تأسيس دورها المعرفى، ويكشف عن مغزى الإلحاح عليها، فى لحظة حاسمة من لحظات تحول المعرفة الإنسانية. أعنى اللحظة التى تتجمع فيها الأضداد وتتصادم، وتتجاوز فيها البدايات والنهايات، كى يتولد ما يجاوز القائم والمعتاد، خصوصاً حين يعجز القائم والمعتاد عن الحركة إلى الأمام أو حتى المضى فى مجراه المألوف. وتلك هى لحظة الأزمة التى تبعث دوافع صحوة النظرية ملحة، ضاغطة، فارضة التحول الجذرى، فى فضاء اللحظة التى يزداد فيها وبها انقسام الوعى على نفسه، وانقسام النظرية على ذاتها، فيغدو الوعى ذاتا وموضوعا، والنظرية نظرية ونظرية شارحة. ويترك الوعى ما صاغه لنفسه من مرفأ قديم تهاوى، ليؤسس مرفأ يعد بما لم يعد

به القديم. وتبنى النظرية الشارحة من البقايا الصالحة فى حطام النظريات التى فقدت مصداقيتها، وتضيف إليها، ما تتشكل به علاقات نظرية جديدة. وتصبح كل ممارسة مدفوعة دفعا لأن تتخذ من نفسها موضوعا لبحثها. وذلك كله فى حال يغدو معه الانعكاس الذاتى علامة على معرفة متحوّلة، تركت ملجأ وما أدركت بعد ملجأ، معرفة هى وقت مقسوم بين وقتين، فى إشارة دالة على صحوة النظرية وإمكانها وضرورتها فى آن.

هل يمكن تحديد هذا الوقت المقسوم بين الوقتين زمنيا؟ يردنا تيرى إيجلتون البريطانى (فيما كتبه عن دلالة النظرية منذ سنوات معدودة) إلى الستينيات التى بدأت بذروة المد التحررى الجماهيرى فى العالم الثالث وانتهت بثورة الطلاب التى دفعت الأكاديميات إلى المراجعة الذاتية، والفكر إلى الانعكاس الذاتى، والنظريات إلى الالتفاف النقضى على نفسها. ويربط إيجلتون هذا الوضع، تاريخيا، بأخر أزمات العالم الرأسمالى، بعد التحولات الجذرية التى شهدتها العالم كله، وهى التحولات التى غدت معها النظرية مسألة تمس النقطة الحساسة فى مركز المجتمع الغربى نفسه. ويضيف إيجلتون أن سبب قلقنا من التفجر النظرى الهائل الذى بدأ منذ أواخر الستينيات هو أننا لم نحلّ، بعد، مشكلة دلالة هذا التفجر التى هى مشكلة سياسية بالدرجة الأولى، وأوسع بكثير من أن نقصرها على الأدب أو النقد. إنها دلالة مرتبطة بالدور الذى تؤديه الإنسانيات فى المجتمعات الرأسمالية، وترتبط بصعود خطاب معارض، ثقافة

ضدية، تدفع إلى المراجعة الذاتية، وتمايز بين نظرية تحررية وأخرى استحواذية، تسعى إلى تدجين أشكال التنظير المعارض. وغير بعيد عن ذلك مذهب إليه جيرالد جراف الأمريكي، فى العام نفسه، من أن تفجر النظرية نتاج مناخ من المخالفة الجذرية فيما يتصل بممارسات ثقافية دالة، هى ثقافة معارضة منشقة على الثقافة السائدة. هذه الثقافة المعارضة، فى جانب منها، لازمة من لوازم الأشكال الجديدة من المعرفة التى بزغت منذ نهاية الحرب العالمية الثانية كى تززع الطرائق الثابتة للفكر. وفى جانبها الآخر، نتيجة ترتبت على التسييس الذى ظهر فى أعقاب الحرب العالمية، مصاحبا التحولات الديموجرافية فى جامعات العواصم الكبرى من ناحية، وحركات طلاب الستينيات من ناحية ثانية.

ويقرن بول بوفيه "صحوة النظرية" فى الولايات المتحدة بالاحتجاج على التحولات الرجعية للسياسة الأمريكية، وتصاعد النزعة الريجانية (نسبة إلى الرئيس الأمريكى الأسبق رونالد ريجان) التى أعادت صياغة مشروع الاستعمار (الكولونيالية) تحت أقنعة جديدة. وفى السياق نفسه، يؤكد دانيال أوهارا (فى كتابه عن "الثقافة الأمريكية والوكالة النقدية بعد فوكو" ١٩٩٢) أن اللجوء إلى النظرية لفائدتها فى المعارك المتباينة جاء، أصلا، من نقاد اليسار الأمريكى الجديد أمثال إدوارد سعيد الذى كان إلحاحه على النظرية مرتبطا، فى جانب من جوانبه، بمواجهة النزعة الريجانية والتحول الكبير إلى اليمين المحافظ، سياسيا، فى الأمور التى تمس الاقتصاد والثقافة.

ويبدأ إعجاز أحمد الهندي من المنظور نفسه، مؤكداً أن تفجر النظرية ارتبط حقاً بمناخ من المخالفة الجذرية وثقافة معارضة أخذت في التبلور الجذري منذ الستينيات. ولكنه يضيف إلى ذلك أن صحوة النظرية المعارضة سرعان ما تم تكييفها لتقوم بتدجين نفس أشكال الانشقاق التي سعت حركات الستينيات الراديكالية إلى وضعها موضع الصدارة، وإحلال ثقافة نصية محل ثقافة تحريضية، ومنازلة النقد الضدى للثقافات بدروشة غامضة منسوبة إلى اليسار، وإعادة صياغة الموقف فى أسئلة مابعد حداثة، أسئلة تمزج بين الفلسفات الأوروبية المتباينة والاهتمامات الأنجلو أمريكية، لتتزع عن القضايا المؤرقة توترها، وتتحول بصحوة النظرية إلى مسألة تقنية خالصة، هى مناظرات مغلقة على الأكاديميين المحترفين. ويضع إعجاز أحمد عملية التدجين هذه، من منظور خطابه المعادى للكلونيالية، فى سياق تاريخى، يبرز المشترك من تحولات مثلث الثقافات البريطانية والأمريكية والفرنسية، ليؤكد النهاية التى تحولت بالأفق التحررى للتفجر النظرى، أو ما أسماه تيرى إيجلتون نظرية الانعتاق، إلى أفق مغلق من قضايا الحرفة.

وسواء وافقنا أو لم نوافق إعجاز أحمد على وجهة نظره الحديثة، من منظوره الماركسى الخاص الذى يصوغ به خطابه الضدى مابعد الكولونيالى فى النظرية، فما يجمعه ومن يختلف معهم اختلافاً جذرياً، مثل إدوارد سعيد بنزعته اليسارية الليبرالية، هو التسليم بأهمية النظرية ودورها التحررى الفاعل

من ناحية. ومن ناحية ثانية، الموافقة على أن الوضع الذى وصلت إليه الدراسات الأدبية، فى البلدان الناطقة باللغة الإنجليزية، إنما هو وضع يمثل درجة عالية من التطور فى مواقف نقدية متباينة، ودرجة عالية من التكاثر لما أسماه جيرالد جراف "تفجر النظرية" ووصفه بول بوفيه بأنه "صحوة النظرية". هذه الصحوة هى ما رأى بول بوفيه تذبذبها ما بين ذروة الصعود فى بداية الثمانينيات وذروة الهبوط مع نهايتها. ورأى فيها جيرالد جراف ودانيال أوهارا علامة معارضة ثقافية جذرية بدأت منذ حقبة الستينيات المتמרدة. وقرأ فيها تيرى إيجلتون الدلالة الثقافية لتناقضات المرحلة الأخيرة من الرأسمالية. وهى نفسها التى سيطرت على المناخ الذى صاغ فيه إدوارد سعيد أفكاره عن النقد المدنى الذى هو وعى مغاير بالنظرية.

وما يجمع بين هؤلاء جميعا وغيرهم، رغم تباينهم، هو قراءة الأزمة التى كانت الصحوة -أو التفجر- علامة دالة عليها، وإدراك أن الإلحاح على النظرية هو سمة المعرفة المعاصرة فى انعكاسها الذاتى الذى تتحول به من عهد إلى عهد، فى مواجهة الخلل الذى تعجز الحلول التقليدية عن معالجته. وليس هناك فارق جذرى فى التحليل الأخير، من منظور دلالة هذه الأزمة، بين إلحاح إدوارد سعيد على ضرورة مقاومة النظرية، وما انتهى إليه تيرى إيجلتون بعده من ضرورة أن تتسم النظرية بطراجة الوعى الذى يرفض ما يبدو طبيعيا، ويتبذخدا ع الإجابة المراوغة لتجليات السلطة القائمة بما فيها سلطة النظرية نفسها. وليس

هناك فارق كبير، من المنظور نفسه، بين دلالة الكيفية التي وضع بها إعجاز أحمد النظريات الشارحة لصحوة النظرية موضع المسألة النقضية ودلالة الصياغة الصورية التي أدمج بها إدوارد سعيد مبدأ مقاومة النظرية ضمن تأسيسه لها، فالدالتان متجاوبتان تجاوب أنماط الوعي الذي يلح على ضديته في مواجهة الأزمة التي يسعى إلى مجاوزتها.

هذا النوع من الوعي هو ما يميز المشهد النقدي المعاصر، في أفقه الطليعي الذي يشمل عواصم عديدة، تبدأ من نيويورك (حيث إدوارد سعيد) ولا تنتهي عند نيودلهي (حيث إعجاز أحمد). وهو نفسه الوعي الغائب إذا نظرنا إلى العواصم العربية، في علاقتها بهذا الأفق الطليعي، ثقافيا، حيث يغلب الاتباع على الابتداع، والتقليد على الاجتهاد. وإذا كان الوعي بالأزمة في الكتابات التي أشرت إليها علامة صحوة النظرية، في العواصم التي تبدأ من نيويورك ولا تنتهي عند نيودلهي، فإن غياب هذا الوعي قائم في العواصم الثقافية العربية. وأهم من ذلك أنه علامة وعي لم يعبء كونه في أزمة، مع أنه غارق في قرارة القرار من أزمة تغترب به عن العالم والتاريخ.

موقفان من النظرية

ما أشار إليه إدوارد سعيد فى تأمله اليسار النقدى، داخل المشهد الثقافى الأمريكى المعاصر، من حيث الإلحاح على حضور النظرية فى النقاش المتسع لقضايا النقد الأدبى، فى كتابه "العالم والنص والناقد" (١٩٨٣) إنما هو صياغة موازية للنتيجة نفسها التى بدأ منها، لكن من موقع نقدى مغاير، جوناثان كولر فى كتابه عن "التفكيك" أو "النظرية والنقد بعد البنيوية" (١٩٨٢). وترتبط الموازنة بين الكتابين بسياق متوتر من التحولات المتسارعة فى مفاهيم النقد وتطبيقاته، وذلك على نحو فرض سؤال النظرية، ملحقاً على كل مستويات النقد الأدبى وممارساته المتباينة. ونقطة اللقاء بين إدوارد سعيد وجوناثان كولر، رغم التباعد اللافت بين المواقف الفكرية التى تمثلها كتابات كليهما، هى الدلالة المشتركة المرتبطة بتصاعد الوعى بدور النظرية فى المجالات الأدبية، ومجاورة هذه النظرية حقلها الأدبى الخاص، فى سعيها إلى الجمع بين أفقها النوعى وغيره من آفاق الخطاب الثقافى داخل منطقة التميز الذاتى للانقطاعات المعرفية الجديدة.

وأول ما يلفت الانتباه فى كتاب كل من إدوارد سعيد وجوناثان كولر هو الإلحاح المتكرر لتردد دال "النظرية" بالقياس إلى درجة ترددها فى الكتاب السابق لكل منهما. إذ بينما لا نجد فى "بدايات" (١٩٧٥) إدوارد سعيد حديثاً مباشراً عن النظرية أو إلحاحاً عليها، من حيث هى نظرية، أو بالمعنى الذى قصد إليه

تيرى إيجلتون عندما استخدم مصطلح "النظرية الشارحة" للدلالة على الحقل المعرفى الذى يتخذ النظرية موضوعا له، نجد هذا النوع من الحديث يسيطر على كتاب "العالم والنص والناقد" اللاحق، حيث تغدو النظرية موضوعا ملحا للتأمل والدرس، ذلك على الرغم من أن كلا الكتابين وثيق الصلة بالمجال نفسه من النقد الشارح. والدلالة نفسها لافتة مابين كتابى جوناثان كولر، فبعد أن كان كتابه الأسبق "شعرية البنيوية" (١٩٧٥) يركز على معنى "شعرية" متعينة مخصوصة، أو النسق الذى يتشكل من علاقات العناصر التكوينية للنزعة البنيوية، دون وقفة دالة على البعد الذى يدخل فى إطار فلسفة النظرية بوجه عام، استبدل الكتاب المتأخر "عن التفكيك" بدال "الشعرية" دال "النظرية" فى العنوان الذى يشير إلى معالجة التفكيك من منظور "النظرية والنقد بعد البنيوية". واستهل الكتاب تقديمه لنزعة التفكيك بالوقفة عند دال النظرية نفسه، وارتباطه بمدلول جديد يشير إلى نوع متميز من الكتابة.

والمسافة الزمنية التى تفصل بين كتاب جوناثان كولر "شعرية البنيوية" وكتابه "عن التفكيك" لا تجاوز سبع سنوات، والمسافة الموازية بين كتاب إدوارد سعيد "بدايات" وكتابه "العالم والنص والناقد" لا تجاوز ثمانى سنوات. وهى مسافة قصيرة زمنيا. ولكنها دالة بما حملته من متغيرات فى سياق التحولات المتسارعة لمجالات النقد الأدبى، التحولات التى وضعت سؤال النظرية فى صدارة الاهتمام، ودفعت النقد الشارح إلى الإلحاح

عليها، فى منطقة التميز الذاتى للانقطاعات المعرفية الجديدة التى فرضت صراع التفسيرات والمناهج، ومن ثم صراع النظريات التى غدت فى حاجة إلى نظرية شارحة شاملة، تجعل من هذا الوضع المتحول موضوعا لها.

ولم تكن هذه الانقطاعات غائبة عن الدوافع التى دفعت جوناثان كوللر إلى مناقشة إلحاح النظرية، من حيث هو إلحاح دال يومئ إلى عدد من المدلولات، فى سياق من تحولات النظرية والنقد، خصوصا بعد انحسار النزعة البنيوية التى كتب عنها كتابه "شعرية البنيوية" الذى قام بتأصيل النزعة البنيوية تأصيلا بنيويا إلى الدرجة التى دفعت غير واحد من النقاد الشارحين، أو المنظرين، إلى عدُّ الكتاب نموذجا للوعى البنيوى الذى يقوم بتطبيع النزعة البنيوية فى الأذهان. وأتصور أن هذا النوع من الوعى كان الحافز الأولى المباشر الذى حفَّز كوللر على الكتابة عن نزعة التفكيك، من حيث هى استمرار طبيعى للنزعة البنيوية وتطور منطقى لها، وليس من حيث هى نقيض حدى، أو رغبة متوهجة فى أفق الاختلاف المفتوح الذى يرجئ إلى ما لا نهاية المعنى بألف لأم التعريف، مدمِّرا سجون النسق والنظام والمركز والعلة وثبات الدال وواحدة المدلول. ولذلك كانت كتابة كوللر عن نزعة التفكيك كتابة استحواذية، تهدف عملياتها التأويلية الاختزالية إلى إعادة الذات البنيوية إلى المركز بعد تدمير المركز نفسه، والتخيل بالاستدارة البنيوية حول مبدأ النقض الذى أسهم فى نفى معنى الاستدارة. ولم ينل كتاب كوللر عن نزعة

التفكيك، نتيجة ذلك، ما ناله كتابه الأسبق عن البنيوية، رغم أن الفارق الزمني بين الكتابين سبع سنوات فحسب (١٩٧٥-١٩٨٢) لكنها سبع سنوات من المتغيرات الحاسمة التي غربت بشمس البنيوية، وأسقطت عنها غواية فتنتها، وأنزلت كتاب كولر عن نزعة التفكيك منزلة المحاولة، مجرد المحاولة، لتقديم نظرية جذرية بواسطة تأويلات غير جذرية.

لكن يبقى الدافع الموازي للحافز المباشر في كتاب كولر، والمنسرب في صياغاته النظرية في الوقت نفسه. وهو دافع اكتشاف هذا النوع الجديد من الكتابات التي تتخذ النظرية موضوعا لها، وفهم النظرية نفسها في أفقها الذي يجاوز الحقل الأدبي، ويصل ما بينه وغيره من الحقول التي تضم أسماء دى سويسير وماركس وفرويد وچاك لاكان وچوليا كرسيفا، كما تضم أسماء هيجل ونييتشه وهانز چورچ جادامر وغيرهم. والقصد الكامن وراء حركة هذا الفهم هو تأسيس النظرية بوصفها إطارا علائقيا تستهدي به الممارسة، وتسترشد بمنطقه الذى ينبى على نوع من مركزية العلة أو الإطار الذى يوهم بشموله وقدرته على تفسير كل ما يدور فى فضائه. والحديث عن النقص الكامن فى النظرية، من حيث هى نظرية، غائب فى هذا النوع من القصد الذى ينبى على استجابة مذعنة لحضور النظرية، واستسلام للعنصر الإيديولوجى الكامن فيها، سواء فى تخيلها بعدم النقص، أو إيهامها من يمارسها بقدراتها التجريدية على مجاوزة حدود الزمان والمكان.

وعلى النقيض من ذلك كتاب إدوارد سعيد عن "العالم والنص والناقد" الذى يظل خطابه النقدى صوتاً شاكاً داخل النظرية، مذكراً إياها أن استراتيجياتها المعتادة غير عملية ماظلت تفصل الأدب والنقد معا عن الممارسات الاجتماعية الأوسع، معارضا كل صياغة صورية تغترب بالنظرية عن العالم، مؤكداً أن النقد يقع بين الثقافة والنسق، متوترا بينهما وليس خارج أى منهما بحال. ولذلك دعا إدوارد سعيد، منذ أن نشر "بدايات" فى العام نفسه الذى أصدر فيه جوناثان كولر كتابه "شعرية البنيوية"، وعلى الضد من نزعتة البنيوية اللاتاريخية، دعا إلى بداية منهجية جذرية، تجمع ما بين الحاجة العملية والنظرية، وتصل المقصد بالمنهج، بداية تعيد بناء المعرفة وتمدها بالحيوية، وتضع من جديد موضع المسألة سؤال اللغة من حيث هى موضوع للتأمل، وسؤال العلاقة المتبادلة بين المقاربات الأدبية والاجتماعية، وسؤال الهيمنة التى يمارسها حقل ثقافى على غيره، وأسئلة التحرر أو الحرية أو الأصالة التى تتحقق فى أنظمة اجتماعية وفكرية معقدة.

وبقدر ما يضع كتاب "العالم والنص والناقد" سؤال النظرية فى موضع الصدارة، ملحا على أهميته، يضع النظرية نفسها موضع المسألة، مميزا بينها والوعى النقدى الذى يقوم بعملية المسألة من حيث هو وعى ينطوى على إحساس مكانى، إحساس يُحلُّ النظرية فى المكان الذى انبثقت منه بوصفها جزءاً من الزمان، وعاملة فيه وعليه وله فى آن. ويعنى ذلك تأكيد صفة

النقص الملازمة للنظرية من حيث هي نظرية، فالنظرية تظل نسبية
 بأكثر من معنى ما ظلت مشروطة بزمانها ومكانها، ولا يمكن لها
 أن تستنفد كل أبعاد الموقف الذى انبثقت منه. إن النظرية لا
 يمكن أن تكون كاملة فيما يقول إدوارد سعيد، وذلك بالقدر الذى
 لا يمكن لأى شأن فى الحياة اليومية أن تستنفده تمثيلات أو
 نماذج الصورية أو تجريداته النظرية. ولذلك فإن حضور الوعى
 النقدى شرط حاسم فى فاعلية النظرية ومقاومة خطرها أو
 تخيلها الذى يوهم بكمالها، فالوعى النقدى إدراك مقاومة
 النظرية، وإدراك نجاحاتها وإخفاقاتها فى مواجهة ردود الفعل
 التى تواجهها بها التجارب التى تقاربه أو تحاول تفسيرها.

هذا النوع من الوعى النقدى هو ما يميز كتابة إدوارد
 سعيد عن كتابة چوناثان كولر، منذ أن كتب الأول "بدايات" ليؤكد
 معنى حاسما من معانى حضور الكتابة فى الزمان والمكان،
 فالبداية التى قصد تأصيلها فى كتابه هي اختيار فى زمن متعين
 بعلاقات مكانية متعينة. واختيارُ الكاتب بداية تخصه ليستهل بها
 ما يكتب فعلٌ حرٌ يحدد الكثير مما يأتى بعده ذلك لأن ابتداء
 العمل، عمليا، هو المدخل الأساسى لما يفضى إليه. وهو النقطة
 التى تحدد على الفور علاقة هذا العمل بالأعمال الأخرى، السابقة
 عليه والمعاصرة له، فالابتداء ليس نوعا من الفعل فحسب، وإنما
 هو إطار للعقل فى الوقت نفسه، نوع من العمل، والاتجاه والوعى،
 ممارسة ونظر فى آن. ولذلك فالبداية ابتداء جذرى، كيفية فى
 الكتابة والدرس والتأمل والبحث، كيفية تصل بين الحاجة العملية

والنظرية، بين القصد والنهج، ولا تحلم بأن تكون سوى منهج أو مقصد بين غيرها من المقاصد والمناهج، دون أن تدعى، قط، أنها المنهج بألف لام التعريف أو الإطلاق، ويترتب على ذلك أن النسبية كالحرية صفة كل بداية ماظلت البداية مشروطة بالمكان الذى تنبثق منه، بوصفها بعض الزمن الذى يتحدى نفسه، ويعنى ذلك أن البداية، منهجيا، تعيد بناء المعرفة وتُنشِطُها بين يدي الناقد، ليس بوصفها نتيجة منجزة سلفا وإنما بوصفها شيئا لا بد من فعله: مهمة أو بحثا.

ولقد كان كتاب "بدايات" بداية من هذا النوع، سرعان ما تفجرت كالوعد فى سياق تحولات المشهد النقدى الأمريكى لتستهل عهدا جديدا يصل بين الحاجة العملية والنظرية، وم دخلا فاعلا ينشِط المعرفة النقدية ويبنيها من جديد، على طريق النظرية الشارحة التى ألحت على الكتاب الثانى -العالم والنص والناقد- بعد أن ابتدأ الكتاب الأول رحلته التى أنزلته منزلة النقيض من كتاب جوناثان كوللر "شعرية البنيوية".

هكذا، اتخذ كتاب كوللر مكانه فى الطرف الأيمن من الممارسة النقدية فى استجابته الخاصة إلى سجن النسق، بينما حفر كتاب إدوارد سعيد لنفسه مبتدأ جديدا فى الطرف الأيسر من الممارسة نفسها، وذلك باستجابته المضادة التى فتحت سجن النسق على العالم، ووصلت النظرية بالممارسة، داخل فعل الحضور الخلاق للناقد، فكان الكتابان بيانين متعارضين فى العام نفسه (١٩٧٥)، لتحولات جذرية حلتْ بالمشهد الثقافى الأمريكى. نظريات معاصرة . ٣٣٧

وبقدر ما نال كتاب كولر من الذیوع والانتشار فور صدوره، والاحتفاء به على مستوى المؤسسات الأكاديمية الرسمية والهيئات الثقافية المؤثرة، ظل تقدير كتاب إدوارد سعيد محصوراً فى الدوائر الطليعية. وقد احتفلت المؤسسات الأكاديمية وما فى حكمها بكتاب كولر احتفالاً مدوياً عندما منحتة الجمعية الحديثة للغة جائزة جيمس رسل المرموقة. أما كتاب إدوارد سعيد فاحتفلت به دوائر طليعية محدودة، فى العام التالى لصدوره. وكان ذلك فى العدد الثالث (المجلد السادس) من مجلة دياكرتكس (علامات فارقة) الذى صدر فى خريف ١٩٧٦، متضمناً حواراً كاشفاً مع إدوارد سعيد، بعد دراسات عن الكتاب بأقلام كل من ج. هيلز ميلر، وهایدن وايت، وجوزيف ريدل، ويوجینو دوناتو. وهم مجموعة من الطليعة النقدية الأمريكية التى يلتقى وأغلب أفرادها إدوارد سعيد فى الاهتمام المشترك بالأسئلة النظرية الحاسمة التى يواجهها النشاط النقدى، والميل إلى النظريات الجديدة التى شكلت تياراً رئيسياً فى نقد القارة الأوروبية بالقياس إلى الولايات المتحدة، والتصدى المباشر للتورطات الإيديولوجية لأغلب النقد الأدبى الأكاديمى، والإيمان بالدور الاجتماعى للنقد، ذلك الدور الذى أکده كتاب إدوارد سعيد فاستحق به أول جائزة تمنح باسم ليونيل تريلنج (١٩٠٥-١٩٧٥). وهو واحد من أبرز أعلام حركة اليسار النقدى الأمريكى، صاحب كتاب "الخيال الحر" (١٩٥٠) "والذات المعارضة" (١٩٥٥).

وشيئاً فشيئاً، أخذ كتاب "بدايات" يفرض نفسه على

الواقع الثقافى الأمريكى. تؤكد قيمته المجموعات الراديكالية، ويحتفى به ممثلو الطليعة واليسار الجديد، لكن فى دوائر صغرى بالقياس إلى الدوائر الكبرى التى تجاوزت فيها أصداء شهرة كتاب كوللر الذى أصبح دالا على مشروع مناقض فى الواقع نفسه الذى سرعان ما اجتاحتها دوامة التغيرات المتسارعة. ولكن، ظل كلا الكتابين دليلا على تعارض ضدى بين مشروعين متقابلين فى الواقع المتحرك نفسه.

ويزداد هذا التقابل وضوحا حين نضع فى اعتبارنا أن مشروع إدوارد سعيد النقدى يبدأ من الواقع الثقافى فى توتر تغييره، محاولا دفع عناصر التحول إلى أفق أكثر وعيا، أفق يؤسس لوعى نقدى يدرك الاختلاف بين المواقف مثلما يدرك أنه ما من نسق أو نظرية يستنفدان أبعاد الموقف الذى انبثقا عنه أو انتقل إليهما. وأولى صفات هذا الوعى أنه مبنى ليقاوم النظرية فى محاولتها ادعاء الكمال، ويكشف عن ردود الأفعال التى تظهرها التجارب والأحداث التى تتصارع معها، والتى لا يمكن أن تستنفدها النظرية. ووظيفة الناقد المزود بهذا الوعى هى فتح النظرية على الواقع التاريخى، والمجتمع، والمطالب والاهتمامات الإنسانية، وتعيين الشواهد الملموسة المستمدة من الواقع اليومى، خارج المنطقة التفسيرية المحددة سلفا بالضرورة، لكى تحيط النظرية بكل وقائعها. ويعنى ذلك أن الانغلاق النظرى، شأنه شأن العرف الاجتماعى الصارم، أو "الدوجما" الثقافية، لعنة الوعى النقدى والوباء الذى يحاول الفرار منه.

أما المشروع المقابل لجوناثان كوللر على نحو ما أرهص به كتابه "شعرية البنيوية" فيبدأ من الواقع نفسه، ولكن يسير في الطريق ضد الذي يستبدل بالوعى النقدي وعيا لا يقاوم النظرية في محاولاتها التخيلية التي تغطي بها على نقصها المحايث، فانتهى إلى تدجين عناصر التغير الجذرى، والإسهام فى العودة بها إلى القماقم التي تمنع انطلاق المردة، ومن المنطقي، والأمر كذلك، أن يصوغ كوللر شعرية البنيوية، فى علاقة مضمرة بالعناصر المحافظة من "النقد الجديد" فى الولايات المتحدة، صياغة تأويلية انتهت إلى ما ينطبق عليه القول العربى القديم: هذه بضاعتنا رُدَّتْ إلينا، ولذلك أشار نقاد كوللر الراديكاليين إلى أنه يتناول المواقف النظرية دون اهتمام بالمتوسطات التاريخية التي أنتجتها وأسهمت فى تشكيلها فتحدّث تيرى إيجلتون (فى كتابه: "ضد التيار" ١٩٨٦) عن عنف انتزاع الجانب السياسى من النظرية الفرنسية فى مشروع كوللر البنيوى، ذلك المشروع الذى كان المقصد منه تقديم النزعة الجذرية الباريسية تقديما مُدجّنا إلى العالم الحر. وذهب فرانك لينترشيا (فى كتابه "مابعد النقد الجديد" ١٩٨٠) إلى أن كوللر أَهَالَ البنيوية على الفرضيات السابقة للنقد الجديد، فى تأويل استند إلى مبادئ فكرية مألوفة وعزيزة جدا على العقل النقدي الأمريكى التقليدى، ومن ثم كانت الجائزة الكبرى التي حصل عليها كتابه تعبيرا إيديولوجيا عن رضا المؤسسات التقليدية واستحسانها لمشروعه الذى يهدف، ضمنا، إلى إبقاء العالم على ما هو عليه.

ولكن هذا التضاد بين مشروعى جوناثان كولر وإدوارد سعيد لا ينفى التقاءهما حول نقطة محددة، هى نقطة الإلحاح على النظرية وتأكيد حضورها. وسواء كنا نتحدث عن مشروع إدوارد سعيد الذى يقاوم النظرية، أو عن مشروع جوناثان كولر الذى يبرر النظرية، فإن كلا المشروعين ممسوس بحضور النظرية. والوعى السلبي فى أحدهما لا يختلف عن الوعى النقدي الذى يقابله من هذه الزاوية. كلاهما وعى لا يفارقه الشعور المتوتر بإلحاح النظرية عليه. وإذا كان جوناثان كولر قام بالأداء الاستهلاكي للشعيرة الطقسية للنظرية، داخل سياق التحولات النقدية المتسارعة فى المشهد الثقافى الأمريكى، فإن إدوارد سعيد قام بأداء دور موان من منظور الصحة نفسها، خصوصاً حين أكد أهمية الجمع بين الحاجة العملية والنظرية فى "بدايات"، وأكد حضور النظرية فى علاقات "العالم والنص والناقد"، ملحاً على أنه من السخف إلغاء النظرية، وذلك لأن كل نص وكل قارئ نتاج لموقف نظري. وتنطوى العلاقة الضدية بين المشروعين على مفارقة لافتة من منظور هذه الدلالة المشتركة، فمشروع إدوارد سعيد الذى يقاوم النظرية مشروع يعمل لصالح النظرية فى التحليل الأخير، بينما مشروع كولر الذى يبدو كأنه احتفاء بالنظرية، على المستوى السطحي للقصد، ينتهى إلى غير صالح النظرية، على المستوى الأعمق للمنهج.

وليس من المصادفة أن كتاب جوناثان كولر عن "التفكيك" الذى هو دراسة فى "النظرية والنقد بعد البنيوية"، صدر قبل عام

واحد فحسب من كتاب إدوارد سعيد عن "العالم والنص والناقد"، في سياق متعاقب، يبدو معه كتاب إدوارد سعيد كأنه رد ضمنى عليه في مستوى من مستوياته المضمره. ويبدأ كتاب كولر بتأكيد الأولوية التي اكتسبتها النظرية الأدبية في المشهد المعاصر، ويربط هذه الأولوية ربطاً وثيقاً بكتابات أخرى داخل مجال لم يتم تسميته بعد فيما يقول، غير أنه يطلق عليه اسم "النظرية" على سبيل الاختصار. هذا المجال ليس النظرية الأدبية، لأن العديد من أعماله لا يخاطب الأدب مباشرة، وهو ليس الفلسفة بالمعنى الدارج للكلمة، لأنه يشمل كتابات دى سوسير وماركس وفرويد وچاك لاكان، كما يشمل كتابات هيجل ونييتشه وهانز جورج جادامر. ولا يستبعد كولر إمكان تسمية كتابات هذا المجال باسم "النظرية النصية" خصوصاً إذا فهمنا "النص" بوصفه كل ما تنطقه اللغة. لكن الكتابات التي يشير إليها كولر تلفت الانتباه بطبيعتها التي تقوم على قوة تغريب المؤلف، ودفع القراء إلى التفكير في تفكيرهم، وإعادة النظر في سلوكهم ومؤسساتهم بطرائق جديدة، أي أنها كتابات تتضمن معنى اللغة الشارحة في التفافها الذاتي الذي يتقدم به الوعي في وعيه بكيفية وعيه. ورغم أن كولر يحاول فهم هذه الكتابات بوصفها "نوعاً" أو "جنساً" جديداً من الكتابة في منطقة المعرفة البينية التي تصل بين تخصصات متعددة، ويصل وصلاً وثيقاً بين هذا النوع الجديد و"النظرية" الأدبية في إلحاحها المعاصر على الأذهان، مؤكداً أن منظري الأدب هم الذين قاموا بأغلب ما وجب القيام به لتأسيس

نوع "النظرية"، فإنه لا يناقش هذا النوع مناقشة نقدية، ولا يلتفت إلى الدلالة التاريخية لإلحاحه الذي يقترن بصحوة النظرية، من حيث هي دال يقع مدلوله في الزمان والمكان اللذين ينبثق فيهما وعنهما ذلك الدال.

وليس من الضروري أن نوافق كوللر على مسمياته، فالأقرب إلى فلسفة العلم أن نصف ما يشير إليه من الكتابات، لا على أساس من وحدة نوع وإنما على أساس من عنصر متكرر، هو إلحاحها على ما تقدمه من "نظريات شارحة" تتخذ موضوعا لها "النظرية" في مجالات العلوم الإنسانية المختلفة، وذلك من منظور انقسام النظرية على نفسها لتغزو ذاتا تتأمل وموضوعا للتأمل في الوقت نفسه. وهو انقسام له فائدته في "مقاومة النظرية" بالمعنى الذي قصد إليه إدوارد سعيد، أو فائدتها في حوار التعاقب والتزامن الذي تتصارع به الصياغات الصورية المختلفة للمشروعات النقدية. ومثال ذلك ما فعله إدوارد سعيد بالسابقين عليه، أو المعاصرين له، في النظرية الشارحة التي تضمنها كتابه "العالم والنص والناقد". ومثال ذلك أيضا ما فعله نقاد إدوارد سعيد الشارحين بمشروعه نفسه، في مستوى مغاير من مستويات النظرية الشارحة.

ويكفى أن نشير إلى أحد المفكرين لأفكار إدوارد سعيد في هذا السياق، وهو بول بوفيه أستاذ الدراسات الثقافية في جامعة بتسبرج الذي وضع مشروع إدوارد سعيد موضع المساءلة، ضمن كتابه في "صحوة النظرية". وهو الكتاب الذي

ينطلق من تأكيد أهمية الدور الذي لعبته "حركة النظرية" في الولايات المتحدة. يقصد تلك الحركة التي يحتل فيها إدوارد سعيد مكانة بارزة، جنباً إلى جنب مجموعة من الطليعة الأمريكية. ويرى بوفيه أن هذه الحركة (التي صاغت "حقبة النظرية" التي تواصلت في الولايات المتحدة من ١٩٦٤ إلى ١٩٨١) وصلت إلى ذروتها في مطلع الثمانينيات، مقترنة بشعور متفائل بأنها حركة ظافرة ضد الأنواع الراسخة من النقد الجديد. وصحب هذا الشعور التطلع إلى ما كانت هذه الحركة على وشك أن تجنى ثماره في البرامج الدراسية والتعليمية والتثقيفية، وفي الخطاب النقضى الذى بدأ صاعداً، وأعدا، فى قدرته على المسألة السياسية للمؤسسات واللغات السائدة، القمعية والاستغلالية، الخاصة بثقافات وسياسات مابعد الحداثة والكولونيالية الجديدة. لكن حقبة الثمانينيات انتهت بشعور مناقض لبدائها الواعدة فيما يرى بوفيه، بسبب انتصار النزعة الريجانية المحافظة التى قامت بانقلاب مضاد على كل المستويات، فسلبت "حركة النظرية" ما أوشت على تحقيقه من انتصار حاسم.

هذه النتيجة التى توصل إليها بوفيه لا تختلف كثيراً عن ملاحظه إدوارد سعيد نفسه، فى مقدمة كتابه عن العالم والنص والناقد، من وجود اقتران لافت بين صعود فلسفة النصية الخالصة، بالغة الضيق فى تحديدها المرتبط بعدم التدخل النقدى، وصعود النزعة الريجانية والحرب الباردة الجديدة، جنباً إلى جنب تزايد النزعة العسكرية المقترنة بزيادة الإنفاق العسكرى، والتحول

الهائل إلى اليمين المحافظ في الأمور التي تمس الاقتصاد والخدمات الاجتماعية والعمل المنظم. وهي نتيجة تعيدنا إلى العلاقة بين أطراف مثلث: العالم والنص والناقد، ولكن في سياق أوسع من علاقات إنتاج القوة وتوزيعها، وترابطات السلطة وأساليبها المباشرة وغير المباشرة في الهيمنة. وذلك سياق يفرض حضور الوعي النقدي، بوصفه وعيا يضع موضع المسألة كلا من العالم والنص الذي ينتجه الناقد عن هذا العالم. وتأكيد قيمة الممارسة الفاعلة في علاقتها بالنظرية. ومقاومة النظرية نفسها، من منظور هذا الوعي، جزء من تأكيد معنى الفعل في هذا العالم. ولذلك دعا إدوارد سعيد إلى "النقد المدني" في مواجهة كل «أنواع النقد الأصولي» الذي يبنى على معتقد جامد وفهم تسلطي وخطاب قمعي، وفي مناقضة لافئة للأنظمة الشمولية، والأنساق المغلقة أو الهرمسية الطابع، والرفض الجذري لكل صياغة صورية تتحول إلى وعى نظري خالص يغترب بالنقد عن العالم، أو يغترب بالعالم عن وعيه النقدي.

وليس الوعي الضدي بالنظرية، من منظور النقد المدني، إنكارا لوجودها أو إنكارا لضرورة الإلحاح عليها، وإنما تأكيد لمخاطر النظرية حين تزعم أنها تغطي كل جوانب موضوعها، وتستوعب كل أبعاد الموقف الذي تنبثق منه. وفي الوقت نفسه، وبالتبعية، مواجهة مزائق المنهج والنسق حين ينعزلان عن الممارسة الحية، ويغتربان بعوالم النصوص، ويفقدان القدرة على الشعور بالمجتمع الذي ينتجها والمجتمع الذي يعيد إنتاجها. وذلك

هو الوضع الذى تتحول به النظرية إلى خطاب منغلق على نفسه، يحدد سلفا مايقوم بمناقشته، ويقلب كل شئ إلى شاهد على منهجه الذى لن يكون له فاعلية فى العالم، لأنه يتجاهل أحوال العالم التى تتشكل بها وفيها النظرية والنسق والمنهج.

هكذا، انطلق إدوارد سعيد فى محاولة أصيلة لمجاوزة أربعة أشكال سائدة من النقد، هى: النقد التطبيقى الذى يأخذ شكل المتابعة والمراجعة فى الصحافة الأدبية؛ والتاريخ الأدبى الأكاديمى المنحدر من تخصصات القرن التاسع عشر؛ والتفسيرات الأدبية التى لا تنحصر فى المؤسسات الجامعية؛ وأخيرا النظرية الأدبية التى لا تنطوى على معنى الحضور فى العالم. وكانت المحاولة تهدف إلى صياغة وضع نقدى جديد، نظرا وممارسة، انطلاقا من الإيمان بأن النصوص الأدبية والنقدية نصوص دنيوية، تنتمى إلى العالم، من حيث هى أحداث تقع فيه، ومن حيث هى (حتى عندما تنكر أنها) جزء من العالم الاجتماعى والحياة الإنسانية، وبالطبع جزء من اللحظات التاريخية التى تقع أو تُفسر فيها. ويعنى ذلك أنه لا قيمة لأية نظرية لا تؤكد العلاقة بين النصوص (الأدبية - النقدية) والوقائع الموجودة فى الحياة الإنسانية سياسيا واجتماعيا، وأن حقائق القوة والسلطة، مثل حقائق المقاومة لكتيهمما، هى الحقائق التى تجعل هذه النصوص ممكنة، وأن الوعى النقدى جزء من العالم الاجتماعى الفعلى الذى نعيش فيه.

هذا الوعى النقدى أخص خصائصه أنه متحيز دائما فى

مكان. وهو وعى شاكّ، مدنى، متوتر ما بين الثقافة والنسق، مفتوح على إمكان فشله بما يضعه إزاء نفسه، دائماً، موضع المسألة. ومن ثم، فهو وعى معارض، ومعارضته أكثر جذرية من أن يختزلها معتقد أو موقف سياسى محدود. وإذا كان على هذا الوعى أن يوجد، فى عالم متعين بإدراك ذاتى آنى، فإن هويته هى اختلافه عن غيره من الأنشطة الثقافية الأخرى، وعن أنساق الفكر المخلفة، أو المنهج الثابت الذى يغترب عن تاريخيته. هذا الوعى فى ريبته بالمفاهيم الشمولية، وسخطه على الموضوعات المتشينة، وضيقه بالكهنوت الطائفى والمصالح الخاصة والعادات المتصلبة للعقل، ينقسم على نفسه، ويلوذ بضديته لينجو من خطر التحول إلى معتقد جامد، ويفتح أفق النظرية على السؤال، حتى لو أدى الأمر إلى تقويض النظرية من أصلها، ذلك لأن مركزية العلة الثابتة لا تقل خطراً فى تشييق النظرية عن جمود العلاقة بين العناصر.

والضدية، كالمُعَارَضَةِ، قَرِينَةُ نَوْعٍ من السخرية الناجعة فى مواجهة هذا الخطر، وعلامة على حيوية النظرية فى ثقافتها المعرفى المتجدد على نفسها، فالنقدُ المدنى يعنى نَفْسَهُ بوصفه دعماً للحياة المتوثبة، ومعارضة جذرية لكل ألوان الجمود والتصلب والأحادية، ونقضا جذريا لكل شكل من أشكال الطغيان والتسلط والعسف. وأهدافه الاجتماعية، نظرا وتطبيقا، معرفة اختيارية تنتج لصالح الحرية الإنسانية. هذه الحرية الإنسانية، بدورها، لا تتجزأ أو تنقسم لأنها حضور خلاق فى كل المجالات

السياسية والاجتماعية والفكرية. وإذا وافقنا ريموند وليامز، فيما يقول إدوارد سعيد، على أنه أيا كان من يهيمن على النسق الاجتماعى، فإن معنى الهيمنة نفسه يتضمن تحديد أو اختيار الأنشطة التى تشملها هذه الهيمنة، وذلك لأنها لا تستطيع أن تستوعب كل جوانب التجربة الاجتماعية التى تنطوى (لهذا السبب) على فضاء ممكن لأفعال ومقاصد بديلة، لم تتشكل بعد بوصفها مؤسسة اجتماعية أو حتى بوصفها مشروعا- أقول إذا وافقنا على ذلك - فإن النقد المدنى ينتمى إلى هذا الفضاء الاجتماعى الممكن داخل المجتمع، ويقوم بعمله نيابة عن هذه الأفعال والمقاصد البديلة التى يكون الحرص على التقدم فيها، نظرا وتطبيقا، التزاما إنسانيا وثقافيا.

فهرس

فهرس

* مفتتح ٩

* نظرية التعبير

- ٢٣ - تأصيل النظرية.
- ٣٧ - لوازم نظرية التعبير.
- ٤٩ - تطوير نظرية التعبير.
- ٦١ - نقض نظرية التعبير.

* البنيوية التوليدية

- ٨٣ - عن البنيوية التوليدية.
- ١٠٧ - جولدمان ورؤية للعالم.
- ١٢٥ - ممارسة البنيوية التوليدية.
- ١٤١ - اختلاف البنيوية التوليدية.
- ١٦٣ - مسألة البنيوية التوليدية.

* البنيوية والشعرية

- ١٩٣ - ذكريات بنيوية.
- ٢٠٧ - فتنة البنيوية.
- ٢١٩ - عن الشعرية.
- ٢٣٣ - نقض الشعرية.
- ٢٤٩ - مصير الشعرية.

* وعى النظرية

- ٢٦٧ - وعى النقد الأدبي بنفسه.
- ٢٧٧ - مستويان للغة الشارحة.
- ٢٨٧ - النقد الشارح.
- ٢٩٩ - أهمية النظرية.
- ٣٠٩ - دلالة النظرية.
- ٣٢١ - صحة النظرية.
- ٣٣١ - موقفان من النظرية.

تذييل

نشرت الصياغة الأولى من «نظرية التعبير» في مجلة «الأقلام» العراقية، بغداد، يناير ١٩٧٧. وظهر الجزء الرئيس من «البنوية التوليدية» في مجلة «فصول» بالقاهرة يناير ١٩٨١. ونشر القسم الخاص بالبنوية والشعرية، أسبوعيا، في جريدة «الحياة» في الفترة من ١٩٩٥/٣/٢٦ إلى ١٩٩٥/٤/٢٤، وكذلك القسم الأخير، عن «وعى النظرية» فقد نشر في الجريدة نفسها، أسبوعيا، من ١٩٩٦/١/٢٩ إلى ١٩٩٦/٣/١٨.

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ٩٦٠٣ / ١٩٩٨

I.S.B.N 977 - 01 - 5824 - 0



ومازال نهر المطاء يتدفق، تتفجر منه ينابيع المعرفة والحكمة من خلال
إبداعات رواد النهضة الفكرية المصرية وتواصلهم جيلاً بعد جيل - ومازلنا
نتشبع بنور المعرفة حقاً لكل إنسان ومازلت أحلم بكتاب لكل مواطن
ومكتبة في كل بيت.

سُبِّت التجربة المصرية «القراءة للجميع» عن الطوق ودخلت «مكتبة
الأسرة» عامها الخامس يشع نورها ليضيء النفوس ويثري الوجدان بكتاب
في متناول الجميع ويشهد العالم للتجربة المصرية بالتألق والجدية
وتبتمدها هيئة اليونسكو تجربة رائدة تحتذى في كل العالم الثالث،
ومازلت أحلم بالمزيد من لآلئ الإبداع الفكري والأدبي والعلمي تترسخ في
وجدان أهلى وعشيرتى أبناء وطنى مصر المحروسة، مصر الفن، مصر
التاريخ، مصر العلم والفكر والحضارة.

سوزان مبارك

